الباب الأول

نسب أبي الطيب

الفصل الأول

قبيلته

أبو الطيب أحمد بن الحسين بن مرَّة بن عبد الجبار الجعفي الكندي الكوفي. أو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي [1].

ويقول بعض المؤلفين: أحمد بن محمد ... الخ.

جعفي- الذي ينسب إليه المتنبي- هو جُعفي بن سعد العشيرة من مذَحِج من كَهلان من قحطان. وكندة- التي ينسب إليها المتنبي- هي مَحلة في الكوفة كانت تسكنها قبيلة كندة. قال في إيضاح المشكل: «حدثني ابن النجار ببغداد أن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف بكندة بها ثلاثة آلاف بيت من بين رواء ونساج». ولا ينبغي أن نعول على قوله من بين رواء ونساج، فقد روى لنا الخطيب أن المتنبي كان جاراً لأشراف من العلويين، كما يأتي.

---

(١) الخطيب وابن خلكان.

وقد ظنّ بعض الناس أن أبا الطيب من كِندة القبيلة. فقالوا بُدئ الشعر بكندة وختم بكندة يعنون امرأ القيس في البدء والمتنبي والرماديّ الشاعر في الختام، وكانا متعاصرين. وروى أن أبا فراس قال لأبي الطيب في مجلس سيف الدولة: «يا دعيّ كندة».

وروى الخطيب البغدادي عن أبي الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدي قال: كان المتنبي وهو صبي ينزل في جواري بالكوفة وكان يُعرف أبوه بعبدان السقاء يسقى لنا ولأهل المحلة ... وكان عبدان والد المتنبي يذكر أنه من جعفى. وكانت جدة المتنبي هَمْدانية صحيحة النسب لا أشك فيها وكانت جارتنا وكانت من صلحاء النساء الكوفيات.

وروى عَليّ بن المحسّن التنوخي عن أبيه أنه حدّث المتنبي بالأهواز وهو راجع من فارس عن أبي الحسن (العلوي) فقال: تربي وصديقي وجاري بالكوفة، وأطراه ووصفه. قال التنوخي: واجتمعت بعد موت المتنبي بسنتين بالقاضي أبي الحسن بن أم شيبان الهاشمي الكوفي وجرى ذكر المتنبي فقال: كنت أعرف أباه بالكوفة شيخًا يسمى عبدان يستقى على بعير له وكان جعفيًا صحيح النسب.

وقال العكبري: أما أبو الطيب فيقال إنه جعفى ولم أتحققه.

وفي تبدّى الشاعر في صباه وغلبة البداوة على طباعه طول عمره- ما يدل على أنه كان عربياً متصلا بالبوادي.

ولسنا نجد في شعر المتنبي ذكر نسبه. وقد قال في قصيدة يمدح بها علي بن إبراهيم التنوخي:

أمنسيّ السَّكون وحضرموتًا ووالدتي وكندة والسبيعا

قال الواحدي: «هذه أماكن بالكوفة سميت بأسماء قبائل كانوا يسكنون بهذه المحال». وقد روى البيت: أمنسي الكناس الخ. وقال العكبري في شرحه: الكناس محلة بالكوفة، وكذا حضرموت، وكندة محلة غربي الكوفة، والسبيع سوق بالكوفة ومحلة كبيرة. وكل هذه المواضع سميت بأسماء من سكنها.

فليس في ذكر هذه الأسماء إبانة عن نسب لشاعرنا، وقد حرص المتنبي على ألا يذكر نسبه في شعره. فما ذكر أباه ولا جده ولا أحداً من آبائه ولا صرَّح باسم قبيلة ولا عشيرة.

وروى الخطيب عن علي بن المحسّن التنوخي عن أبيه قال: «وسألت المتنبي عن نسبه فما اعترف لي به وقال: أنا رجل القبائل وأطوى البوادي وحدي ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذني بعض العرب بطائلة بينه وبين القبيلة التي أنتسب إليها. وما دمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لساني».

وفي شعر الرجل نفسه ما يدل على أنه كان يكتم نسبه. وفي القصيدة التي مدح بها أبا العشائر ابن حمدان والتي أولها:

لا تحسبوا ربَعكم ولا طلله أول ميت فراقُكم قتله

يقول:

أنا ابن من بعضُه يفوق أبا ... الباحث والنجلُ بعض من نجله
وإنما يذكر الجدود لهم ... من نفَروه وأنفدوا حيله
فخراً لعضب أروح مشتمله ... وسمهريّ أروح معتقله
وليفخر الفخر إذ غدوتُ به ... مرتدياً خيره ومنتعله
أنا الذي بيَّن الإله به الأقدارَ ... والمرءُ حيثما جعله
جوهرة تفرح الكرام بها ... وغصة لا تسيغها السفله
إن الكذاب الذي أُكاد به ... أهونُ عندي من الذي نقله
فلا مُبال ولا مُداج ولا ... وانٍ ولا عاجز ولا تُكَله

وظاهر من هذا الشعر أن قومًا تكلموا في نسبه وازدروه، فلم يجبهم بذكر نسبه بل قال: إن له آباءً عظاماً ولكنه ليس في حاجة إلى أن يستنجد نسبه وهو قادر على أن يغلب خصومه وحده.

وكذلك فخَرَ أبو الطيب بقومه وآبائه في مواضع أخرى من شعره دون أن يذكر اسم رجل أو عشيرة أو قبيلة.

قال في إحدى قصائد الصبا:

لا بقومي شُرفت بل شرفوا بي ... وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضاد ... وعَوذُ الجاني وغوث الطريد

وقال في قصيدة الحمَّى بمصر:

أرى الأجداد تغلبها كثيراً ... على الأولاد أخلاق اللئام
ولستُ بقانع من كل فضل ... بأن أُعزَى إلى جَد همام

وقال في رثاء جدته لأمه:

ولو لم تكوني بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونُك لي أمّا

***

وإني لمن قوم كأنّ نفوسهم بها أنَف أن تسكن اللحم والعظما

ليس في هذا تصريح بنسب ولكن بعض شعره يدل على عصبية يمانية؛ فأكثر ممدوحيه في أيامه الأولى من قبائل يمانية: مدح شجاع بن محمد الأزدي، وعلي بن أحمد الطائي، وشجاع بن محمد الطائي، وعبيد الله بن يحيى البحتري، وأخاه أبا عبادة، ومدح التنوخيين في اللاذقية ومنهم علي بن إبراهيم التنوخي الذي قال فيه:

أمنّسيّ السَّكون وحضرموتًا ووالدتي وكندة والسبيعا

وقال علي لسان بعض التنوخيين يفضل اليمن على خندف:

قضاعة تعلم أني الفتى الذي ادّخرت لصروف الزمان
ومجدي يدل بني خندف على أن كل كريم يماني

ويقول في مدح عبيد الله بن يحيى البحتري:

كفى بأنك من قحطان في شرف وإن فَخَرت فكل من مواليكا

وفي مدح أبي عبادة بن يحيى البحتري:

قد كنت أحسب أن المجد من مضر حتى تبحتر فهو اليوم من أدَد [1]

(١) تبحتر صار بحترياً. وبحتر من أدد من طيء.

وقال للحسين بن إسحق التنوخي، وقد هجاه بعض الناس ونسب الهجاء إلى المتنبي:

أبت لك ذمّي نخوة يمنية ونفس بها في مأزق أبداً ترمى

فهذه الأبيات كلها تنمّ عن تعصب لليمنية وولع بمدحهم، ولكننا نجد أبا الطيب يمدح أبا الحسين علي بن أحمد المرّي في جبل جُرش، بالقصيدة الثائرة التي أولها:

لا افتخارٌ إلا لمن لا يُضام مدركٌ أو محاربٌ لا ينام

فيقول:

كُتبت في صحائف المجد بِسمْ ثم قيسٌ، وبعد قيسَ السلام
إنما مرّة بن عوف بن سعد جمرات لا تشتهيها النعام

فكيف يقول هكذا رجل ذو عصبية قحطانية؟ كان بين أبي الطيب وأبي الحسين هذا مودة وهما في طبرية ولكن الشاعر لم يمدح صاحبه إلاّ بعد أن فارق طبرية. هل لنا أن نفسر هذا بأن الشاعر أراد أن يعتذر عن تأخره في مدح صديقه هذا وينفي عن نفسه تهمة تقديم القحطانيين عليه، ونستدل بما يقوله في القصيدة نفسها اعتذاراً عن التأخر:

قد لعمري أقصرت عنك وللوفد ازدحام وللعطايا ازدحام
خفت إن صرت في يمينك أن تأ خذني في هباتك الأقوام
ومن الرشد لم أزُرْكَ على القر ب. على البعد يعرف الإلمام
ومن الخير بطء سيبك عني أسرعُ السحب في المسير الجهام

يمكن أن يقال هذا، ويمكن أن يقال إنه أراد أن يُرضي ممدوحه دون مبالاة بعصبية يمنية أو قيسية. ولكنا إذا رجعنا إلى الحقائق وتطلبنا الأدلة القاطعة لم نجد في شعر أبي الطيب ما يدلنا دلالة صريحة على أن الرجل يمانٍ أو مضري ولا ما ينبئ بعشيرة أو قبيلة.

فإن كان أبو الطيب كتم نسبه إشفاقًا مما عسى أن يكون بين قومه وبين القبائل من عداوة فما أحسب هذا الخوف صحبه طول عمره فما ذكر نسبه في فخر أو غيره. ثم قد أنبأنا الرواة أنه جعفي وأنه نسب إلى كندة إحدى محلات الكوفة إذ ولد بها حتى ظنّ أنه كندي النسب. وهذا دليل آخر على خمول نسب شاعرنا. ثم اختلاف المؤرخين في تسمية أجداده دليل ثالث.

ومهما يكن فلا ريب أن شاعرنا كان عربيًا قحًا بل بدويًا فلا يعيبه أن كان من بيت فقير. وكفاه أن كان كما وصف نفسه:

ولكنّ قلبًا بين جنبيّ ماله ... مَدًى ينتهي بي في مراد أحده
يرى جسمه يكسى شفوفًا تربه ... فيختار أن يكسى دروعًا تهده

الفصل الثاني

أسرة أبي الطيب

يتفق ثقات المؤلفين على أن أبا الطيب هو أحمد بن الحسين، ثم يختلفون فيمن بعد هذا؛ فيقول بعضهم الحسين بن الحسن بن عبد الصمد، ويقول آخرون ابن مرة بن عبد الجبار.

وقد قدّمت ما رواه الخطيب عن محمد بن يحيى العلوي، والقاضي ابن أم شيبان الهاشمي أن أبا المتنبي كان يسمى عبدان السقاء.

ويظهر كذلك من أبيات رواها الثعالبي في اليتيمة وياقوت في معجم الأدباء وابن خلكان أن أبا المتنبي كان سقاء؛ فقد هجاه ابن لنكك البصري حينما سمع بقدومه بغداد راجعًا من مصر ووقوع شعراء بغداد فيه فقال أبياتًا منها:

لكنّ بغداد جاد الغيث ساكنَها نعالها في قفا السقاء تزدحم

قال شاعر آخر:

أيّ فضل لشاعر يطلب الفضـ ـل من الناس بكرة وعشيّا
عاش حينًا يبيع في الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء المُحيّا

ويخبرنا صاحب اليتيمة أن والد المتنبي «سافر به إلى الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضَرها ومن مَدرها إلى وبرها، ويسلمه في المكاتب

ويردّده في القبائل ومخايلُه نواطقُ الحسنى عنه، وضوامن النجح فيه حتى تُوفي أبوه وقد ترعرع أبو الطيب وشعَر وبرع».

وسواء أصحّ ما يقوله الثعالبي عن سفر والده إلى الشام أم لم يصح، فما ذكر المتنبي والده بكلمة ولا رثاه حين مات كما رثى أبو العلاء المعرّى أباه وأمه رثاء بليغًا. وهذا يشهد بما اتفقت عليه الروايات من أن والد أبي الطيب لم يكن رجلاً نابه الشأن.

ولا نعرف شيئًا عن والدة المتنبي ولعلها ماتت في حداثته قبل سفره إلى الشام ولكنا نعرف عن جَدته لأمه ما رواه الخطيب عن محمد بن يحيى العلوي أنها كانت هَمْدانية صحيحة النسب وكانت من صلحاء النساء الكوفيات. وأظنها التي عناها حين قال:

أَمُنسيّ السكون وحضرموتًا ووالدتي وكندة والسبيعا

فقد رثاها من بَعْدُ وسماها أمه. وقد رُوي في الصبح المنبي وفي نسخة الشرواني[1]: أن أبا الطيب قال في الاعتقال:

بيدي أيها الأمير الأريب لا لشيء إلا لأني غريب
ولأمّ لها إذا ذكرتني دمُ قلب بدمع عين مشوب

فإن صحّ هذا فليس دليلاً قاطعًا على أن أمه كانت حية إذ ذاك. فإنهُ يسمى جدته أمًّا كما تقدّم. وجدَّة المتنبي تفردّت من بين أسرته برثاء أبان فيه الشاعر عن إجلالها وحبّها، ووصفها أحسن الصفات.

(١) تنظر زيادات شعر المتنبي للشيخ عبد العزيز الميمني.

وأخبرنا كما أخبرنا الرواة أنها ماتت فرحاً بكتاب جاءها منه بعد طول غيبة أيأستها. يقول الشاعر في أول هذه القصيدة التي مزج فيه الحزن بالثورة على الزمان وأهله:

ألا لا أُرى الأحداث مدحاً ولا ذماً ... فما بطشها جهلاً ولا كفّها حلما
إلى مثل ما كان الفتى مرجعُ الفتى ... يَعُود كما أبدى ويُكرى كما أرمي
لك الله من مفجوعة بحبيبها ... قتيلة شوق غيرِ مُلحقها وصما
أحنّ إلى الكأس التي شربت بها ... وأهوى لمثواها التراب وما ضما
بكيتُ عليها خيفة في حياتها ... وذاق كلانا ثُكلَ صاحبه قِدما
ولو قتلَ الهجرُ المحبين كلهم ... مضى بلد باق أجدّت له صرما
عرفتُ الليالي قبل ما فعلتْ بنا ... فلما دهتني لم تزدني بها علما
منافعُها ما ضرّ في نفع غيرها ... تغذّى وتَروى أن تجوع وأن تَظما
أتاها كتابي بعد يأس وترحة ... فماتت سروراً بي فمتّ بها غمّا
حرام على قلبي السرور فإنني ... أعدّ الذي ماتت به، بعدها سمّا
تعجَّب من لفظي وخطّي كأنما ... ترى بحروف السطر أغربة عُصما
وتلثمه حتى أصا مداده ... محاجر عينيها وأنيابَها سحما

إلى أن يقول:

وما انسدّت الدنيا عليّ لضيقها ... ولكنّ طرفًا لا أراك به أعمى
فوا أسفا ألاّ أكبّ مقبلاً ... لرأسك والصدر اللذَيْ مُلئا حزما
وألا ألاقي روحك الطيب الذي ... كأنّ ذكيّ المسك كان له جسما
ولو لم تكوني بنتَ أكرم والد ... لكان أباك الضخمَ كونُك لي أما

فقد أعلمنا شاعرنا أنه ترك في الكوفة بيتًا يحن إليه، وقلبًا يعطف عليه، وأن له جدَّه صالحة تؤثره على نفسها أحبته وأحبها وحزنت لفراقه وحزن لفراقها.

وسنرى أثر هذا في سيرته من بعد.

الباب الثاني

سيرة أبي الطيب

الفصل الأول

من مولده إلى ذهابه إلى الشام

وُلد أحمد بن الحسين في محلة كندة، إحدى محلات الكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة من الهجرة، قال أبو القاسم الأصفهاني في إيضاح المشكل [1] : «حدثني ابن النجار ببغداد أن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف بكندة بها ثلاثة آلاف من بين روّاء ونساج».

وقد أجمع من رووا أخبار المتنبي على أنه وُلد في هذا المكان وهذا التاريخ. ولا نعرف من نشأته إلا نتفًا قليلة. روى صاحب الإيضاح أنه «اختلف إلى كتّاب فيه أولاد أشراف العلويين فكان يتعلم دروس العربية شعراً ولغة وإعرابًا؛ فنشأ في خير حاضرة».

وكان يختلف إلى الوراقين ليفيد من كتبهم، وقد لفت الناس إليه بذكائه وحفظه. روى الخطيب عن التنوخي عن أبي الحسن محمد بن يحيى

(١) إيضاح المشكل من شعر المتنبي لأبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني ألفه لبهاء الدولة بن بويه. (خزانة الأدب جزء ١ ص ٣٨٢ فما بعدها. ط القاهرة).

العلوي الزيدي: أنه نشأ محبًا للعلم والأدب وأنه تعلم القراءة والكتابة ولزم الأدباء والعلماء.

قال: «وأكثر ملازمة الوراقين فكان علمه من دفاترهم، فأخبرني ورّاق كان يجلس إليه يومًا قال لي: ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان قط. فقلت له: كيف؟ فقال: كان اليوم عندي وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعي (سماه الوراق وأنسيه أبو الحسن) يكون نحو ثلاثين ورقة ليبيعه. قال فأخذ ينظر فيه طويلاً فقال له الرجل: يا هذا أريد بيعه وقد قطعتني عن ذلك. فإن كنت تريد حفظه في هذه المدة فبعيد! فقال له: إن كنت حفظته فمالي عليك؟ قال: أهب لك الكتاب. قال فأخذت الدفتر من يده فأقبل يتلوه إلى آخره ثم استلبه فجعله في كمه وقام. فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن. فقال: ما إلى ذلك سبيل قد وهبته لي. قال: فمنعناه منه وقلنا له: أنت شرطت على نفسك هذا للغلام. فتركه عليه».

وفي الإيضاح أن أبا الطيب «كان في صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوّسه وأضلّه كما ضلَّ».

أقول: وأبو الفضل هذا هو- فيما يظهر- الذي مدحه بالقصيدة:

كفيّ أراني، ويك، لومك ألوما هَمّ أقام على فؤاد أنجما

وفي الديوان أنه مدح بهذه القصيدة رجلاً أراد أن يستكشفه عن مذهبه. وفي هذا دليل على أنه عني بالمذاهب المختلفة في صباه واتصل ببعض أصحابها.

وقد روي الخطيب وغيره [١] عن محمد بن يحيى العلوي أيضاً أنه قال عن أبي الطيب: «وصحب الأعراب في البادية فجاءنا بعد سنين بدوياً قحًّا».

ولسنا ندري متى ذهب أحمد إلى البادية، ولا كم أقام بها، والعلوي يحدثنا أنه أقام سنين. وقد روى ابن الأثير وغيره أن القرامطة أغاروا على الكوفة سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة. وأغار القرامطة على الكوفة كرّة أخرى سنة خمس عشرة وثلاثمائة، وهزموا جيش الخلافة وأسروا أميره يوسف بن أبي الساج؛ فيحتمل أن المتنبي فارق الكوفة إلى البادية أحيانًا خوفًا من هذه الغارات. ولعل أهله تبدوا بسبب آخر. ومهما يكن سبب إقامته بالبادية ففيها دليل على صلة بين بيته والقبائل البادية. وقد عاش الرجل بدويًا في خلقه وإعجابه بالبداوة وخبرته بقبائلها ومواطنها ومسالكها.

وقد بقيت ذكرى وقعة القرامطة بالكوفة في نفس أبي الطيب فحدَّث بها الحسن بن عبيد الله بن طُغُجّ في الرملة سنة ست وثلاثين وثلاثمائة. ووصف ما كان من القتل، فهال ذلك بعض الجلساء فقال أبو الطيب لابن طغج:

أباعثَ كلّ مكرمة طموح ... وفارسَ كل سَلْهبة سَبوح
وطاعنَ كل نجلاءِ غموسٍ ... وعاصَى كل عَذّال نصيح
سقاني الله قبل الموت يومًا ... دمَ الأعداء من جوف الجروح

(١) طبقات الأدباء لابن الأنباري والصبح المنبي للبديعي.

ويرى (بلاشير) في مقالة المتنبي من دائرة المعارف الإسلامية أن أبا الطيب ترك الكوفة إلى البادية أواخر سنة ٣١٢ وأنه أقام سنتين في بادية السماوة. ولست أدري كيف جزم بهذا التاريخ وكيف قدَّر المدة بسنتين. وأحسب هذا التقدير من أنه قرأ «سنين» سنتين في الخبر الذي رواه الخطيب وتبعه فيه صاحب الصبح المنبي.

ويرى الكاتب كذلك أنه ترك الكوفة إلى بغداد سنة ٣١٦ ولعل دليله في هذا الاستنتاج إغارة القرامطة على الكوفة تلك السنة. ولم أجد في أخبار أبي الطيب ما يعين تاريخ إقامته في البادية أو سفره إلى بغداد.

المتنبي في بغداد:

روى البديعي في الصبح المنبي [1] أن أبا الطيب حدث بهذا الحديث:

«وردت في صباي من الكوفة إلى بغداد، فأخذت خمسة دراهم بجانب منديلي وخرجت ... الخ».

ولسنا نعرف متى ذهب أبو الطيب إلى بغداد على التحقيق، وقد روى مؤلف النجوم الزاهرة في حوادث سنة تسع عشرة وثلاثمائة: أن القرامطة أغاروا على الكوفة في هذه السنة ففرَّ أهلها إلى بغداد؛ فلعلّ الشاعر ذهب إلى بغداد إذ ذاك، ولعله ذهب إليها أكثر من مرة قبل ذهابه إلى الشام.

---

(١) ص ٥١ ط دمشق.

تلقى أبي الطيب اللغة والأدب:

عرفنا أن أبا الطيب تعلم في كتّاب بالكوفة ولزم الورّاقين يقرأ في كتبهم، وصحب الأعراب حينًا فسمع اللغة وأفاد ما كان يفيده علماؤها من الرحلة إلى البادية ....، وقال الخطيب في تاريخ بغداد: «وطلب الأدب وعلم العربية ونظر في أيام الناس وتعاطى قول الشعر من حداثته حتى بلغ فيه الغاية التي فاق (فيها) أهل عصره، وعلا شعراء وقته».

وقال الثعالبي في اليتيمة: «ذكرت الرواة أنه ولد بالكوفة في كندة سنة ثلاث وثلاثمائة وأن أباه سافر به إلى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حَضَرها، ومن مَدَرها إلى وَبَرها، ويُسْلمه إلى المكاتب، ويردّده في القبائل، ومخايله نواطق الحسنى عنه، وضوامن النجح فيه حتى تُوفى أبوه وقد ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع».

نأخذ من هذه الرواية أن أباه كان يسلمه إلى المكاتب ويردّده في القبائل وأما قول الثعالبي إن ذلك كان في الشام فأحسبه وهماً.

وبعد؛ فهل كان درس أبي الطيب اللغة والأدب في المكاتب، وبين أهل البادية فحسب؟ لا تدلنا الروايتان السالفتان على أكثر من هذا، ولم أجد في كتب المتقدمين غيره. ولكن وجدت في مقدمة نسخة من الديوان مكتوبة بخط مغربي وفي ورقة ملحقة بنسخة أخرى مكتوبة، وكلتاهما في دار الكتب المصرية- وجدت في هاتين النسختين رواية واحدة فيها ذكر شيوخ المتنبي الذين أخذ عنهم اللغة والأدب؛ وهي: «أجمعت الرواة على

أن المتنبي ولد بالكوفة لسنة ثلاث وثلاثمائة في كندة، وأنه من أوسطهم حسبًا، وبها نشأ وتأدّب. ولما اشتدّ ساعده هاجر إلى العلماء، ولقي أصحاب المبرد أبي العباس محمد بن يزيد فقرأ على أكابرهم منهم أبو إسحاق الزجاج وأبو بكر بن السراج وأبو الحسن الأخفش.

ولقي أصحاب أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب فقرأ على: أبي موسى (الحامض) وأبي عمر الزاهد وأبي نصير.

ولقي أصحاب أبي سعيد السكّري فقرأ على نفطويه، وابن درستويه.

ثم لقي خاتم الأدباء وبقية النجباء عالم عصره أبا بكر بن محمد بن دريد فقرأ عليه ولزمه ولقي بعده أكابر أصحابه منهم:

أبو علي الفارسي، وأبو القاسم عمر بن سيف البغدادي، وأبو عمران موسى فبرع في الأدب.

ولم يكن في وقته من الشعراء من يدانيه في علمه ولا يجاريه في أدبه».

وإذا رجعنا إلى ما نعرف من تاريخ هؤلاء الأدباء فأبو الطيب قد ولد وهم أحياء، ولكن بعضهم قد مات قبل أن يبلغ شاعرنا السن التي تمكنه من التلقي عنهم. فأصحاب المبرد الذين ذكروا في هذه الرواية ماتوا وصاحبنا صغير، مات الزجاج سنة ٣١١، والأخفش سنة ٣١٥، وابن السرّاج سنة ٣١٦.

وأبو موسى الحامض من أصحاب ثعلب مات سنة ٣٠٥. ومن عدا هؤلاء وهم بقيةُ أصحاب ثعلب وأصحاب السكرى وابنُ دريد وأصحابُه، قد عاشوا إلى الزمن الذي يستطيع فيه أبو الطيب التعمق في درس اللغة والأدب. وابن دريد أسبقهم وفاة. توفى سنة ٣٢١، وأبو الطيب إذ ذاك ابن ثماني عشرة. ثم ذِكُر نفطويه وابن درستويه في أصحاب السكّري، وذكرُ الفارسي في أصحاب ابن دريد خطأ.

فهذه الرواية عن شيوخ المتنبي تحتمل الصدق في جملتها لا في تفصيلها. وقد جعلت الرواية أخذه عن ابن دريد بعد أخذه عن أصحاب المبرد وثعلب والسكّري. فإن صحّ هذا فقد لقي شاعرنا ابن دريد في آخر حياته. وسنرى أنه رحل إلى الشام في السنة التي مات فيها ابن دريد. وأما الفارسيّ فقد لقيه في شيراز. وجائز أن يكون لقيه قبل هذا. وسنعود إلى هذا عند الكلام على معرفة أبي الطيب باللغة.

الفصل الثاني

متى رحل أبو الطيب إلى الشام؟

لابد لنا بادئ بدء أن نبين- جهد الطاقة- السنة التي رحل فيها شاعرنا إلى الشام ليتسنى لنا أن نتعرّف شعره الذي أنشأه في صباه بالعراق، وأن نتبين سيرته أول عهده بالشام، ونؤرّخ بعض حادثاتها.

يرى كاتب مقال المتنبي في دائرة المعارف الإسلامية أن أبا الطيب ذهب إلى بغداد سنة ٣١٦ ثم رحل إلى الشام. ولا يدلنا على حجته في هذا. وأحسبه استنبط هذا من أن أبا الطيب نظم قصيدة في الشام قال فيها:

لأتركنَّ وجوه الخيل ساهمة ... والحربَ أقومَ من ساق على قدَم
والطعنُ يحرقها والزجرُ يقلقها ... حتى كأنّ بها ضربًا من اللّمَم
قد كلمتها العوالي فهي كالحة ... كأنما الصابُ مذرورٌ على اللجُم
بكلّ منصلت ما زال منتظري ... حتى أدلتُ له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخَمس نافلة ... ويستحلّ دم الحجاج في الحرم

فقد ظن الكاتب أن في هذه الأبيات إشارة إلى ما فعله أبو طاهر القرمطي في مكة سنة ست عشرة أو سبع عشرة وثلاثمائة إذ قتل الحجاج في الحرم وأخذ الحجر الأسود.

ولست أجد في هذا حجة للكاتب فإن صح أن في الأبيات إشارة إلى هذه الوقعة، فقد يشير الشاعر إلى وقعة بعد سنين من وقوعها. وليس بعيداً

أن يكون أبو الطيب سمع بوقعة أبي طاهر وهو بالعراق ثم أشار إليها في أبيات نظمها في الشام.

على أن الأبيات ليس فيها إشارة واضحة إلى أبي طاهر القرمطي وأصحابه. وجائز أنه أراد وصف أنصاره بالفتك والجرأة، كما وصف فتيانه بعد خروجه من مصر في القصيدة الميمية التي رثى فيها فاتكًا:

في غلمة أخطروا أرواحهم ورضوا بما رضيتُ رضى الأيسار بالزلَم
في الجاهلية إلاّ أن أنفسهم من طيبهن به، في الأشهر الحُرُم

يريد أنهم لا يعرفون التحليل والتحريم كأنهم في عصر الجاهلية. بل روى العكبري عن ابن القطاع أن الشيخ في هذه الأبيات هو السيف، وأن الشيخ والعجوز من أسمائه. واستشهد بقول أبي المقدام البصري:

رُبّ شيخ رأيت في كفّ شيخ يضرب المُعَلمين والأبطالا

قال وسمي السيف شيخًا لقدمه لأنهم يمدحون السيوف بالقدم اهـ. وأرى أن هذا ليس بعيداً من أساليب أبي الطيب فقد وصف السيوف في القصيدة الميمية التي أولها:

«لا افتخار إلاّ لمن لا يضام» بقوله:

وعَوارٍ لوامع دينُها الحلّ ولكن زيّنها الإحرام

فقد وصف السيوف بنحو ما وصف به الشيخ في قوله:

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحلّ دم الحجّاج في الحرَم

وأنا أرجّح أن شاعرنا سافر إلى الشام سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة. وثبت هذا فيما يلي:

١- قال أبو العلاء المعري في رسالة الغفران: «والذين رووا ديوان أبي الطيب يحكون أنه ولد سنة ثلاثمائة وثلاث، وكان طلوعه إلى الشام سنة إحدى وعشرين فأقام فيه برهة ثم عاد إلى العراق، ولم تطل مدته هناك، والدليل على صحة هذا الخبر أن مدائحه في صباه إنما هي في أهل الشام إلاّ قوله:

كُفّـى أرانـي ويـك لومـك ألومـا هـمّ أقـام علـى فـؤاد أنجمـا

٢- وفي ديوان شاعرنا بين القصائد السيفية قصيدة أولها:

ذِكَـر الـصِّبَى ومراتِـع الآرام جلبـت حِمـامي قبـل يـوم حِمـامي

وفي شرح ابن جنى والمعرّي والواحدي والنسخة (٣٥٠ - أدب) في دار الكتب المصرية أن أبا الطيب اجتاز برأس عين سنة ٣٢١، وقد أوقع سيف الدولة بعمرو بن حابس من بني أسد وبني ضبة ورياح من بني تميم، ولم ينشده إياها، فلما لقيه بأنطاكية دخلت في جملة مدائحه.

ولي بحث في أن هذه القصيدة من مدائح سيف الدولة أُرجئه إلى الكلام عن المتنبي وسيف الدولة. فحسبى هنا أن أقول إن الشاعر مرّ برأس عين سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ورأس عين مدينة في الجزيرة الفراتية بين حرّان ونَصيبين، فأكبر الظن أن أبا الطيب مرّ بهذه المدينة في طريقه إلى الشام ومن أجل ذلك كانت أول البلاد الشامية التي مدح فيها

منبج وهي في شمالي الشام على مقربة من حلب. والطريق من العراق إلى الشام كانت إلى عصرنا هذا تساير الفرات إلى شمالي الشام.

الفصل الثالث

ما نظم أبو الطيب من الشعر قبل ذهابه إلى الشام

إن كان أبو الطيب برح العراق إلى الشام سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، كما بينا، فقد كانت سِنُّهُ إذ ذاك ثماني عشرة سنة فما القصائد التي نظمها منذ قرض الشعر إلى أن بلغ هذه السن؟

لما بلغ الواحدي في شرحه القصيدة التي مطلعها:

أحيا وأيسرُ ما قاسيتُ ما قتلا والبينُ جارَ على ضعفي وما عدلا

كتب هذا العنوان: «في الشامية» يعني القصائد الشامية، ومعنى هذا أن هذه القصيدة وما يليها إلى الكافوريات نظمت في الشام، وأن القصائد والقطع التي قبل هذه القصيدة نظمت في العراق. وهي:

قصيدتان يمدح بإحداهما محمد بن عبيد الله العلوي المشطّب، وبالأخرى رجلاً اسمه أبو الفضل أراد أن يستكشفه عن مذهبه وفيها غلوّ في المدح وشيء من عقيدة الحلول. ومطلعها:

كفَى أراني، ويك، لومك ألوما همٌّ أقام على فؤاد أنجمَا

وقطعتان فيهما خمسة أبيات في الغزل.

وثلاثة أبيات في هجاء رجل اسمها القاضي الذهبي.

وقطعة في رجلين قتلا جرذاً، وأبرزاه للناس يعجبان من كبره. يقول فيها:

لقد أصبح الجُرذ المستغير ... أسيرَ المنايا صريع العطب
رماه الكناني والعامريّ ... وتلاّه للوجه فعلَ العرب
كلا الرجلين اتّلى قتلَه ... فأيهما غلّ حُرّ السَلب ؟
وأيهما كان من خلفه ... فإنَّ به عَضة في الذنَب

وهي قطعة تدل على سخرية هذا الغلام الثائر من همة رجلين قتلا جرذاً!

ثم ثلاث قطع هي فاتحة شعره الثائر الذي سنرى كثيراً منه بعد:

قيل له وهو في المكتب ما أحسن هذه الوفرة فقال:

لا تُحسن الوفرة حتى تُرَى ... منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقِل صَعدةً ... يَعُلّها من كلّ وافي السبال

والقطعة الثانية أولها:

محبّي قيامي ما لذلكم النصلِ ... بريئًا من الجرحى سليمًا من القتل ؟

والثالثة يقول فيها:

إلى أي حين أنت في زيّ مُحرِم ... وحتى متى في شِقْوة وإلى كم ؟
وإلا تمتْ تحت السيوف مكرّما ... تَمت وتلاق الذل غيرَ مكرَّم
فَثِبْ واثقًا بالله وثبة ماجد ... يرى القتل في الهيجا جنى النحل في

وقد تقدم قول المعري أن مدائح أبي الطيب في صباه كلها في أهل الشام إلا القصيدة «كفى أراني، ويك، لومك ألوما» وينبغي أن يضاف إليها القصيدة الأخرى التي مدح بها العلوي المشطّب. فهي أيضاً مما نظمه قبل سفره إلى الشام، كما يؤخذ من ترتيب شرح الواحدي. ودليل آخر أن أبا الطيب قال في هذه القصيدة:

يا ليت لي ضربة أتيح لها ... كما أتيحت له محمَّدُها
أثّر فيها وفي الحديد وما ... أثّر في وجهه مُهنَّدُها

قال العكبري: «كان محمد بن عبيد الله هذا الممدوح قد واقع قومًا من العرب بظاهر الكوفة، وهو شاب دون العشرين سنة، فقتل منهم جماعة وجُرح في وجهه فكسته الضربة حسنًا. فتمنى أبو الطيب مثل ضربته. فهذا سمعته من جماعة من مشيخة بلدنا». وبينٌ من هذا أن الممدوح عراقي جرح في وقعة بظاهر الكوفة ومدحه الشاعر بهذه القصيدة ذاكراً هذه الواقعة فقد كان مدحه في العراق.

وفي دائرة المعارف الإسلامية أن أبا الطيب مدح هذا العلوي في بغداد ولست أدري بِمَ استدل الكاتب على هذا.

عاش أبو الطيب في العراق ثمانية عشر عامًا أمضى شطراً منها في البادية. وقد حنَّ إلى موطن صباه قليلا في شعره، وذكر أنه لم يوافقه. يقول في إحدى قصائد سيف الدولة:

تذكرتُ ما بين العُذَيب وبارقٍ ... مَجرَّ عوالينا ومَجرَى السوابق
وصُحبة قوم يذبحون قنيصهم ... بفضلة ما قد كسّروا في المفارق

ولـــيلاً توسّـــدنا الثويَّـــة تحتـــه كـــأنَّ ثراهـــا عنبـــر فـــي المرافـــق

ثم يقول:

ومـــا بلـــد الإنـــسان غيـــر الموافـــق ولا أهلـــه الأدنـــون غيـــر الأصـــادق

ويقول في قصيدة مدح بها سعيد بن عبيد الله الأنطاكي:

أبـدو فيـسجد مـن بالـسوء يـذكرني ولا أعاتبـــه صـــفحًا وإهوانـــا
وهكـذا كنـت فـي أهلـي وفـي وطني إنّ النفـــيس غريـــب حيثمـــا كانـــا
مُحسَّد الفـضل مكـذوبٌ علـى أثَـرى ألقـــى الكمـــي ويلقـــاني إذا حانـــا

فهذا كلام يشف عن أن بلده قد نبا به.

ويقول الثعالبي إن والد المتنبي سافر به إلى الشام، فإن صحّ هذا فلا ندري لماذا سافر أبوه؟ وإن كان الشاب سافر وحده فقد نبا به العراق ورأى همته أكبر من جاهه، وآماله أعظم من ثروته. فرأى أن بلادًا لا يعرف بها أوسع مضطربا وأفسح مُرتَزقًا، وأسمع لشعره، وأقرب إلى ما يطمح إليه من سؤدد. وهو يقول في رثاء جدَّته، وقد رجع إلى العراق:

طلبـــت لهـــا حظًّـــا ففاتـــت وفـــاتني وقد رضيتْ بي لو رضيت بها قسما
فأصـــبحت أستـــسقى الغمـــامَ لقبرهـــا وقد كنت أستسقى الوغى والقنا الصُّمّا

ومعنى هذا أنه ترك جدّته في طلب حظها. وإنما تركها إلى الشام. وسنبين هذا من بعد.

الفصل الرابع

الشام في عهد أبي الطيب

١

وليّ الخليفة العباسي المقتدر بالله محمد بن طُغجّ على الرملة سنة ست عشرة وثلاثمائة، ثم أضاف إليه دمشق بعد سنتين.

وكانت حلب إذ ذاك يتداولها ولاة يُرسَلون من بغداد.

ثم وليّ محمد بن طغج مصر إلى ما في ولايته الشام سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ثم عُزل عنها.

وفي عهد الخليفة الراضي بالله (٣٢٢ - ٣٢٩) عظم أمر ابن طغج فأعيدت ولايته على مصر سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وامتدَّ سلطانه على الشام كلها ولُقّبَ الإخشيد.

٢

وخلع ابن طغج طاعة الخليفة الراضي فأرسل إليه محمد بن رائق فاستولى على الشام سنة ٣٢٨ ووليّ محمد بن يزداذ الشهرزوري حلب ثم دمشق.

وانتهى تنازع ابن رائق وابن طُغُجّ على الشام باستقرار ابن رائق في حلب ودمشق، واستقرار الإخشيد في الرملة وما يليها إلى مصر على أن يؤدي عن الرملة في كل سنة مائة وأربعين ألف دينار.

ثم سيَّر الإخشيد جيشًا يقوده كافور وفيه مُساوِر بن محمد الرومي فهزم ابن يزداذ نائب ابن رائق بالموصل بأيدي بنى حمدان سنة ثلاثين وثلاثمائة فاستقر سلطان الإخشيد على الشام كلها.

وبقيت الشام للإخشيد إلى أن جاء سيف الدولة فاستولى على حلب سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة. وأخرج منها والي الإخشيد أحمد بن سعيد الكلابي؛ أحد ممدوحي أبي الطيب. وكانت وقائع انتهت باستقرار سيف الدولة في حلب والإخشيديين في دمشق.

فالشام كانت في عهد أبي الطيب مقسمة بين الإخشيد وابن رائق، ثم بين الإخشيد وسيف الدولة. كانت دمشق وما يليها إلى الجنوب في يد الإخشيديين إلا سنتين خرجت فيهما دمشق من سلطانهم إلى سلطان ابن رائق، وإلاّ فترة قصيرة استولى سيف الدولة عليها بعد موت الإخشيد.

وكانت حلب وما يليها في أيدي ولاة الخلفاء ثم الإخشيد ثم ابن رائق فالإخشيد فسيف الدولة.

٤

وقد مدح أبو الطيب من رجال هذه الوقائع مساور بن محمد الرومي، والحسين بن عبيد الله بن طغج وهو ابن أخي الإخشيد، وطاهراً العلوي، فأما مساور فقد مدحه بقصيدتين الأولى مطلعها:

جللا كما بي فليك التبريح أغذاء ذا الرشأ الأغنّ الشيح

والثانية:

أمساور أم قرن شمس هذا أم ليث غاب يقدم الأستاذا

وذكر في هذه القصيدة ما فعل الممدوح بابن يزداذ نائب ابن رائق.

وسيأتي الكلام في مدح الحسن بن طغج وطاهر العلوي.

فقد ذكر أبو الطيب من رجال هذه الحادثات ابن يزداذ إذ قال في مدح مساور:

هبك ابن يزداذ حطمت وصحبه أترى الورى أضحوا بنى يزداذا

***

سدّت عليه المشرفية طُرقه فانصاع لا حلبًا ولا بغداذا

طلب الإمارة في الثغور ونَشْؤه ما بين كَرْخايا إلى كَلْواذا

ومدح بدر بن عمّار بقصائد كثيرة. وكان من رجال ابن رائق كما يأتي: وكذلك ذكر الأستاذ كافوراً الإخشيدي في هذه القصيدة.

أمساور أم قرن شمس هذا أم ليث غاب يقدم الأستاذا

فالأستاذ هو كافور.

وسيأتي الكلام في صحبة الشاعر بني حمدان ثم كافوراً.

الفصل الخامس

أبو الطيب في الشام

٣٢١ - ٣٣٦

دعوى النبوة - إجمال سيرته في هذه المدة

سار أبو الطيب إلى الشام من طريق الجزيرة فمرّ برأس عين وانتهى إلى منبج. وهنالك أقام يمدح جماعة من رؤساء العرب. وأول قصائده الشامية في الديوان يمدح بها سعيد بن عبد الله الكلابي المنبجي. وكان لبنى كلاب جاه في نواحي حلب. وقد تولاها أحمد بن سعيد الكلابي نيابة عن الإخشيد سنة ٣٢٤. وفي ولايته قدم بنو كلاب من نجد فأغاروا على بعض البلاد الشامية. وفي هذه القصيدة يقول:

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والبين جار على ضعفي وما عدلا

***

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سُبُلا

***

يجنّ شوقًا فلولا أن رائحة تزوره من رياح الشرق ما عقلا

ويقول في السفر:

كم مهمه قَذف قلبُ الدليل به قلبُ المحب قضائي بعدما مَطلا
عقدت بالنجم طرف في مفاوزه وحُرّ وجهي بحرّ الشمس إذ أفلا
أوطأت صُمّ حصاها خُفّ يعمَلة تَغشْمرت بي إليك السهل والجبلا
لو كنتَ حشو قميصي فوق نُمرُقها سمعت للجن في غيطانها زجَلا

حتى وصلت بنفس مات أكثرها وليتني عشت منها بالذي فَضَلا

والظاهر أن هذا السفر الذي وصفه، سفرُه من العراق إلى الشام.

ثم مدح جماعة في منبج وطرابلس وغيرهما من الشام الشمالية.

تنبؤ أبي الطيب

قبل أن نُجمل الكلام عن سيرته في الشام إلى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، ينبغي أن نمحص وقعة كان لها أثر بليغ في حياة أبي الطيب، وفي صوغ سيرته في كتب الأدب؛ أعني ادعاء أبي الطيب النبوَّة وهو أمر اختلفت فيه الآراء، وخبط فيه بعض الرواة والباحثين خبط عشواء. ولعل في هذا البحث إبانة الصواب وفصل الخطاب.

نبدأ البحث بهذين السؤالين: هل ادّعى أبو الطيب النبوة؟ وإن لم يكن ادعاها فلماذا لُقِّب بالمتنبي؟

وإجمال الإجابة عن هذين السؤالين فيما يلي:

(أ) لا مرية أن أبا الطيب سُجن بالشام في شبابه. يتفق على هذا شعر أبي الطيب ورواة سيرته كلهم.

يقول شاعرنا في هذا مخاطبًا والي حلب:

أمالك رِقّي ومَن شأنُه هباتُ اللُّجَين وعِتقُ العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموتُ مني كحبل الوريد
دعوتك لمّا براني البِلَى وأوهنَ رجلَيَّ ثقلُ الحديد

وقد كان مشيُهما في النعال فقد صار مشيهما في القيود
وكنتُ من الناس في محفِل فها أنا في محفل من قرودِ

(ب) وأما الجناية التي سجن من أجلها فيخالف فيها شاعرُنا رواةَ سيرته، ويختلف فيها الرواة فيما بينهم.

في تاريخ الخطيب البغدادي روايتان هما أصلٌ لمعظم الروايات التي رويت في هذه القصة:

الأولى: أن ابا الطيب «لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوي حسني ثم ادعى بعد ذلك النبوة. ثم عاد يدعي أنه علوي إلى أن أُشْهد عليه بالشام بالكذب في الدعويين، وحُبس دهراً طويلاً وأشرف على القتل. ثم استُتيب وأشهد عليه بالتوبة وأطلِق».

والثانية: «أخبرنا التنوخي حدثني أبي قال حدثني أبو علي بن أبي حامد قال سمعت خلقًا بحلب يحكون- وأبو الطيب المتنبي بها إذ ذاك- أنه تنبأ في بادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قِبل الإخشيدية فقاتله وأسره، وشرد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من القبائل. وحبسه في السجن حبسًا طويلاً. فاعتل وكاد أن يتلف حتى سُئل في أمره فاستتابه وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه، ورجوعه إلى الإسلام، وأنه تائب منه ولا يعاود مثله، وأطلقه».

ويقول المعرى في رسالة الغفران: وحدَّثني الثقة عنه حديثًا معناه أنه لما حصل في بني عديّ وحاول أن يخرج فيهم قالوا له وقد تبينوا دعواه:

«هاهنا ناقة صعبة؛ فإن قدرتَ على ركوبها أقررنا أنك مرسل». وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل فتحيّل حتى وثب على ظهرها. فنفرت ساعة وتنكرت برهة. ثم سكن نِفارها ومشت مَشي المُسْمِحة، وأنه ورد الحِلّة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم.

وحُدّثت أيضًا أنه كان في ديوان اللاذقية وأن بعض الكتّاب انقلبت على يده سكّين الأقلام فجرحته جرحًا مُفرطًا، وأن ابا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته وقال للمجروح لا تحلها في يومك. وعدّ له أيامًا وليالي، وأن ذلك الكاتب قَبِل منه فبرئ الجرح. فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم الاعتقادات ويقولون هو كمحيي الأموات.

وحدّث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ولقيهما كلب ألح عليهما في النُّباح ثم انصرف. فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد إنك ستجد ذلك الكلب قد مات. فلما عاد الرجل ألفي الأمر على ما ذكر.

ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئًا من الطعام مسمومًا وألقاه له وهو يخفى عن صاحبه ما فعل. انتهت رواية المعري.

وفي الصباح المتنبي للشيخ يوسف البديعي المتوفى سنة ١٠٧٣- وهو أجمعُ الكتب لأخبار المتنبي- روايةٌ طويلة عن رجل اسمه أبو عبد الله مُعاذ بن إسماعيل خلاصتها:

أن أبا الطيب قدم اللاذقية سنة نيف وعشرين وثلاثمائة وهو لا عذار له، وله وفرة إلى شَحمتي أذنيه. فأكرمه معاذ ثم قال له: والله إنك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير. فقال: ويحك! أتدري ما تقول؟! أنا نبي مرسل. ثم تلا عليه جملة من قرآنه وهو مائة وأربع عشرة عبرة. ثم أراه معجزة فمنع المطر عن بقعة وقف فيها فأصاب المطر ما حولها ولم تصبها قطرة، فبايعه معاذ وعمت بيعته كلّ مدينة في الشام. ثم عرف معاذ من بعد أن هذه حيلة صغيرة تسمى صدحة المطر تعلمها أبو الطيب من عرب اليمن.

ثم قال البديعي بعد هذا: إنه لما شاع ذكر أبي الطيب وخرج بأرض سلمية من عمل حمص في بني عدي، قبض عليه ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها كوتكين، وأمر النجار أن يجعل في رجليه وعنقه قُرمتين من خشب الصفصاف فقال:

زعم المقيم بكوتكين بأنه ... من آل هاشمٍ بن عبد مناف
فأجبته مذ صرتَ من أبنائهم ... صارت قيودهم من الصفصاف

وكتب إلى الوالي من الحبس:

بيدي أيها الأمير الأريب ... لا لشيء إلا لأني غريب
أو لأم لها إذا ذكرتني ... دم قلب بدمع عين يذوب

إن أكــن قبــل أن رأيتــك أخطــأ ت فــإني علــى يــديك أتــوب
عائــب عــابني لــديك ومنــه خلقــت فــي ذوي العيــوب العيــوب

***

تلكم هي الروايات التي تنسب إلى أبي الطيب ادعاء النبوة. وينبغي أن نبدأ برواية الصبح المنبي فهي واهية لا تحتمل شدة النقد. وهي متضمنة أمورًا غير معقولة يدعى معاذ أنه رآها وذلك كاف في توهين روايته، ثم الرواية متناقضة. فقد آمن بمعجزة المتنبي وبايعه ثم وصفها بأنها «أصغر حيلة تعلمها من بعض العرب» ثم ادّعى أن «بيعته عمت كل مدينة في الشام» ولم يروِ هذا أحد من الثقات.

ثم في ديوان أبي الطيب ما يكذب هذا. فيه قطعة عنوانها: وعذله أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقي على ما كان قد شاهده من تهوّره فقال:

أبــا عبــد الإلــه معــاذُ إنــي خفــي عنــك فــي الهيجــا مقــامي
ذكــرتَ جــسيمَ مــا طلبــي وأنّــا نخــاطر فيــه بــالمُهَج الجِــسام
أمثلــي تأخــذ النكبــاتُ منــه ويجــزع مــن ملاقــاة الحِمــام
ولــو بــرز الزمــان إلــيّ شخــصًا لخــضّب شــعر مفرقــه حُــسامي
ومــا بلغــت مــشيتها الليــالي ولا ســارت وفــي يــدها زمــامي
إذا امــتلأت عيــونُ الخيــل منّــي فويــل فــي التــيقظ والمنــام

فترى أنه ليس في هذه القطعة إلا المخاطرة ومصاولة الأحداث فيما يطمح إليه من السؤدد. وليس فيها ذكر النبوة والمعجزة ولا ما يقرب منهما. وفي عنوان القصيدة أن معاذاً عذله على تهورّه فقد رأى منه معاذ تهوراً لا معجزات.

وأما روايتا الخطيب؛ ففي الرواية الأولى دعوى النبوة مسبوقة وملحوقة بدعوى العلوية وفي هذا دليل على التباس الأمر على الناس في هذه القصة. والرواية الثانية التي رواها التنوخي عن أبي علي بن أبي حامد عن «خلق» بحلب، وفيها أن أبا الطيب ادعى النبوّة، هي كغيرها من الروايات التي فسّرت الدعوى التي سجن فيها أبو الطيب بأنها دعوى النبوة بعد أن لُقب الرجل بالمتنبي فالتمس الناس تأويلاً لهذا اللقب، وسيأتي تأويله.

وأما رواية المعري فليس فيها دعوى النبوة صراحة ولا يبعد أن أبا الطيب في عنفوان شبابه وفي ذكائه وطموحه ادّعى دعوات وموّه على الناس تمويهات كالتي رواها المعري.

ولو لم تعارض هذه الروايات روايات أخرى هي أجدر بالثقة لكان فيها مظنة للباحث ولكن عندنا روايتين لرجلين من الثقات هما أبو منصور الثعالبي وأبو الفتح بن جنى.

فأما الثعالبي ويكاد يكون معاصراً أبا الطيب فيقول:

«وبلغ من كبر نفسه وبعد همته أنه دعا قومًا من رائشي نبله على الحداثة من سنّه، والغضاضة من عوده. وحين كاد يتم أمر دعوته تأدى خبره إلى والي البلدة، ورفع إليه ما همّ به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده». ثم قال الثعالبي بعد أن روى أبياتًا من القصيدة التي نظمها في السجن: ويحكى أنه تنبأ في صباه وفتن شرذمة لقوة أدبه وحسن كلامه».

فالرواية التي ارتضاها الثعالبي أنه أراد أن يخرج على السلطان. وأما رواية التنبؤ فذيّل بها الكلام قائلاً ويحكى. ففي عهد الثعالبي، وقد ولد قبل وفاة أبي الطيب بثلاث سنين، كانت رواية التنبؤ فرية تُحكى في الجملة. ولم يكن الرواة أيّدوها بالمعجزات والقرآن.

وقال صاحب الإيضاح:

ثم وقع إلى خير بادية ... فادعى الفضول الذي نبز به (لم يصرح المؤلف بدعوى النبوة) فنمى الخبر إلى أمير بعض أطرافها فأشخص إليه من قيده وسار به إلى محبسه. فبقي يعتذر إليه ويتبرأ مما وسم به في قصيدته التي يقول فيها:

فما لك تقبل زور الكلام ... وقدر الشهادة قدر الشهود

وقد هجاه شعراء وقته فقال الضبي:

الزم مقال الشعر تحظ بقربة ... وعن النبوة لا أبا لك فانتزح
تربح دماً قد كنت توجب سفكه ... إن الممتّع بالحياة لَمَن ربح

فأجابه المتنبي:

أمري إليّ فإن سمحت بمهجة ... كرمت على فإن مثلي من سمح

وهجاه غيره فقال:

أطللت يأيها الشقي دمك ... بالهذيان الذي ملأت فمك
أقسمت لو أقسم الأمير على ... قتلك قبل العشاء ما ظلمك

فأجابه المتنبي [١]:

وترى في هذه الرواية أن صاحب الإيضاح، وهو معاصر، قال «الهذيان الذي نبز به» ولم يذكر دعوى النبوة.

كما يرى أن الذي هجاه بالبيتين الأخيرين لم يهجه بادعاء النبوة وهي أشنع تهمة ما كان ليتركها شاعر يهجو من ادعاها.

ويدل على أن المعاصرين لم يكونوا على بينة من ذلك ما رواه الخطيب عن التنوخي: فأما أنا فسألته بالأهواز سنة ٣٥٤ - عند اجتيازه بها إلى فارس في حديث طويل جرى بيننا- عن معنى المتنبي لأني أردت أن أسمع منه هل تنبأ أم لا؟! فأجابني بجواب مغالط لي وهو أن قال: هذا شيء كان في الحداثة! ... فهذا التنبؤ الذي صدقه المتأخرون لم يتبينه المعاصرون.

وإن كان أبو الطيب حين سئل عن معنى المتنبي أجاب بأن هذا شيء كان في الحداثة؛ فما هو هذا الشيء؟! إن كان ادعاء النبوة، لم يكن في جواب الرجل مغالطة. وأية مغالطة بعد الاعتراف بأنه تنبأ في حداثته؟! لم يسمّ الراوي كلام أبي الطيب مغالطة إلا لأنه لم يعترف بدعوى النبوة، وذكر شيئًا كان في الحداثة وهو ثورته أو تشبيه نفسه بالأنبياء أو نحو هذين. ولم يصرّح به.

---

(١) تنظر الأبيات في زيادات نسختي من الديوان ص ٥٣١، ٥٣٤ والأبيات كلها منسوبة إلى الضرير الضبي أو الضب الضرير، وهما واحد فيما يظهر.

ثم ابن الأثير وغيره رووا أخبار المتنبئين ولم يذكر أحدهم دعوى أبي الطيب. وفي شرح ابن جنى في عنوان قصيدة الحبس:

«وكان قوم قد وشوا به إلى السلطان في صباه وتكذبوا عليه وقالوا له: قد انقاد له خلق كثير من العرب، وقد عزم على أخذ بلدك. حتى أوحشوه منه فاعتقله وضيّق عليه فكتب إليه يمدحه».

وقريب من هذا في شرح الواحدي والعكبري وفي كل نسخ الديوان التي اطلعت عليها.

وإجماع هذه الروايات على أن الرجل دعا الناس إلى أمر وسجن فيه. ثم تختلف الروايات في أنها دعوة نبوة أو غيرها، وفي أنها كانت في السماوة أو في أرض سلميّة من أعمال حمص.

ولا بد أن نرجع إلى ديوان الشاعر نفسه لنرى ماذا قال في القصيدة التي كتبها في السجن يستعطف الوالي لنتبين كنه هذه التهمة. قال:

تَعجّل فيّ وجوب الحدود ... وحدّي قبل وجوب السجود
وقيل عدوتَ على العالمين ... بين ولادي وبين القعود
فلا تسمعن من الكاشحين ... ولا تعبأنَّ بمحك اليهود
وكن فارقًا بين دعوى أردتُ ... ودعوى فعلتُ بشأوٍ بعيد

فأبو الطيب يقول- وهو في مقام الاستعطاف والاستغفار، لا الإنكار والعناد: إني اتهمت بالعدوان على العالمين، بل اتهمت بأني أردت ذلك

ولم أتهم بأني فعلت. وما عرض للتنبؤ ينكره أو يستغفر منه. ولو أنه اتهم به لما أغفله في قصيدته.

هذا «العدوان على العالمين» الذي سجن وهو يتهيأ له. يغلب أن يكون خروجًا على السلطان ويغلب أن يكون مقرونًا بدعوى من الدعاوى الشائعة في ذلكم العصر، وتفسيرها رواية الخطيب أنه ادعى أنه علوي. وليس بعيدا أن يكون أبو الطيب كتم نسبه لتتسنى له هذه الدعوى.

ولم يكن تحدث الرجل بالثورة وقتل الأمراء واغتصاب الملك أمراً خفيا؛ فقد ملأ به شعره وجعله كالنسيب في قصائد المدح.

وبعد؛ فلماذا سمي المتنبي إن كان لم يتنبأ؟!

هذا السؤال في رأيي هو الذي أوحى إلى كثير من الناس قصة التنبؤ. أرادوا أن يفسروا هذا اللقب وتفسيره يسير. فالمتنبي في اللغة من يدّعي أنه نبي. وكثيراً ما نرى الناس يخلقون قصة لتفسير اسم مدينة أو قبيلة. فلم تكن قصة المتنبى إلا من هذا القبيل والرجل كثير الأعداء والحساد كما قال. ويسرّ لهم هذا الافتراء أن الرجل دعا الناس دعوة، وقال كلامًا فسُجن وشاع أمره. فلما لقب المتنبى جعلوا هذا السجن من أجل التنبؤ وذاعت الرواية على مرّ الزمان.

وجواب السؤال في قول ابن جني في شرح الديوان، وفيما رواه عنه الثعالبي في اليتيمة. يقول ابن جنى في شرح البيت:

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

«بهذا البيت سمي المتنبي». وقال الثعالبي: «وحكى أبو الفتح عثمان بن جنى قال: سمعت أبا الطيب يقول إنما لقبت بالمتنبي لقولي: أنا في أمة تداركها الله ... الخ.

وفي القصيدة نفسها بيت آخر:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

فقد شبه نفسه بالأنبياء مرتين في قصيدة واحدة فلقّبه بعض حساد «المتنبي» فذاعت، ثم وضعت القصة، واحتاجت النبوة إلى القرآن فرووا له قرآناً.

ورواية أخرى رواها ياقوت مؤلف معجم الأدباء عن الناشئ الشاعر تدل على أنه لم يلقب بالمتنبي وقت سجنه ولا في السنة التي سجن فيها. قال:

وحدَّث الخالع قال حدّثني أبو الحسين الناشئ قال: كنت بالكوفة في سنة ٣٢٥ وأنا أملي شعري في المسجد الجامع بها، الناس يكتبونه عني. وكان المتنبي إذ ذاك يحضر معهم. وهو بعد لم يُعرف ولم يُلقّب بالمتنبي».

وكان أبو الطيب ينكر التنبؤ حين يفتريه عليه أعداؤه.

روى الخطيب عن أبي علي بن حامد:

«وكان المتنبي إذا شوغب في مجلس سيف الدولة، ونحن إذ ذاك بحلب، نذكر له هذا القرن وأمثاله مما كان يحكى عنه فينكره ويجحده».

وقال له ابن خالويه النحوي يومًا في مجلس سيف الدولة: «لولا أن الآخر [١] جاهل لما رضي أن يدعي المتنبي لأن متنبي معناه كاذب. ومن رضي أن يدعي بالكذب فهو جاهل» فقال له: «أنا لست أرضى أن أدعي بهذا، وإنما يدعوني به من يريد الغض مني ولست أقدر على الامتناع».

فلو أن الأمر كان معروفًا ما استطاع أبو الطيب المكابرة فيه.

متى سجن أبو الطيب؟

ليس في نسخ الديوان وشروحه ولا في كتب الأدب والتاريخ ما يبين السنة التي سجن فيها الشاعر. وسجن أبي الطيب في أمر اتهم به كما ذكرنا آنفًا قد أثر في نفسه وفي كلام الناس فيه فهو جدير بالعناية. وقد جهدت في أن أؤرخ هذا الحدث وهذا السجن فانتهيت إلى نتيجة أراها جديرة بقبول الباحثين في هذا الحدث المبهم الذي لم يؤرخه أحد من قبل. وإليك البيان:

في زيادة شعر أبي الطيب من نسخة الديوان التي نشرتها [٢] قصيدة عنوانها: وقال يمدح ابن كيغلَغ وهو في حبسه وأولها:

---

(١) الآخر كلمة تقال عند الخطاب بكلام مكروه كما نقول البعيد أو الأبعد أحمق وكذلك ألفيتها في كلام المتقدمين.

(٢) ص ٥٢٧.

شغلي عن الربع أن أسائله ... وأن أطيل البكاء في خَلقه
بالسجن والقيد والحديد وما ... ينقض عند القيام من حلقه
في كل لص إذ خلوت به ... حدّث عن جحده وعن سرقه

ويقول فيها:

يأيها السيد الهمام أبا العباس ... والمستعاذ من حنَقه
يا من إذا استنكر الأنامُ به ... مات جميع الأنام من فرَقه
في كل يوم يسري إلى عمل ... في عسكر لا يُرى سوى حَدَقه
الله ياذا الأمير في رجل ... لم تُبق من جسمه سوى رمقه
كم ضوء صبح رجاك في غده ... وجنح ليل دعاك في غسقه
ناداك من لجة لتنقذه ... من بعد ما لا يشك في غرقه

فمن أبو العباس بن كيغلغ الذي استغاث به الشاعر ؟

هو أحد قواد الدولة العباسية كان له شأن في حوادث القرن الرابع الهجري. وقد ولي مصر مرات منها ولايته سنة ٣٢١هـ. تولّى في رمضان من هذه السنة. وبقي حتى أخرجه منها محمد بن طغج في شعبان سنة ٣٢٣. والشام كانت إذ ذاك في سلطان والي مصر.

فأكبر الظن أن أبا الطيب كان في الحبس وابن كيغلغ وال على مصر أي بين رمضان سنة ٣٢١ وشعبان سنة ٣٢٣هـ. ويبعد أن يكون حبس قبل ولاية ابن طغج فقد قدم الشام سنة ٣٢١هـ، ويؤخذ من ديوانه أنه لبث زمنًا في الشام قبل السجن.

ويمكن الاستدلال على هذا بالقصيدة التي أولها:

حاشى الرقيب فخانته ضمائره وغيض الدمعَ فانهلّت بوادره

ففي بعض نسخ الديوان أنها أنشئت في مدح جعفر بن كيغلغ، وفي بعضها أنها في مدح أحد أمراء حمص وأنه لم ينشدها أحداً. فإن قدرنا أن جعفر بن كيغلغ تولى حمص أيام ولاية قريبة أبي العباس على مصر والشام؛ فالشاعر لم يذكر السجن فيها ولم يستنجد الأمير ليطلقه كما قال في القصيدة التي مدح بها أبا العباس والقصيدة الدالية التي يأتي ذكرها. وفي هذا دليل على أن ولاية بن كيغلغ عادت إلى مصر والشام سنة ٣٢١هـ، والشاعر طليق لم يحبس. فإن قلنا إن الشاعر حبس بعد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وقبل نهاية سنة ثلاث وعشرين فإلى متى لبث في السجن؟ إليك هذا الجواب:

يقول في مدح الوالي الذي أرسل إليه القصيدة وهو في سجنه:

رَمى حلبًا بنواصي الخيول وسُمْر يُرِقن دمًا في الصعيد
وبيض مسافرة ما يُقِمن لا في الرقاب ولا في الغمود
يَقُدن الفناء غداة اللقاء إلى كل جيش كثير العديد
فولّى بأشياعه الخرشنيُّ كشاءٍ أحسّ زئير الأسود
يَرون من الذعر صوت الرياح صهيلَ الجياد وخفقَ البنود

قال الواحدي والعكبري: الخرشني نسبه إلى خرشنة وهي من بلاد الروم. وتبعها الشرّاح الآخرون حتى المتأخرون كاليازجي والبرقوقي. وليس في هذا جدوى. فالخرشني منسوب إلى خرشنة. لا يحتاج هذا إلى بيان؛ ولكن من هذا الخرشني؟ الذي يبحث في تاريخ الدولة العباسية في

تلك السنين يرى اسم بدر الخرشني مذكوراً في وقائعها مكرراً. كان من قوّاد الدولة واستعمله الراضي على الشرطة سنة ٣٢٢، وجعله حاجب الحجاب سنة ٣٢٩، وقلده طريق الفرات سنة ٣٣٠، فسار إلى الإخشيد مستأمناً فولاه دمشق فلبث بها قليلاً ومات.

فهل الخرشني الذي ذكره أبو الطيب هو بدر الخرشني؟

في كتاب تاريخ حلب لمحمد راغب الطباخ عن زُبدة الحلَب «أن الراضي بالله خاف على بدر الخرشني من الغلمان الحجَرية أن يفتكوا به فقلّده حلب وأعمالها سنة أربع وعشرين وثلاثمائة فسار إليه وأخرَج عنها واليَها طريف بن عبد الله السبكري. وأقام بها مدة يسيرة ثم رجع إلى بغداد وتولى طريف حلب مرّة أخرى».

فالظاهر أن الخرشني الذي ذكره أبو الطيب هو بدر الخرشني. وأن الوقعة التي ذكرها الشاعر، الوقعة التي هَزَم فيها الخرشنيَّ هذا الوالي الذي حبَس أبا الطيب، كانت حينما استولى الإخشيد على حلب سنة ٣٢٤هـ.

وقد ذكرنا آنفًا أن الخرشني ذهب إلى الإخشيد من بعد مستأمناً سنة ٣٣٠ فهذا الاستئمان يدل على عداوة كانت بينهما. والظاهر أنه حارب الإخشيد في الحادثات التي وقعت بين الإخشيد وولاة الخلافة في الشام.

ويؤيد ما ذهبت إليه في هذه المسألة قول أبي العلاء المعري في شرح ديوان أبي الطيب: «الخرشني والي حلب» ويؤيده أيضًا رواية ذكرها

الخطيب البغدادي وغيره أن الذي سجن الشاعر لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية.

يؤخذ مما تقدم أن سجن أبي الطيب كان بعد استيلاء الإخشيديين على الشام سنة ٣٢١هـ، واستمر إلى أن أخرج بدر الخرشني من حلب.

فأكبر الظن أن أبا الطيب سجن سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة. ولبث في السجن إلى سنة أربع وعشرين. ويؤيد قولُ بعض الرواة إنه حبس سنتين ما ذهبتُ إليه في هذه المسألة.

إجمال سيرته في الشام

لبث أبو الطيب بالشام خمس عشرة سنة لا يستقر في بلد. يقصد الممدوحين فيخيبون رجاءه أو يعطونه نزراً، فيثور ثم اضطره الحاجة إلى المدح. مدح اثنين وثلاثين رجلاً بأربع وأربعين قصيدة. وأنّبه ممدوحيه في ذلك العهد التنوخيون باللاذقية، وبدر بن عمار الأسدي نائب ابن رائق في طبرية وله فيه خمس قصائد وقطع كثيرة. وفي هذا دليل على أنه نال منه ما أرضاه، وأطال صحبته إياه، ومساور بن محمد الرومي والي حلب. وقد صحب التنوخيين وابن عمار زمنًا كما يتبين من شعره.

وأكثر البلاد نصيبًا من مدائحه: منبج، وأنطاكية، واللاذقية، وطبرية. وقد مدح أيضًا في طرابلس، وطرسوس، وجبل جَرَش، ودمشق، والرملة. ورثى محمد بن إسحاق التنوخي بأربع قصائد قصيرة. ونظم في الهجاء قصيدة وقطعتين.

ونظم خمس قصائد لنفسه يعرب عن مطامعه ويفخر ويُهدد. وتلكم أحسن القصائد إبانة عن آماله وآلامه.

وكان في أكثر قصائد المدح يفخر بنفسه ويشكو زمانه ويذم أهل الزمان ويتوعدهم.

فأما المدح فلم يُجز عليه إلا بالعطاء النزر، على كثرة ما بالغ واحتفل. يقول في مدح علي بن إبراهيم التنوخي:

أشرْتُ أبا الحسين بمدح قوم نزلتُ بهم فسرت بغير زاد

وروى ياقوت في معجم الأدباء عن على بن حمزة راوية المتنبي أنه لما مدح محمد بن زريق الطرسوسي بقصيدته:

هذي برزتِ لنا فهجتِ رسيسا ثم انثنيتِ وما شفيت نسيسا

وصله عليها بعشرة دراهم. فقيل له إن شعره حسن. فقال ما أدري أحسن هو أم قبيح؛ ولكن أزيده لقولك عشرة دراهم. فكانت صلته عليها عشرين درهمًا [1].

وروى الثعالبي أن علي بن منصور الحاجب الذي مدحه بقصيدته:

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غواربا اللابساتُ من الحرير جلابيا

أعطاه ديناراً فسميت القصيدة الدينارية.

وأبو الطيب يشكو الزمان في هذه القصيدة ثم يقول:

---

(١) ياقوت جزء ٥ ص ٢٠٤.

حـالٌ متـى علـم ابـنُ منـصور بهـا جـاء الزمـان إلـيّ منهـا تائبـا

ويقول الأصفهاني في إيضاح المشكل: «ثم جئنا إلى حديثه وانتجاعه ومفارقة الكوفة وتطوافه في أطراف الشام، واستقرائه بلاد العرب ومقاساته الضر وسوء الحال ونزارة كسبه وحقارة ما يوصل به حتى إنه أخبرني أبو الحسن الطرائفي ببغداد- وكان لقي المتنبي دفعات في حالتي عسره ويسره- أن المتنبي قد مدح بدون العشرة والخمسة من الدارهم».

وأبو الطيب نفسه يقول في القصدة الدالية التي مدح بها مطلعها:

* أحاد أم سداس في أحاد *

وشَـغل الـنفس عـن طلـب المعـالي ببـيع الـشعر فـي سـوق الكـساد

ولا ريب أن كبار الممدوحين أعطوه عطاء أرضاه. يقول في مدح الحسين بن علي الهمداني.

مـدحت أبـاه قبلـه فـشفي يـدي من العُدم من تُشفى به الأعين الرمد
حبـاني بأثمـان الـسوابق دونهـا مخافـةَ سـيرى. إنهـا للنـوى جُنـد
وشـهوةَ عـود إنّ جـود يمينـه ثنـاء ثنـاء، والجـواد بهـا فـرد
فـلا زلـت ألقـى الحاسـدين بمثلهـا وفـي يـدهم غـيظ وفـي يـدي الرفـد
وعنـدي قبـاطيّ الهمـام ومالـه وعنـدهم ممـا ظفـرت بـه الجحـد

ويقول في مدح علي بن إبراهيم التنوخي:

مـن بعـد مـا صِـيغ مـن مواهبـه لمـن أُحِـبّ الـشنوفُ والخـدَم

ولما مدح علي بن أحمد المرى حمله على فرس [1] ولما نزل على علي بن عسكر ببعلبك خلع عليه وَحَمَله.

***

وفي طول مقامه عند بدر بن عمار، ومدحه بخمس قصائد من جيد شعره- دليل على أنه نال منه ما أرضاه. وقد وجد في بدر بن عمار أميراً عربيًا ذا مكانة فصحبه مدة وطاب عيشه عنده حتى فارقه بعد أن أقام عنده أكثر من سنة ومدحه بخمس قصائد وقطع كثيرة. والظاهر أن رجلاً اسمه ابن كروّس أفسد ما بينه وبين بدر فتركه ومدح على بن أحمد المرّي بقصيدة تنبئ عن سخطه وثورته، القصيدة التي مطلعها:

لا افتخار إلا لمن لا يضام ... مدرك أو محارب لا ينام

وأنشأ بعدها قصيدة يصف سيره في البوادي ويذم الأعور ابن كروَس أولها:

عذيري من عذارى من أمور ... سكنّ جوانحي بدل الخدور

ويقول فيها:

أوانا في بيوت البدو رحلي ... وآونة على قتد البعير
أعرض للرماح الصمّ نحري ... وأنصب حرّ وجهي للهجير
وأسري في ظلام الليل وحدي ... كأني منه في قمر منير

ثورة نفسه في هذا العهد:

(١) النسخة ٥٣٠ أدب دار الكتب المصرية.

وكان أبو الطيب في هذا العهد يلهج بالمجد والسؤدد والغلبة والملك، ويذكر أن له مطالب جسامًا، ويرى نفسه أحق بالسؤدد ممّن سادوا.

فمن ذلك قوله في صباه:

ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلى ... تَساوى المحابي عنده والمقاتل

وقوله في شعر الصبا أيضًا:

لقد تصبّرتُ حتى لاتَ مصطبر ... فالآن أقحَم حتى لات مُقتحَم
لأتركنّ وجوه الخيل ساهمةً ... والحربُ أقومُ من ساق على قدم
والطعنُ يُحرقها والزجرُ يُقلقها ... حتى كأنّ بها ضربًا من اللَّمم
قد كلّمتْها العوالي فهي كالحة ... كأنما الصاب مذرور على اللُّجُم
بكل منصلتٍ ما زال منتظري ... حتى أدَلتُ له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ... ويستحلّ دم الحجاج في الحرم

ولما لامَهُ معاذ بن إسماعيل اللاذقي على تهوّره قال:

أبا عبد الإله معاذَ إني ... خفيٌّ عنك في الهيجا مَقامي
ذكرتُ جسيم ما طلبي وإنّا ... نخاطر فيه بالمهج الجسام
أمثلي تأخذ النكباتُ منه ... ويَجزع من ملاقاة الحِمام
ولو برز الزمان إليّ شخصًا ... لخضّب شعر مَفرِقه حسامي

وعُرض عليه الشراب فقال:

ألذّ من المدام الخندريس ... وأحلَى من معاطاة الكئوس
معاطاةُ الصفائح والعوالي ... وإقحامي خميسًا في خميس
فموتي في الوغى عيشي لأني ... رأيت العيش في أرَب النفوس

ويقول:

لأحبتـــــي أن يمـــــلأوا بالـــــصافيات الأكُوبـــــا
وعلـــــيهم أن يبـــــذُلوا وعلـــــيّ ألا أشـــــربا
حتـــــى تكـــــون البـــــاترا تُ المـــــسمعاتِ فأطربـــــا

ويقول في القصيدة التي رثى فيها جدته:

يقولـون لـي مـا أنـت؟ فـي كـل بلـدة وما تبتغي؟ ما أبتغي جلّ أن يُسمَى

ويسمى ما يطلبه حقًّا له:

سـأطلب حقّـي بالقنـا ومـشايخ كـأنهم مـن طـول مـا التثمـوا مُـرد
ثقـالٍ إذا لاقـوا، خفـاف إذا دُعـوا قليـلٍ إذا عُـدوّا كثيـرٍ إذا شَـدّوا

ويتعجل هذا المطلب أحيانًا فيقول:

لله حـــال أرجّيهـــا وتُخلفنـــي وأقتـضي كونَهـا دهـري ويمطُلنـي

ويلوم نفسه على التواني:

إلـى كـم ذا التخلـف والتـواني وكـم هـذا التمـادي فـي التمـادي ؟
وشَـغل الـنفس عـن طلـب المعـالي ببـيع الـشعر فـي سـوق الكـساد

***

وأما وسيلته إلى آماله فالحرب والفتك وقتل الرؤساء.

وقد جعل هِجّيراه التغني بالطعن والضرب، وكرّره في قصائده المدح وقصائد أخرى أعرب فيها عن آماله وآلامه.

عذله أبو سعيد المخيمري- وبنو مخيمر من طيّ النازلين بمنبج- على تركه لقاء الأمراء فقال:

أبــا ســعيد جنّــب العتابــا فــرُبّ رأى أخطــأ الــصوابا
فــإنهم قــد أكثــروا الحجّابــا وأوقفــوا لردّنــا البوّابــا
وإن حــدّ الــصارم القِرضــابا والــذابلات الــسمرَ والعِرابــا
ترفع فيما بيننا الحجابا

ويقول في آخر قصيدة مدح:

أذاقنــي زمنــي بلــوى شــرقتُ بهــا لــو ذاقهــا لبكــى مــا عــاش وانتحبــا
وإن عَمــرت جعلــت الحــرب والــدة والــسمهريّ أخــاً والمــشرفيَّ أبــا
بكــل أشــعثَ يلقــى المــوت مبتــسمًا حتــى كــأن لــه فــي قتلــه أرَبــا
قُــحّ يكــاد صــهيلُ الخيــل يقذِفــه عــن ســرجه مرَحًــا بــالغزو أو طربــا
فالموت أعذر لي، والصبر أجمل بي والبــرّ أوســع، والــدنيا لمــن غلبــا

***

وقد بلغ من كلفه بهذا الضرب من القول أنه جعله في أول قصائد المدح كالنسيب عند الشعراء الآخرين فهو يقول في مطلع القصيدة التي مدح بها على بن إبراهيم التنوخي:

أحــادٌ أم سُــداس فــي أحــاد لُيَيلتنــا المنوطــةُ بالتنــاد
كــأن بنــاتِ نعــش فــي دُجاهــا خرائــدُ ســافراتٌ فــي حِــداد
أفكّــر فــي معــاقرة المنايــا وقــودِ الخيــل مــشرفةَ الهــوادى
زعــيمٌ للقنــا الخطّــى عزمــي بــسفك دم الحواضــر والبــوادي

وفي مطلع قصيدة أخرى مدح بها المغيث بن علي بن بشر العجلي:

فـــؤاد مـــا تـــسلّيه المُـــدام وعُمـــرٌ مثـــلُ مـــا يهـــب اللئـــام
ودهـــر ناســـه نـــاس صـــغار وإن كانـــت لهـــم جثـــث ضِـــخام
ومـــا أنـــا مـــنهم بـــالعيش فـــيهم ولكـــن مَعـــدنُ الـــذهب الرغـــام

وقـد بلـغ ولعـه بهـذا الكـلام وقلـة مبالاتـه بالنـاس أن توعَّـد بقتـل الممدوحين في قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الله الخصيبي:

مـدَحتُ قومًـا وإن عـشنا نظمتُ لهـم قـصائداً مـن إنـاث الخيـل والحُـصُن
تحـتَ العجـاج قوافيهـا مـضمّرة إذا تنوشـدن لـم يـدخلن فـي أذن

بل يغلبه الوهم فيذكر أنه حارب وقتل. ولسنا ندري متى فعل.

ومطالـبِ فيهـا الهـلاك أتيتهـا ثبـتَ الجنـان كـأنني لـم آتهـا
ومقانـبِ بمقانـبِ غادرتهـا أقـواتَ وحـش كـنّ مـن أقواتهـا

وكان هذا الرجل الثائر الطامح إلى المُلح فقيرًا لا يقدر على العيش الرغد، وقد ردّد شكواه في شعره. يقول في إحدى قصائد الصبا:

أيـن فـضلي إذا قنعـتُ مـن الـدهر بعـيش مُعجّـل التنكيـد
ضاق صدري وطال في طلب الرز ق قيـامي وقـلّ عنـه قعـودي

ويقول:

لُـم الليـالي التـي أخنـت علـى جِـدتي برقّـة الحـال واعـذِني ولا تَلُـم

ويقـول فـي القـصيدة التـي مـدح بهـا علـي بـن منـصور الحاجـب فأعطـاه عليها دينارًا:

أظمتنـي الـدنيا فلمـا جئتهـا مستـسقيًا مطـرتْ علـيّ مـصائبا

وحُبيتُ من خُوص الركاب بأسودٍ من دارش فغدوت أمشي راكبا [1]

ويقول في قصيدة أخرى:

ولما قلّت الإبل امتطينا إلى ابن ابي سليمان الخطوبا

وكان كما يقول الثعالبي «يجشم نفسه أسفاراً أبعد من آماله. لا يستقر ببلد، ولا يسكن أحد».

برتني السُّرى برىَ المُدى فرددنني أخفّ على المركوب من نَفسي جرمى

***

ألفت ترحلي وجعلت أرضي قُتودى والغُرَيرِيّ الجُلالا

***

أوانًا في بيوت البدو رحلي وآونةً على قَتَد البعير

***

كأني من الوجناء في ظهر مَوجة رمت بي بِحاراً ما لهنّ سواحل
يُخيّل لي أن البلاد مسامعي وأني فيها ما تقول العواذل

وكان من بُعد همته، وسعيه وإخفاقه- سخطُه على الزمان وأهله حتى حسب الدهر حَربًا عليه، والناس كلها عدوًّا له والآكام حانقة عليه. يقول في قصيدة أنشأها بعد فراق بدر بن عمار يهجو في آخرها ابن كروّس:

فقل في حاجة لم أقض منها على شغفي بها شَروَى نقير
وكف لا تنازع من أتاني ينازعني سوى شرفي وخيري
وقلةِ ناصر جوزيتَ عنّي بشرّ منك يا شر الدهور

---

(١) يعني أنه لم يجد من الركاب إلا فعلا سوداء.

عـدوّي كـلّ شـيء فيـك حتـى   لخلـتُ الأُكْـم مـوغَرة الـصدور

ويقول مخاطباً الأسد:

ورائـي وقُـدّامي عُـداةٌ كثيـرة   أحـاذر مـن لـصّ ومنـك ومـنهم

ويقول:

وإنمـا نحـن فـي جيـل سَواسـيةٍ   شرّ على الحر من سقم على بدن
حَـولي بكـل مكـان مـنهم خلَـق   تُخطى إذا جئتَ في استفهامها بمن
لا أقتـري بلـداً إلا علـى غَـرَر   ولا أمـرّ بخَلـق غيـرِ مـضطغن

ويغلو في تحقير الناس فيقول:

أذم إلـى هـذا الزمـان أهيلَـه   فـأعلمُهم فَـدمٌ وأحـزمهم وَغْـد
وأكـرمهم كلـب، وأبـصرهم عَـمٍ   وأسـهدهم فَهـد، وأشـجعهم قِـرد
ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى   عَـدوًّا لـه مـا مـن صـداقته بـدّ

ولا ريب أن في هذا الشعر ما يبين عن غروره وزهوه وإعجابه بنفسه. وقد صرّح بذلك في مواضع من شعره. يقول في قصيدة من قصائد الصبا:

إن أكـن معجَبًـا فعُجـبُ عجيـبٍ   لـم يجـد فـوق نفـسه مـن مزيـد
أنـا تِـربُ النـدى وربّ القَـوافي   وسِـمام العِـدى وغـيظُ الحـسود
أنـا فـي أمـة تـداركها الله   غريـب كـصالح فـي ثمـود

***

وهنا يسأل الباحث أكان الطيب يفكر في الحرب والتغلب كما ينطق شعره أم هي نفثات رجل عاجز مغرور يعلّل نفسه بالقول حين فاته الفعل؟

أحسب أبا الطيب كان يفكر في الثورة والغلبة ولا يجد وسائلها فيرتقب أن تتاح له. وبُرهان هذا أنه همّ بالثورة أول عهده بالشام وحُبس، وأنه أعرب عن عزمه على الحرب بعد أن ذهبت، سنن كثيرة. يقول بعد خروجه من مصر في قصيدة يرثى فيها فاتكا:

ما زلت أضحك إبلى كلما نظَرتْ ... إلى من اختضبت أخفافُها بدم؟
أسيرُها بين أصنام أشاهدها ... ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعتُ وأقلامي قوائلُ لي ... المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتبْ بنا أبداً بعد الكتاب به ... فإنما نحن للأسياف كالخدم
أسمعتِني وداوائي ما أشرتِ به ... فإن عصيتُ فدائي قلة الفَهَم
من اقتضى بسوى الهنديّ حاجته ... أجاب كلّ سؤال عن هلِ بلم
توهّم القوم أن العجز قرّبنا ... وفي التقرب ما يدعو إلى التُّهم
ولم تزل قِلة الإنصاف قاطعة ... بين الأنام ولو كانوا ذوي رحم
فلا زيارة إلا أن تزورهم ... أيدٍ نشأن مع المصقولة الخُذُم
من كل قاضية بالموت شفرتُه ... ما بين منتقَم منه ومنتقِم

وقال بعد في مدح دلّير بن لشكروَز:

محب كنى بالبيض عن مرهَفاته ... وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير أنني ... جَناها أحبّائي، وأطرافها رُسْلي

ثم يقول في مدح ابن العميد:

إن لم تُغثني خيلُه وسلاحه ... فمتى أقود على الأعادي عسكرا

فالرجل الذي جُن بذكر الحرب والضرب في شبابه يعود إليه بعد أن جاوز الخمسين. فما أحسبه إلاَّ طوى نفسه على ثورة وهوًى مطله به الزمان ثم قتله دونه.

وفي قصيدة الصبا الدالية التي قدمتُ أبياتًا منها، والتي لقب من أجلها المتنبي، يقول:

ما مُقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
مَفرِشي صهوة الحصان ولكنّ قميصي مسرودة من حديد
لأمة فاضةٌ أضاةٌ دِلاص أحكمت نسجها يدا داود

فإن صدّقنا أنه كان يلْبس درعًا، وليس ما يصدّنا عن تصديقه، فلبس هذا الشاب الدرع في غير حرب دليل على أنه كان يعيش في خوف وحذر وعلى ما تمكّن في نفسه من حب الحرب وآلاتها، وما توسوس به نفسه من خوض غمراتها.

الفصل الخامس

اتصاله بابن طُغْج

تلكم حال أبي الطيب منذ قدم الشام إلى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة. وكان على سوء حاله وسخطه على الدهر، ينبُه ذكره ويسير شعره، حتى رغب في مدائحه الأمراء. فدعاه الأمير الحسن بن عبيد الله بن طغج إلى الرملة ليمدحه. والحسنُ هذا ابنُ أخي الإخشيد محمد بن طغج. ثم اتصل بأبي العشائر بن حمدان فمهد له السبيل إلى مجده وسعادته إلى سيف الدولة عليّ بن حمدان. فأما لقاؤه ابنَ طغج فقد رُوي في شرح المعري:

«حدث أبو عمر عبد العزيز بن الحسَن بحضرة أبي الطيب. قال حدثني محمد بن القاسم المعروف بالصوفي قال: أرسلني الأمير أبو محمد إلى أبي الطيب، ومعي مركوب يركبه. فصعدت إليه في دار كان نزلها. فسلمت عليه وعرفته رسالة الأمير. وأنه منتظر له. فامتنع عليّ وقال: أعلم أنه يطلب شعراً، وما قلت شيئًا. فقلت: ما نفترق. فقال لي: اقعد إذاً. ثم دخل إلى بيت في الحجرة وردّ الباب عليه فلبث فيه مقدار كتب القصيدة ثم خرج إليّ وهي في يده مكتوبة لم تجفّ. فقلت أنشدنيها فامتنع وقال ستسمعها. ثم ركب وسرنا فدخلت على الأمير أبي محمد، وعينُ الأمير إلى الباب منتظراً لورودنا. فسألنا عن خبر الإبطاء فأخبرته. فسلّم عليه ورفعه أرفع مجلس. وأنشده أبو الطيب:

أنا لائمي إن كنتُ وقت اللوائم ... علمتُ بما بي بين تلك المعالم

وفي النسخة (٥٣٠) أن هذا كان في شعبان سنة ست وثلاثين وثلاثمائة.

وهذا أول مدح أُسنِيَتْ عليه جائزة أبي الطيب. قال صاحب الإيضاح: أخبرني أبو الحسن الطرائفي قال سمعت المتنبي يقول: أول شعر قلته وابيضّت أيامي بعده قولي:

أنا لائمي إن كنتُ وقت اللوائم ... الخ. فإني أعطيت بها بدمشق مائة دينار.

ويؤخذ من الديوان أن شاعرنا أقام برهة عند ابن طغج. في الديوان غير هذه القصيدة أرجوزة قصيرة وثلاث وعشرون قطعة قصيرة أكثرها بيتان، ولكن التحقيق يدل على أن قطعتين منها قيلتا بعد عشر سنين من هذا التاريخ حين مرّ أبو الطيب بالرملة قاصداً مصر وهما قوله:

تـرك مـدحيك كالهجـاء لنفـسي ... وقليـلٌ لـك المـديح الكثيـر
غيـر أنـي تركـت مقتـضَب الـشعر ... لأمـر مِثلـي بـه معـذور
وسـجاياك مادحاتُـك لا لفظـي ... وجُـودٌ علـى كلامـي يُغيـر
فـسقى الله مـن أحـبّ بكفيـك ... وأسـقاك أيهـذا الأميـر

وقوله:

مـاذا الـوداعُ وداعُ الوامـق الكمِـد ... هـذا الـوداع وداع الـروح للجـسد
إذا الـسحاب زفَتْـه الـريحُ مرتفعًـا ... فـلا عـد الرملـة البيـضاء مـن بلـد
ويـا فـراق الأميـر الرحـب منزلـه ... إن أنـت فارقتنـا يومًـا فـلا تعـد

وكان أبو الطيب في طريقه إلى الكافور فلم يرض أن يمدح واحداً من ولاته قبل أن يمدحه. أبى أن يمدح ابن طغج الذي مدحه من قبل ونال منه أول جوائزه الكبيرة.

طاهر بن الحسين:

وكذلك مدح أبو الطيب في الرملة أبا القسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي.

وفي شرح المعري والنسخة (٥٣٠) ونسخة الأوقاف ببغداد. عن محمد بن قاسم الصوفي: أن الأمير لم يزل يسأل أبا الطيب في كل ليلة من شهر رمضان- إذا اجتمعنا عنده للإفطار- أن يخصّ أبا القاسم طاهراً بقصيدة من شعره يمدحه فيها. وذكر أنه يشتهي ذلك. ولم يزل أبو الطيب يمتنع ويقول ما قصدت غير الأمير، ولا أمدح سواه. فقال الأمير أبو محمد: قد كنتُ عزمتُ أن أسألك قصيدة أخرى تعملها فيّ فاجعلها في أبي القاسم. وضمنَ عنه مئاتٍ من الدنانير فأجاب. قال محمد بن القاسم: فمضيتُ أنا والمطّلبي برسالة طاهر، لوعد أبي الطيب. فركب معنا أبو الطيب حتى دخلنا عليه وعنده جماعة من أهل بيته أشراف، فلما أقبل أبو الطيب نزل أبو القاسم طاهر من سريره وتلقّاه بعيداً من مكانه مسلمًا عليه. ثم أخذ بيده فأجلسه في المرتبة التي كان فيها. وجلس بين يديه فتحدَّث معه طويلاً. ثم أنشده فخلع عليه للوقت خلعًا نفيسة.

وحدّثني أبو علي بن القاسم الكاتب قال: كنت حاضراً هذا المجلس وهو كما حدّثك به عبد العزيز [1]. ثم قال: اعلم أني ما رأيت ولا سمعت في خبر أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبي الطيب؛ فإني رأيت طاهراً تلقاه وأجلسه في مجلسه وجلس بين يديه.

والقصيدة التي مدح بها طاهراً:

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب ... وردّوا رُادي فهو لَحظ الحبائب

... الخ.

(١) ذكر في ص ٧٣.

الفصل السادس

بنو حمدان

١

لما ضعف سلطان العباسيين، وغلب على أمرهم قُوّاد الجند تطلعت القبائل العربية الضاربة في أطراف العراق إلى الملك. فنشأ في القرنين الرابع والخامس أربع دول عربية مدت سلطانها على الجزيرة الفراتية وما يليها، وعلى قسم من العراق والشام.

وهم:

١- بنو حمدان التغلبيون وكانت دار ملكهم الموصل وحلب (٣١٧ - ٣٩٤هـ).

٢- وبنو مرداس الكلابيون وكانت دار ملكهم حلب (٤١٤ - ٤٧٢).

٣- وبنو المسيّب العقيليون (٣٨٦ - ٤٨٩) في الموصل وبلاد أخرى.

٤- وبنو مزيد الأسديون وكانت دار ملكهم الحِلة (٤٠٣ - ٥٤٥).

وقد أنجبت هذه الدول أمراء ازدان بهم تاريخ الإسلام والعرب؛ منهم سيف الدولة الحمداني، وابنه سعد الدولة، وسيف الدولة المزيَدي، وابنه نور الدولة.

وإنما يعنينا من هذه الدول دولة الحمدانيين:

٢

حمدان الذي تنسب إليه العشيرة، أحد رؤساء بني تغلب. وهو كما يتبين من شعر المتنبي، ابن حمدان بن الحارث بن لقمان بن راشد. يقول الشاعر في سيف الدولة:

فأنت أبو الهيجا ابنُ حمدان يا ابنه تشابه مولود كريم ووالد
وحمدان حمدونٌ، وحَمدون حارث وحارث لقمان، ولقمان راشد

وكان حمدان نازلاً في جوار الموصل. وصار ذا شأن في سياسة تلك الناحية منذ سنة ستين ومائتين هـ. وتسنى له الاستيلاء على قلعة ماردين سنة أربع وسبعين ثم أخرجه منها الخليفة المعتضد بالله سنة إحدى وثمانين.

ثم تودد الحسين بن حمدان إلى الخلافة وأعان على هزيمة بعض الخوارج فقرّبه الخليفة المقتدر، وولاه وإخوتَه ولاياتٍ في أوائل القرن الرابع.

ولي حسين قمّ وكاشان. وأخوه أبو العلاء نهاوند. وأخوه أبو الهيجاء الموصل. وكان لأبي الهيجاء تصرّف في سياسة الدولة العباسية. وفي عهده عظم سلطان الحمدانيين. ولاه المقتدر الموصل والجزيرة سنة ٣٠٢. وحارب القرامطة سنة ٣١٥ وأنقذ بغداد منهم إذ قطع جسر الأنبار.

٣

وورث أبا الهيجاء ابنُه الحسن سنة ٣١٧، وكان له ولأخيه عليّ بلاء حسن في تأييد الخلفاء حتى لقبه الخليفة المتقي سنة ٣٣٠ بناصر الدولة، ولقب أخاه عليًا سيف الدولة. وبعد قتل ابن رائق سنة ٣٣٠ صار ناصر الدولة أمير الأمراء في بغداد ثلاثة عشر شهراً.

واستمر لناصر الدولة وأولاده الملك في الموصل وديار ربيعة ومضر إلى سنة ٣٨٠.

وأما عليّ سيف الدولة فقد ملك واسطًا وما حولها زمنًا. ثم اقتطع لنفسه بسيفه مملكة من الإخشيديين في شمالي الشام وما يتصل به. روى أنه طلب من أخيه ناصر الدولة ولاية فقال له: أمامك الشام وما فيه أحد يمنعك فسار إلى حلب فاستولى عليها.

استولى على حلب وحمص سنة ٣٣٣. وكان بينه وبين جيوش الإخشيديين وقائع. ثم استولى على دمشق والرملة بعد موت الإخشيد ولكنه غُلب عليهما. وانتهى الأمر إلى الصلح على أن تكون حلب لسيف الدولة ودمشق للإخشيديين وتزوج سيفُ الدولة بنت الإخشيد.

واستمر الملك لسيف الدولة وذريته إلى سنة ٣٩٤ ثم أديل للفاطميين.

٤

سيف الدولة والروم

أنت طولَ الحياة للروم غازٍ ... فمتى الوعد أن يكون القُفول ؟
وسوى الروم خلف ظهرك روم ... فعلى أيّ جانبيك تميل

كانت الثغور الرومية مُثار حروب وغارات منذ فتح المسلمون الشام والعراق. وقد تصدى بنو حمدان لحرب الروم حين قام ملكهم في الجزيرة. فكان للحسين بن حمدان معهم أحداث، وكان لسيف الدولة وقائع قبل أن يملك حلب.

فلما استقرّ الفتى العربي في العواصم كان عليه أن يثبت ملكه على الزلازل، ويُقر عرشه على ظُبَى السيوف. وقد وقف فتى الإسلام والعروبة عشرين عامًا شجًى في حلق الدولة الرومية الشرقية لم تخمد نار الحرب بينهما سنة واحدة.

وكانت له في الروم نكايات. وانتصر عليهم مرات. وقد أوغل سنة ٣٣٩ في بلادهم حتى كان على سبعة أيام من القسطنطينية.

وقد مُني البطل المجاهد بهزائم أفظعها ما وقع سنة ٣٥١ إذ قاد نقفور (Nicephorus) مائتي ألف إلى أبواب حلب واستولى على المدينة إلا القلعة؛ وأخرب الروم حلب وقتلوا وأسروا ألفًا ومائتين ألحموهم السيف. ونهبوا دار سيف الدولة خارج المدينة وأخربوها. وفي هذه السنة أُسِرَ الأمير الشاعر أبو فراس في منبج.

وأصاب سيف الدولة فالج في يده ورجله سنة ٣٥٢ ولكن ذلك لم يقعده عن حرب الروم ولم يعجزه عن الانتصار عليهم في السنة التالية:

وقد علمتْ خيلُه أنه إذا همّ وهو عليل ركب

وكان الأمير التغلبي بطلاً في انتصاره وهزيمته، وضّاء في عافيته وبلائه. وكانت القبائل العربية النازلة في مملكته تزيد همومه وتثقل أعباءه بالثورة بين الحين والحين.

توفي سيف الدولة سنة ٣٥٦ بحلب ونقل إلى ميافارقين فدفن في مقبرة أمه خارج المدينة. وكان قد جمع ما تراكم عليه من عجاج الحرب فصنع منه لبنة وأوصى أن توضع تحت رأسه في قبره [١].

٥

سيف الدولة والعلماء والأدباء

قال الثعالبي في اليتيمة: «وحضْرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء. ويقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر. وإنما السلطان سوق يُجلب إليها ما نَفق لديها».

كثر الشعراء حول سيف الدولة ينالون جوائزه، ويُشيدون بذكره. ومنهم- غير أبي فارس وأبي الطيب- أبو العباس النامي، وعلى بن عبد

(١) انظر في كتاب الأوابد المقال الذي عنوانه: «وديعة ميافارقين».

الله الناشئ، والسريّ الرفّاء، وأبو الفرج الببغاء، وأبو الفرج الوأواء، وأبو الفتح كشاجم، وأبو نصر بن نُباتة، وأبو العباس الصفري، وابن كوجك، وابن دينار، والخالديّان، وأبو حصين الرقي، وأبو القاسم الشَيظمي، وأبو ذر أستاذ سيف الدولة.

وقد اختار أبو الحسن الشمشاطيّ وأبو محمد الفيّاض الكاتب من مدائح سيف الدولة عشرة آلاف بيت [١].

وممن صحبه من الأدباء عبد الله بن خالويه، وأبو علي الفارسي، وأبو الطيب اللغوي، والقاضي التنوخي، وابن نصر البازيار، والشمشاطيّ، والفياض. وأهدى إليه أبو الفرج الأصفهاني كتاب الأغاني فأعطاه ألف دينار [٢].

وممن أقام عند سيف الدولة أبو عبد الله بن مقلة أخو الوزير أبي علي بن مقلة. وكان أبو عبد الله كأخيه حسن الخط فكتب لسيف الدولة خمسة آلاف ورقة. قال ياقوت في معجم الأدباء: «كان أبو عبد الله منقطعًا إلى بني حمدان سنين كثيرة، يقومون بأمره أحسن القيام. وكان ينزل في دار قوراء حسنة. وفيها فُرشُ تشاكلهَا ومجلس دَست. وله شيء للنسخ وحوض فيه محابر وأقلام فيقوم ويتمشى في الدار إذا ضاق صدره. ثم يعود فيجلس في بعض تلك المجالس وينسخ ما يخف عليه. ثم ينهض

(١) اليتيمة: سيف الدولة.

(٢) اليتيمة: سيف الدولة ومعجم الأدباء في تراجم هؤلاء الأدباء.

ويطوف عَلى جوانب البستان ثم يجلس في مجلس آخر، وينسخ أوراقًا أخرى على هذا؛ فاجتمع في خزائنهم من خطه ما لا يُحصى».

وكذلك لجأ إلى سيف الدولة أبو نصر الفارابي الفيلسوف وعاش في كنفه. وكان سخاؤه ينال من بعدُ عنه من أهل العلم والأدب. روي الثعالبي في اليتيمة أن رسولاً لسيف الدولة سأل أبا إسحق الصابي ببغداد شيئاً من شعره. فأرسل إليه ثلاثة أبيات. فلما عاد الرسول إلى بغداد زاره الصابي فأرسل إليه كيسًا مختومًا بخاتَم سيف الدولة عليه اسم الصابي وفيه ثلاثمائة دينار.

ونجد في ديوان أبي الطيب أبياتًا أجاب بها شاعراً اسمه ابن المنجّم من بغداد بعث إلى سيف الدولة أبياتًا يمدحه بها، وقال إنه رآه في المنام. وفي النجوم الزاهرة [1] أنه لما أصاب أبا الحسن الكرخي الفالَج كتب أصحابه إلى سيف الدولة ليمده بمال. فأرسل إليهم عشرة آلاف درهم جاءت بعد وفاة أبي الحسن فتصدقوا بها.

وروى الثعالبي أن أعرابيا رثّ الهيئة تقدّم إلى سيف الدولة والشعراء ينشدونه فأنشده:

أنت علي وهذه حلب ... قد نفد الزاد وانتهى الطلب
بهذه تفخر البلاد، وبالأمير ... تزهى على الورى العرب
وعبدك الدهر قد أضرّ بنا ... إليك من جور عبدك الهرب

(١) حوادث سنة ٣٤٠.

فقال سيف الدولة: أحسنت، والله أنت. وأمر له بمائتي دينار. وكثير أمثال هذا في كتب التاريخ والأدب.

وكان الأمير أديبًا شاعرًا له شعر يدل على طبع شاعر، ونقد يدل على ذوق سليم.

الفصل السابع

أبو الطيب وسيف الدولة

مقدمة: أبو العشائر بن حمدان

الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان

سار أبو الطيب سنة ست وثلاثين من الرملة إلى أنطاكية فمرّ ببعلبك وفيها علي بن عسكر، فخلع عليه وحمله وساله أن يقيم عنده فمدحه بأربعة أبيات. ورحل إلى أنطاكية فمدح أبا العشائر بالقصيدة:

أتراهـــا لكثـــرة العـــشاق تحسب الدمعَ خلقة في المآقي

ثم مدحه في ثلاث قطع. وأنشأ في أنطاكية أرجوزة حينما غشيّ الثلج الأرض، وتعذر المرعى على حجرته الجهامة ومهره الطخرور:

مـا للمـروج الخـضر والحـدائق يـشكو خلاهـا كثـرةَ العوائـق

ثم أغار على أنطاكية يانس المؤنسي قائد الإخشيديين وفجأ أبا العشائر. فقاتل عن نفسه حتى خرج إلى حلب. وفي هذه الغارة قُتل الطخرور وأمّة. فقال أبو الطيب الأبيات التي أولها:

إذا غـامرتَ فـي شـرف مـروم فـلا تقنـع بمـا دون النجـوم
فطعـم المـوت فـي أمـر حقيـر كطعـم المـوت فـي أمـر عظـيم
سـتبكي شـجوها فرسـي ومهـري صـفائح دمعُهـا مـاء الجـسوم

ثم رجع أبو العشائر إلى أنطاكية. وكان أبو الطيب قد رجع إلى الرملة. فلما سمع بعودته خرج يقصده. فلما كان بطرابلس أراده إسحاق بن كيغلغ على مدحه. فكان بينهما ما رواه المعرّي في شرحه:

«ومرّ بطرابلس وبها إسحق بن الأعور بن إبراهيم بن كيغلغ. وكان جاهلاً، وكان يجالس ثلاثة من بني حيدرة. وكان بين أبي الطيب وبين أبيهم عداوة قديمة. فقالوا له: ما نحب أن يجاوزك ولم يمدحك، وإنما يترك مدحك استصغاراً لك. وجعلوا يُغرونه به. فراسله وسأله أن يمدحه. واحتج أبو الطيب بيمين ألاّ يمدح أحداً إلى مدة. فعاقه عن طريقه ينتظر قضاء تلك المدة، وأخذ عليه الطريق وضبطها، ومات الثلاثة الذين كانوا يغرونه به في مدة أربعين يومًا. فقام أبو الطيب يهجوه بطرابلس، قال: ولو فارقته قبل قولها لم أقلها أنفة من اللفظ بما فيها. قال: وأملاها على من يثق به. فلما ذاب الثلج وجفّ عن لبنان خرج كأنه يُسيّر فرسه. وسار إلى دمشق وأتبعه ابن كيغلغ خيلاً ورَجْلاً فأعجزهم ثم ظهرت القصيدة».

وهي القصيدة التي مطلعها:

لهوى النفوس سريرة لا تُعلَم عرَضًا نظرت وخلت أني أسلم

وهي قصيدة جمع فيها أبو الطيب بين التحليق إلى أوج الحكمة والإسفاف إلى حضيض الإقذاع.

ثم سار إلى أنطاكية فلقى أبا العشائر، ومدحه بقصيدتين وثماني قطع.

سيف الدولة

١

كان أبو العشائر بن حمدان والياً على أنطاكية من قِبل سيف الدولة. فلما قدم الأمير أنطاكية سنة ٣٣٧ قدم أبو العشائر إليه أبا الطيب وأثنى عليه. قال في الإيضاح: فاشترط أنه لا ينشده إلا قاعداً، وعلى الوحدة. فلما سمع سيف الدولة شعره حكم له بالفضل وعدّ ما طلبه استحقاقًا. وقال صاحب الصبح المنبي: «واشترط المتنبي على سيف الدولة أول اتصاله به أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلا وهو قاعد، وأنه لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه. فنُسب إلى الجنون. ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط».

فأما اشتراط المتنبي ما اشترط فجدير بنفسه الأبيّة، فقد ألف أن يتخذ الممدوحين أصدقاء لا سادة، وأشفق على نفسه أن تُسام الهوان، وأن تكلَّف ما يكلفه الآخرون في لقاء الملوك. ولم يكن صعباً على سيف الدولة أن يجيبه إلى ما اشترط؛ فالعربي بطبعه أبعد الناس عن أن يرضى العبودية لنفسه أو لغيره.

٢

وجد أبو الطيب في علي بن حمدان الأمير العربي الذي ينشده. ورأى سيف الدولة في أحمد بن الحسين فتى أبيًّا أهلاً لصداقته، وشاعراً مُجيداً جديراً بتخليد مآثره. وكان لا بد لبطولة سيف الدولة من شاعر كأبي

الطيب، يُشيد بها ويسجل مفاخرها وقد أراد الله سبحانه لهما هذه الصحابة فوُلدا في سنة واحدة. ولم يعش سيف الدولة بعد قتل أبي الطيب إلا سنتين. لقد كانا بطلين يتعاونان بل شاعرين يتباريان كما قال أبو الطيب في أبي العشائر:

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ كلانا ربّ المعاني الدقاق

***

وقال في سيف الدولة:

لك الحمد في الدر الذي لي لفظه فإنك معطيه وإني ناظم

***

إن هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك
عدلَ الرحمن فيه بيننا فقضى باللفظِ لي والحمدِ لك

٣

صحب أبو الطيب سيف الدولة ثماني سنوات نظم فيها ١٥١٢ بيتًا في ٣٨ قصيدة و٣١ قطعة.

ومن هذا أربع عشرة في وصف وقائعه مع الروم، وأربع في وقائعه مع القبائل العربية، وخمس عشرة في المدح دون وصف الوقائع، وخمس في الرثاء، ومن القطع اثنتان في حوادث الروم، وغيرُها في مقاصد مختلفة.

ويضاف إلى هذه القصائد القصيدة التي أولها:

ذِكَر الصبى ومراتع الآرام جلبت حِمامى قبل يوم حمامي

نظمها سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ثم ألحقها بمدائح سيف الدولة وهي ٣٣ بيتاً.

تتفق نسخ الديوان وأقوال الشارحين على أن هذه القصيدة قيلت في سيف الدولة سنة ٣٢١ وهي السنة التي رحل فيها الشاعر إلى الشام كما قدمنا ولعل القارئ يجد فيها ما يصده عن تصديق هذا. يجد الشاعر يقول لممدوحه:

صلى الإله عليك غيرَ مودَّع وسقى ثرى أبويك صوبَ غمام

ونحن نعلم أن أم سيف الدولة ماتت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، ورثاها أبو الطيب وهو في صحبة ابنها. فكيف قال سنة إحدى وعشرين: «وسقى ثرى أبويك صوب غمام».

ثم في القصيدة هذا البيت:

يا سيف دولة هاشم من رام أن يلقى مثالك رام غير مرام

وعلى بن حمدان لم يلقب «سيف الدولة» قبل سنة ٣٣٠.

يجوز أن يقال إن هذا البيت منحول كما قال بعض الشراح، أو إن أبا الطيب زاده حين ألحق القصيدة بمدائح سيف الدولة بعد. ويجوز أن يقال في «ثرى أبويك» أنه أراد أباه وجده أو اباه وعمه. وقد توفى أبوه سنة ٣١٧ أو لم يفطن الشاعر إلى أن أم سيف الدولة كانت حيّة. إن يكن في النفس شيء من أن يكون أبو الطيب أنشأ هذه القصيدة في مدح سيف الدولة سنة ٣٢١.

فهذا لا يقتضي ردّ الروايات الصريحة التي تبين أن أبا الطيب أنشأ هذه القصيدة في مدح علي بن حمدان هذه السنة.

وسيأتي أنه مدحه من بعد بقصيدتين وعزاه عن أخته بأخرى بعد أن رجع إلى العراق.

وقصائد الحروب كلها، وهي ثمان عشرة قصيدة في واحد وسبعين وسبعمائة بيت، يبلغ فيها أبو الطيب الغاية التي ليس بعدها متقدَّم لشاعر أو ناثر. وليس هذا موضع الكلام في شعره، ولكني أقول إن هذا المقدار من الشعر الحماسي البليغ في ديوان الشاعر العربي يعسر على الباحث أن يختاره من الملاحم الكبيرة مثل الإلياذة اليونانية، والشاهنامه الفارسية، والأنياذ الرومانية، والمهابهاراتا والراميانا الهنديتين على طولها. ولا أحط من قيمة هذه الملاحم، ولكن أقول إنها لا تعلو في شعرها إلى مستوى قصائد أبي الطيب القصيرة، إلا أبياتًا متفرقة تنبغ في المنظومة حينًا بعد حين. ويبقى لهذه الملاحم قيمتها في القصص وما تضمنته من فلسفة وأفكار وأمور أخرى.

وتختلف قصائده في حرب الروم عن قصائده في حرب القبائل العربية. يتبين في الأول نقمة الشاعر على الروم وفرحه بانتصار المسلمين عليهم.

ويتبين في القصائد التي وصف فيها حرب قبائل العرب بني كلاب وبني قشير والعجلان وكعب- عطف الشاعر عليهم، والشفاعة لهم،

والاعتذار عنهم، واضطراب نفسه بين الإشادة بانتصار الأمير، وحزنه على ما أصاب هذه القبائل.

يقول في بني كلاب:

فقاتل عن حريمهم وفروا ... نَدى كفيك والنسبُ القُراب
وحفظُك فيهم سَلَفي معدّ ... وأنهم العشائر والصِحاب

***

ترفق أيها المولى عليهم ... فإن الرفق بالجاني عتاب

***

فإن هابوا بجُرمهمُ عليًا ... فقد يرجو عليًا من يهاب
وإن يك سيف دولة غير قيس ... فمنه جُلود قيس والثياب
وتحت ريابه نبتوا وأثوا ... وفي أيامه كثروا وطابوا
وتحت لوائه ضربوا الأعادي ... وذل لهم من العرب الصعاب

ويعتذر عن بني كعب ومن عصى معهم بأنهم لم يألفوا الطاعة والخضوع:

وفيك إذا جنى الجاني أناة ... تُظنّ كرامةً وهي احتقار
وأخذٌ للحواضر والبوادي ... بضبط لم تعوده نزار
تشممه شميم الوحش إنسًا ... وتُنكره فيعروها نفار
وما انقادت لغيرك في زمان ... فتدرى ما المقادة والصَّغار
فقرَحت المقاودُ ذفريها ... وصعَّر خدَّها هذا العِذار

إلى أن يقول:

إذا لم يُرع سيدهم عليهم ... فمن يُرعى عليهم أو يغار

تفـــرّقهم وإيـــاه الـــسجايا ويجمعهـــم وإيـــاه النِّجـــار

***

ويقول:

بنـــو كعـــب ومـــا أثـــرت فـــيهم يـــدٌ لـــم يُـــدمها إلا الـــسّوار
بهـــا مـــن قطعـــة ألـــم ونقـــص وفيهـــا مـــن جلالتـــه افتخـــار
لهـــم حـــق بـــشزْكك فـــي نـــزار وأدنـــى الـــشرك فـــي أصـــل جـــوار
لعـــلّ بنـــيهم لبنيـــكَ جُنـــد فـــأوّل قُـــرّح الخيـــل المِهـــار

٤

ولـم يأل سيف الدولة في بر شاعره، وإغداق النعمة عليه، وإكرامه، وإعظامه. يؤخذ من رواية في الصبح المنبي أنه كان يعطيه ثلاثة آلاف دينار كل سنة. ويدل الديوان أنه كان يعطيه عطايا أخرى في مقامات مختلفة.

فالقطعة:

موضـع الخيـل مـن نـداك طفيـف ولـــو أنّ الجيـــاد فيهـــا ألـــوف

... الخ.

قالها حين سأله سيف الدولة عن صفة فرس يُرسله إليه.

والقطعة:

اختـــرت دهمـــاء تـــين يـــا مطـــر ومـــن لـــه فـــي الفـــضائل الخيـــر

... الخ.

قالها حين خيّره في حجرتين إحداهما دهماء، والأخرى كميت.

والقطعة:

فعلتْ بنا فعل السماء بأرضه خِلَعُ الأمير وحقّه لم نقضه

... الخ.

قالها حين أنفذ إليها خلعًا.

والقطعة التي أولها:

أيا راميأً يُصمى فؤاد مرامه تُربّى عِداه ريشَها لسهامه

قالها حين خرج إلى إقطاع أقطعه إياه الأمير في معرّة النعمان [1].

وكذلك نرى في شروح الديوان ذكر الخلع والهدايا التي منحها الأمير شاعره حين اصطلحا بعد أن تنافرا، وأنشده القصيدة:

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل دعا فلبّاه قبل الركب والإبل

وروى الثعالبي أن سيف الدولة عاب على المتنبي ببيتين من قصيدته:

* على قدر أهل العزم تأتي العزائم *

فردّ المتنبي ردًّا أعجب الأمير فأمر له بخمسين دينارًا من دنانير الصلات. وهي دنانير ضربها للهبات عليها اسمه وصورته، في كل واحد

---

(١) اليتيمة: سيف الدولة.

عشرة مثاقيل. فالخمسون منها خمسمائة [١] وفي الإيضاح أن سيف الدولة أمر بحساب ما أعطى لأبي الطيب فكان خمسة وثلاثين ألف دينار في أربع سنين.

وشعر أبي الطيب ينطق بالغبطة والشكر. يقول:

ناديتُ مجدك في شعري وقد صدرا ... يا غَير منتحل في غير منتحَل
بالشرق والغرب أقوام نحبهم ... فطالعاهم وكونا أبلغ الرسل
وعرّفاهم بأني في مكارمه ... أقلِّب الطّرف بين الخيل والخَوَل

ويقول:

تركت السُّرى خلفي لمن قلّ ماله ... وأنعلتُ أفراسي بنعماك عسجدا
وقيّدتُ نفسي في هواك محبة ... ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا
إذا سأل الإنسان أيامه الغنى ... وكنت على بعد جعلتك موعدا

ويقول:

أسيرُ إلى إقطاعه في ثيابه ... على طِرفه من داره بحسامه
وما مطرتنيه من البِيض والقنا ... وروم العِدَى هاطلات غمامه
فتى يهب الإقليم بالمال والقرى ... ومن فيه من فرسانه وكرامه
ويجعل ما خُوّلته من نواله ... جزاء لما خُوّلته من كلامه

وقد سكن أبو الطيب إلى صحبة الأمير الكريم، وما يشهد معه من مشاهد الحرب والمجد فترك الشكوى، وكفّ عن حديث الثورة والقتل الذي طفح به شعره الأول إلاّ قليلاً نادراً كقوله:

---

(١) ما سبق ذكره.

ولقد ذخرت لكل أرض ساعة ... تستجفل الضرغام عن أشباله
تلقى الوجوهُ بها الوجوه وبينها ... ضرب يجول الموتُ في أجواله

وقوله:

أهمَ بشيء والليالي كأنها ... تطاردني عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان في كل بلدة ... إذا عظم المطلوب قلّ المساعد

وكان يصحب سيف الدولة في أكثر حروبه فيصفها شاهداً:

وإني لتعدو بي عطاياك في الوغى ... فلا أنا مذموم ولا أنت نادم
على كل طيار إليها برجله ... إذا وقعت في مسمعيه الغماغم

ويقول:

وإن كنت سيف الدولة العضب فيهم ... فدعنا نكن قبل الضراب القنا اللدنا
فنحن الألى لا نأتلى لك نصرة ... وأنت الذي لو أنه وحده أغنى
يقيك الردى من يبتغي عندك العلَى ... ومن قال لا أرضى من العيش بالأدنى

وقال وقد أرسل إليه الأمير يسأله إجازة أبيات:

أتاني رسولك مستعجلا ... فلباه شعري الذي أذخَر
ولو كان يومَ وغى قائمًا ... للبّاه سيفي والأشقر

الفصل الثامن

فراق سيف الدولة

فارق أبو الطيب صديقه بعد أن لبث في كنفه ثماني حجج.

أنشده أول قصيدة مدحه بها:

وفاؤكما، كالربع أشجاه طاسمه، بأن تُسعدا، والدمع أشفاه ساجمه

في جمادي الأولى سنة ٣٣٧. وأنشده آخر قصيدة:

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في إقدامك القسمُ

سنة ٣٤٥.

لماذا ترك صاحبه الذي أخلص له الود، وتوّجه بتاج الخلود؟

إذا رجعنا إلى ديوان أبي الطيب وكتب الأدب نجد أموراً تحدث في الحين بعد الحين، تنغّص على الشاعر الأبيّ عيشه، وتكدّر صفوه، ونجد الشاعر يشكو ما يلقى، ويهدد بالفراق أحيانًا.

وفي هذه السطور إجمال الكلام في هذا الصدد:

١

كان حول سيف الدولة شعراء كسفت شمسُ أبي الطيب نجومهم، وأخمدت نباهته ذكرهم. فكانوا يحسدونه ولا يألون في ذمّه والتسميع به، وإفساد ما بينه وبين صاحبه. وكانت كبرياء أبي الطيب وفخره بشعره

وتعاليه عليهم وإيثار الأمير إياه تزيد حسدهم وغيظهم. وكان الشعراء يحسدون الشاعر الأبيّ على مكانته، وينقمون عليه تعاليه وتعاظمه. انظر إلى قوله:

وما أنا إلا سمهري حملته ... فزين معروضًا وراع مسدَّدا
وما الدهر إلاّ من رُواة قصائدي ... إذا قلتُ شعراً أصبح الدهر مُنشدا
وسار به من لا يسير مشمّراً ... وغنى به من لا يغني مغرّدا
أجِزني إذا أُنشدتَ شعراً فإنما ... بشعري أتاك المادحون مردّدا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني ... أنا الصائح المحكيّ والآخر الصدى

انظر كيف يكون وقع هذا على شعراء سيف الدولة، وقد جعلهم أصداء له، وسأل الأمير أن يجيزه هو إذا هم أنشدوه. فلا جرم أنهم جهدوا أن يوقعوا بينه وبين الأمير. ومما قاله المتنبي في هذا:

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله ... إذ القول قبل القائلين مقول
وما لكلام الناس فيما يريبني ... أصولٌ ولا للقائليه أصول
أعادي على ما يوجب الحبَّ للفتى ... وأهداً والأفكارُ فيّ تجول
سوى وجع الحساد داوٍ فإنه ... إذا حلّ في قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسد في مودة ... وإن كنت تبديها له وتُنيل

وقوله:

وللحساد عذرٌ أن يشِحوا ... على نظري إليه وأن يذوبوا
فإني قد وَصلتُ إلى مكان ... عليه تحسد الحدق القلوب

وقوله:

أزلْ حسد الحسّاد عني بكبَتهم ... فأنت الذي صيَرتَهم لي حُسدا

إذا شدّ زندي حسنُ رأيك، فيهم ضربتُ بسيف يقطع الهام مغمَدا

وقوله:

أفي كل يوم تحت ضِبني شُويعر ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يطاول
لساني بنطق صامت عنه عادل وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأتعبُ من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبي فيهم غير أنني بغيضٌ إليّ الجاهل المتعاقل
وأكبر تيهي أنني بك واثق وأكثر مالي أنني لك آمِل
لعل لسيف الدولة القرم هبةً يعيش بها حقٌّ ويهلك باطل

٢

وكان سيف الدولة مغرمًا بشعر أبي الطيب، يود أن يسمع كل حين قصيدة في مدحه. وكان الشاعر ينظم كل سنة أربع قصائد أو خمساً غير القطع. فكان الأمير يسخط عليه أحياناً استبطاءً لمدحه. ومن أدلة هذا في الديوان أنا نجد قصيدة أنشدت في جمادي الآخرة سنة ٣٤٢ وأخرى أنشدت يوم الأضحى من هذه السنة وفي الفترة بين القصيدتين وهي زهاء ستة أشهر نظم أبو الطيب سبعاً ما بين قطع وقصائد قصيرة، يعتذر في اثنتين منها عن تأخير مدحه. يقول في قطعة:

وما كان ترك الشعر إلاّ لأنه تقصّر عن وصف الأمير المدائح

ويقول في قصيدة نظمها وقد تنكر له سيف الدولة لتأخره عن مدحه:

كفرتُ مكارمك الباهرات إن كان ذلك منّي اختيارا
ولكن حمى الشعر إلا القليل هم حمى النومَ إلا غِرارا
وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمتُ في القلب نارا

فـــلا تُلزمنـــي ذنـــوب الزمـــان إلـــيّ أســـاء وإيـــاي ضـــارا
وعنـــدي لـــك الـــشُرَّد الـــسائرات لا يختصِـــصن مـــن الأرض دارا
قـــوافٍ إذا ســـرن عـــن مقـــولي وثَـــبن الجيـــال وخُـــضْن البحـــارا
ولـــى فيـــك مـــا لـــم يقـــل قائـــل ومـــا لـــم يـــسر قمـــر حيـــث ســـارا

ثم القصة الآتية التي أنشأ فيها القصيدة * واحرّ قلباه ممن قلبه شبم * وهذه القصيدة بين قصيدتين الأولى في المحرم سنة ٣٤١ والثانية في شعبان من السنة.

فهذا يدل على مقدار شغف الأمير بمدائح شاعره، وتأخر الشاعر عن الاستجابة لهذا الشغف.

وفي الصبح المنبي أن أبا فراس قال لسيف الدولة:

«إن هذا المتشدق كثير الإدلال عليك، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد. ويمكن أن تفرّق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره».

أوقعت هذه الأسباب نفرة بين الأمير وشاعره. وكان من ذلك قصتان:

(أ) القصة التي قال فيها القصيدة المعروفة:

واحـــرّ قلبـــاه ممـــن قلبـــه شـــبم ومـــن بجـــسمي وحـــالي عنـــده ألـــم

وفي شرح ابن جني وغيره في سبب إنشاء هذه القصيدة:

«كان سيف الدولة إذا تأخر عن مدحه شق عليه، وأكثر أذاه، وأحضر من لا خير فيه وتقدّم إليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يُحب. فلا يجيب أبو الطيب أحداً عن شيء فيزيد ذلك في غيظ سيف الدولة. ويتمادى أبو الطيب على ترك قول الشعر، ويلح سيف الدولة فيما كان يفعله، إلى أن زاد الأمر وكثر عليه. فقال هذه القصيدة».

وفي هذه القصيدة يقول:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمُه ورَم

ويفتخر بشعره وشجاعته ثم يقول:

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيبَ والنقصان عن شيمي ... أنا الثريا وذان الشيبُ والهرم

ولما أنشده القصيدة اضطرب المجلس وقال أبو الفرج السامري أحد كبار كتاب الأمير: دعني أسعى في دمه. فرخص له في ذلك.

وفي ذلك يقول أبو الطيب:

أسامريَ ضُحكة كل راء ... فطنتَ وكنت أغبى الأغبياء
صُغرتَ عن المديح فقلت أهجى ... كأنك ما صغرتَ عن الهجاء
وما فكرتُ قبلك في محال ... ولا جَرّبتُ سيفي في هَباء

وكاد أبو الطيب يهلك في هذه القصة.

ففي النسخة (١٥٣٠ أدب) وشرح المعرى وبعض نسخ الواحدي، أنه لما أنشد القصيدة الميمية وانصرف وقف له رجال في طريقه. فلما رآهم أمكن يده من قائم سيفه وحمل فاخترقهم ولم يصنعوا شيئاً. وأن أبا العشائر أرسل جماعة من غلمانه فوقفوا له في طريقه. فلما مرّ بهم ضرب واحد منهم بيده إلى عنان فرسه. فسلّ أبو الطيب سيفه فخلاّه الرجل. وتقدم إلى قنطرة أمامه فعبرها واجترّهم إلى الصحراء. ورمى أحد الغلمان الفرس بسهم فأصابه في نحره فانتزعه أبو الطيب ثم كرّ عليهم فضرب أحدهم فقطع قوسه وأصاب ذراعه. ومضى عنهم فسمع أحدهم يقول: نحن غلمان أبي العشائر. فلذلك قال:

ومنتسب عندي إلى من أحبّه ... وللنبل حولي من يديه حفيف
فهيّج من شوقي وما من مذلة ... حَنَنتُ ولكنّ الكريم ألوف
وكل ودادٍ لا يدوم على الأذى ... دوامَ ودادي للحسين ضعيف
فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً ... فأفعاله اللائي سَررنَ ألوف
ونفسي لَهُ، نفسي الفداءُ لنفسه ... ولكنّ بعض المالكين عنيف
فإن كان يبغي قتلها يك قاتلاً ... بكفيه، فالقتل الشريف شريف

ثم عاد أبو الطيب إلى المدينة مستخفيًا، فأقام عند بعض أصدقائه وراسل سيف الدولة. وأنكر الأمير أنه أمر بما وقع للشاعر. وكتب أبو الطيب الأبيات:

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتباً ... فداه الورى أمضى السيوف مضاربا
ومالي إذامـا اشتقتُ أبصرتُ دونه ... تنائف لا أشتاقها وسباسبا

... الخ.

ودخل الشاعر دار الأمير بعد تسعة عشر يومًا فتلقاه الغلمان، وأدخلوه إلى خزانة الألبسة. فخُلع عليه وطيّب. ودخل على الأمير فرحب به وسأله عن حاله وهو مستحي. فقال له: رأيت الموتَ عندك أحبَّ من الحياة عند غيرك. فقال: بل يُطيل الله بقاءك. ثم ركب أبو الطيب وركب معه جماعة كثيرة وأتبعه الأميرُ هدايا فقال القصيدة:

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل دعا فلبّاه قبل الركب والإبل

(ب) والقصة الثانية رواها البديعي في الصبح المنبي قال:

«قال عبد المحسن بن عليّ بن كوجك إن أباه حدثه، قال: كنت بحضرة سيف الدولة أنا وأبو الطيب اللغوي وأبو عبد الله بن خالويه النحوي، وقد جرت مسألة في اللغة تكلم فيها ابن خالويه مع أبي الطيب اللغوي، والمتنبي ساكت.

فقال له سيف الدولة: ألا تتكلم يا أبا الطيب؟ فتكلم فيها بما قوّى حُجَّة أبي الطيب اللغوي، وضعّف قول ابن خالويه. فأخرج من كمه مفتاحًا حديداً ليلكم به المتنبي. فقال له المتنبي: اسكت ويحك! فإنك أعجمي وأصلَك خوزي؛ فمالك وللعربية؟ فضرب وجه المتنبي بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه. فغضب المتنبي إذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولاً ولا فعلاً. فكان ذلك أحد أسباب فراقه»[1].

(١) الصبح المنبي ص ٤٥ ط دمشق.

٤

وقد هدّد أبو الطيب بالفراق تصريحاً وتعريضاً. قال في القصيدة: «واحر قلباه»:

أرى النوَى تقتضيني كلَّ مرحلة ... لا تستقلّ بها الوَخادة الرُّسُم
لئن تركن ضميراً عن ميامننا ... ليحدثنّ لمن ودعتهم ندم
إذا ترحلتَ عن قوم وقد قدروا ... ألاّ تفارقهم فالراحلون هم
شرّ البلاد بلاد لا أنيسَ بها ... وشرّ ما يكسب الإنسانُ ما يصم

وقال في القصيدة: «دروع لملك الروم هذي الرسائل»:

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك ... ولا تعطينّ الناس ما أنا قائل

وبعد هذا البيت أبيات قدمتها في هذا الفصل:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ... ضعيف يقاويني قصير يطاول

... الخ.

وفي الصبح المنبي أن أبا الفتح بن جنى قال: «كنت قرأت ديوان المتنبي عليه حتى وصلت إلى قوله:

أغالب فيك الشوق والشوقُ أغلب ... وأعجب من ذا الهجر والوصلُ

فلما انتهيت إلى قوله:

لحا الله ذي الدنيا مناخًا لراكب ... فكلّ بعيد الهمّ فيها معذب

---

(١) مطلع قصيدة من مدائح كافور.

... الخ.

قلت: يعز عليّ أن يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة. فقال: حذّرناه وأنذرناه فما نفع فيه الحذر. ألست القائل فيه:

أخا الجود أعط الناسَ ما أنت مالك ... ولا تُعطينَّ الناس ما أنا قائل

فهو الذي أعطاني لكافور بسوء تدبيره، وقلة تمييزه»[1].

٥

وقد صرّح بعد فراق سيف الدولة بما كان في نفسه. قال في أول قصيدة مدح بها كافوراً:

حَبيتك قلبي قبل حبك من نأى ... وقد كان غداراً فكن أنت وافيا
وأعلم أن البين يشكيك بعده ... فلست فؤادي إن رأيتك شاكيا
فإن دموع العين غُدرٌ بربها ... إذا كنَ إثر الغادرين جواريا
إذا الجود لم يُرزق خلاصًا من الأذى ... فلا الحمد مكسوبًا ولا المال باقيا

فهو يعرض في هذه الأبيات بسيف الدولة، ويصفه بالغدر والأذى. ويقول في قصيدة أخرى يمدح كافوراً:

قالوا هجرتَ إليه الغيثَ قلت لهم ... إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تهب الدولات راحتُه ... ولا يمنّ على آثار موهوب
ولا يروع بمغدور به أحداً ... ولا يفزّع موفوراً بمنكوب

وهذا تعريض بسيف الدولة يصفه بالمنّ والغدر أيضًا.

---

(١) الصبح المنبي ص ٥٣.

وكذلك قال حينما سمع أنه نُعِي عند سيف الدولة:

رأيتكم لا يصونُ العرضَ جارُكم ولا يَدِرّ على مَرعاكم اللبن
وإن بُليت بودّ مثلِ ودّكم فإنني بفِراق مثلهِ قَمِنُ

وأدل من هذا على ما كان في نفسه ما قاله في القصيدة التي أرسلها من العراق إلى سيف الدولة جوابًا لدعوته إياه إلى حلب، بعد أن أهدى إليه سيف الدولة وأعتبه، وبعد أن مدحه هو بقصيدتين. قال في القصيدة البائية:

فهمت الكتاب أبرّ الكتب فسمعًا لأمر أمير العرب
وطوعًا له وابتهاجًا به وإن قصَّر الفعل عما يجب
وما عاقني غيرُ قول الوشاة وإن الوشايات طُرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم وتقريبهم بيتنا والخبَب
وقد كان ينصرهم سمعه وينصرني قلبُه والحسب

وقال في آخر القصيدة:

وليت شكاتك في جسمه وليتك تجزي ببغض وحب
فلو كنت تجزي به نلتُ منك أضعف حظ بأقوى سبب
فليت سيوفك في حاسد إذا ما ظهرت عليهم كتب

٦

ضاق أبو الطيب بالمُقام عند سيف الدولة لهذه الأسباب. ولسبب آخر لا ينبغي ألا يغفل عنه الباحث. ذلك أن الشاعر الطموح الذي يقول:

ولكن قلبًا بين جنبيّ ما له مَدى يتهي بي في مُراد أحده

بلغ درجة عالية عند بني حمدان فسمت نفسه إلى درجة أعلى منها. ولم يكن فارق نفسه حب المجد والسلطان والتطلع إلى الغلبة والتملك. فذهب يلتمس مُنيته في أقطار الأرض وأمَل أن يجد في مصر وسيلة إلى غايته. فعزم أن يرحل إليها.

وقد أنشد سيف الدولة قصيدته الأخيرة:

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في إقدامك القسم

وهو على نية الرحيل.

في شرح المعري: «قال ابن جنى قلت لأبي الطيب وقت قراءتي هذه القصيدة عليه: إنه ليس في جميع شعرك أعلى كلامًا من هذه القصيدة فاعترف بذلك وقال: كانت وداعًا».

الفصل التاسع

من حلب إلى الفسطاط

قال صاحب الإيضاح: «فلما انتهت مدته عند سيف الدولة استأذنه في المسير إلى إقطاعه فأذن له. وامتدّ باسطًا عنانه إلى دمشق [١].

وفي شرح المعري: فأجمع رأيه على الرحيل من حلب فلم يجد بلداً يأوى إليه أولى من دمشق. لأن حمص من عمل سيف الدولة.

وقال في الصبح المنبي: ولما عزم أبو الطيب على الرحيل من حلب وذلك في سنة ست وأربعين وثلاثمائة لم يجد بلداً أقرب إليه من دمشق لأن حمص كانت من بلاد سيف الدولة».

يتبين من هذه الروايات أن أبا الطيب لم يؤذن سيف الدولة بعزمه على الرحيل؛ بل أوهمه أنه سائر إلى إقطاعه بمعرة النعمان فعائد إليه، وأنه وقد سار غير مستأذن لم يستطع النزول بحمص إذ كانت في ولاية سيف الدولة. فهل يؤخذ من هذا أن الشاعر أوجس خيفة من الأمير بغير إذنه، وأن سيف الدولة ما كان ليأذن له بالرحيل لو استأذنه؟ فأما الإذن فأكبر الظن أن الأمير ما كان يرضى به. وأما الخوف فالظاهر أن الشاعر قد أحسّه، خاف أن يأخذه سيف الدولة برحيله دون إذن، وخاف أن ينتهز حساده الفرصة فيغروا الأمير به. ومما يؤيد هذا قول أبي الطيب في قصيدة

---

(١) الخزانة ج ١٥ ص ٣٨٤ ط القاهرة.

كافورية بعد التعريض بغدر سيف الدولة منّة في الأبيات التي تقدمت في هذا الفصل:

وجدت أنفع مال كنتُ أذخَره ما في السوابق من جَري وتقريب
لما رأين صروف الدهر تغدر بي وفين لي ووفت صمّ الأنابيب
فُتن المهالك حتى قال قائلها ماذا لقينا من الجُرد السراحيب

يقول: «لما رأت الخيل غدر الدهر بي وفت لي فأنجتني» وليس غدر الدهر الذي يذكره هنا إلاّ ما لقي من سيف الدولة آخر أيامه عنده. وأما المهالك التي خلفها فهي ما خشيه من بني حمدان وما خافه من أهوال الطريق، كما قال في القصيدة البائية التي مدح بها كافوراً أنه كان يكمن نهاره ويسير ليله في سفره إلى مصر.

ويوم كليل العاشقين كمنته أراقب فيه الشمس أيّان تغرب

سار أبو الطيب من حلب إلى دمشق فانتقل من مملكة سيف الدولة إلى مملكة كافور الإخشيدي.

وفي شرح المعري أنه كان بدمشق يهودي يعرف بابن ملك من قبل كافور الإخشيدي، فالتمس من أبي الطيب أن يمدحه، فثقل عليه وكتب إلى كافور أن أبا الطيب في دمشق. فكتب كافور إلى ابن ملك يطلب مسير الشاعر إلى مصر. فأجابه أن أبا الطيب قال: لم أقصد العبد، وإن دخلت مصر فما قصدي إلاّ ابن سيده.

وفقه هذه الرواية أن ابن ملك رأى أبا الطيب شاعر سيف الدولة ترك صاحبه مغاضبًا، وقدم إلى مملكة الإخشيديين فكتب إلى كافور ينبئه. ولا

أصدّق أن ابن ملك كتب إلى كافور أن أبا الطيب قال لم أقصد العبد ... الخ. فما كان الشاعر ليقول هذا وهو يعلم أنه ليس في البلاد التي أمّها إلا سلطانُ كافور، وما كان ابن ملك ليجترئ على أن يفترى سبّ كافور على لسان أبي الطيب.

وأحسب الشاعر عزم على مصر وهو في حلب، وتلبّث بدمشق ريثما يبلغ كافوراً قدومُه، فيدعوه فيذهب إلى مصر مطلوبًا لا طالبًا.

تقول الرواية بعد هذا:

ونبت دمشق بأبي الطيب فسار منها إلى الرملة فحمل إليه أميرُها الحسن بن عبيد الله بن طغج (وهو الذي مدحه المتنبي من قبل)[1] هدايا، وخلع عليه وحمله على فرس جواد بمركب ثقيل وقلده سيفًا محلّى، وسأله المدح فاعتذر إليه بالأبيات الرائية. وهي ترك مدحيك كالهجاء لنفسي. وقد تقدم ذكرها قبل هذا اهـ.

وهذه الأبيات الرائية مثبتة في ديوان أبي الطيب مع الشعر الذي مُدح به ابن طغج سنة ٣٣٦. والحق أنه أنشأها حين سار إلى الرملة في طريقه إلى مصر سنة ٣٤٦ وهي:

تـرك مـدحيك كالهجـاء لنفـسي ... وقليـل لـك المـديح الكثيـر
غيـر أنـي تركـت مقتـضب الـشعر ... لأمـر مِثلـي بـه معـذور
وسـجاياك مادحاتُـك لا لفظـي ... وجـودٌ علـى كلامـي يُغيـر

(١) انظر الفصل الخامس المتقدم.

فسقى الله من أحِبّ بكفيك وأسقاك أيها الأمير

وفي الديوان أبيات أخرى قالها يودع ابن طغج حين عزم على المسير إلى مصر وهي:

ما ذا الوداع وداعَ الوامق الكمد هذا الوداعُ وداعُ الروح للجسد
إذا السحاب زفته الريحُ مرتفعًا فلا عدا الرملةَ البيضاء من بلد
ويا فراق الأمير الرحب منزلُه إن أنتَ فارقتنا يومًا فلا تَعُدِ

وأرى أن امتناع أبي الطيب عن مدح ابن طغج، وهو أول من أغدق عليه العطاء وجذب بضبعه، يدلنا على أنه خرج من دمشق قاصداً كافوراً. فقد أشفق أن يمدح أحداً قبل كافور فيغضبه، ولولا هذا ما ضنّ بمدحه على ابن طغج وهو ابن عم أنوجور، ملك مصر إذ ذاك.

تستمر رواية شرح المعري في قَصص رحلة أبي الطيب فتقول: «واتصل به أن كافورا يقول: أترونَه يبلغ الرملة ولا يبلغ إلينا؟ وأنه واجد عليه، ثم كتب كافور من مصر إلى أبي الطيب يستدعيه إلى حضرته فلم يمكنه إلا المسير إليه».

تريد هذه الرواية أن تصوّر أبا الطيب كارهًا المسير إلى كافور مضطراً إليه. فلذلك قال الراوي إن كافوراً كتب إليه مرتين وأنه «لم يمكنه إلا المسير إليه». ومرمى هذه الرواية وروايات أخرى الاعتذار عن ذهاب الشاعر الكبير إلى كافور ومدحه بالقصائد الغراء، ثم هجائه من بعد أقبح هجاء. وقد ادعى بعض الأدباء أن مدح أبي الطيب كافوراً كان هجاء في باطنه.

الفصل العاشر

كافور الإخشيدي

١

الإخشيد

كان طُغُج بن جف الفرغاني والياً من ولاة الدولة العباسية. وقد سخط عليه الخليفة وهو والي الشام فسجنه حتى مات في السجن.

ثم تقرب ابنه محمد إلى الخلفاء فولاه الخليفة المقتدر بالله دمشق سنة ٣١٨، ثم ضم إليه الخليفة الراضي بالله مصر سنة ٣٢٣، ثم لقبه الإخشيد. واستتب الأمر في مصر له ولذريته إلى أن دخلها الفاطميون سنة ٣٥٨.

وأما الشام فقد تنازعها الإخشيد وابن رائق ثم سيف الدولة كما تقدم. واستمر سلطان الإخشيد على دمشق وما يليها إلى مصر، إلى أن توفى بدمشق سنة ٣٣٤.

٢

مكانة كافور في دولة الإخشيد

وكان للإخشيد مولى أسود اسمه كافور بن عبد الله. قال صاحب النجوم الزاهرة نقلاً عن الذهبي: «اشتراه سيده محمد الإخشيد بثمانية

عشر ديناراً من بعض رؤساء مصر، وأعتقه ثم رقاه حتى جعله من كبار القواد لما رأى منه الحزم والعقل وحُسن التدبير».

صار كافور قائداً فقاد الجيوش لحرب ابن رائق ثم سيف الدولة في الشام. وقد ذكره أبو الطيب في القصيدة التي مدح بها مساور بن محمد:

أمساورٌ أم قرنُ شمس هذا أم ليثُ غاب يَقدُم الأستاذا

ولما توفى الإخشيد أخذ كافور البيعة لابنه أنوجور وعاد به إلى مصر.

وروى صاحب النجوم الزاهرة أنه لما مات الإخشيد اضطربت الديار المصرية فخرج كافور بابني الإخشيد إلى الخليفة المطيع لله ليُقر أنوجور على ملك أبيه.

وظن سيف الدولة أن موت الإخشيد ييسر له الاستيلاء على دمشق. فاستولى عليها وتقدم إلى الرملة. فسار إليه كافور فهزمه وأخرجه من دمشق ومن حلب، ثم اصطلحا على أن تكون حلب لسيف الدولة ودمشق لابن الإخشيد.

وصار الأمر كله لكافور حتى ضاق أنوجور باستبداده، وأراد الخروج إلى الرملة فأعلمت أمُّه كافوراً فمنعه الخروج.

ثم توفى أنوجور سنة ٣٤٩ فاجتهد كافور أن يبقى الأمر في بني الإخشيد؛ فتوجه إلى بغداد ونال من الخليفة المطيع تولية عليّ بن الإخشيد مكان أخيه.

٣

تولى كافور ملك مصر

ومات عليّ سنة ٣٥٥. وبقيت مصر أيامًا بغير أمير والأمر في يد كافور حتى اتفق أعيان مصر على تأميره، فنال السلطان الاسمي إلى السلطان الفعلي وخطب له على منابر مصر والحجاز وبعض الثغور الرومية حتى توفي سنة ٣٥٦ وعمره خمس وستون سنة بعد أن حكم مصر وما يتبعها اثنتين وعشرين سنة. وحمل تابوته إلى بيت المقدس فدفن به وكتب على قبره:

ما بال قبرك يا كافور منفرداً بالصحصَح المرتِ بعد العسكر اللجب
يدوس قبرك آحادُ الرجال وقد كانت أسودُ الثرى تخشاك في الكُتب

٤

سيرة كافور وأخلاقه

كان كافور قوياً شجاعاً داهية حازماً. استطاع أن يُرضي العباسيين والفاطميين معاً. كان يذعن بالطاعة لبني العباس ويهادي المعز ويتودد إليه.

وروى صاحب النجوم الزاهرة عن القفطي أن المعز «كان قد عزم على تجهيز عسكر إلى مصر. فسألته أمه تأخير ذلك لتحج خفية. فأجابها وحجت. فلما وصلت إلى مصر أحسّ بها كافور الإخشيدي الأستاذ، فحضر إليها وخدمها وحمل إليها هدايا وبعث في خدمتها أجناداً. فلما

رجعت من حجها منعت ولدها من غزو بلاده. فلما توفى كافور بعث المعز جيوشه فأخذوا مصر».

إن يكن تودد كافور إلى المعز أخّر سيره إلى مصر، فحزم كافور وقوته كان لهما نصيب في هذا التأخير، وكانت شيعة المعز في مصر يكتبون إليه: «إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز الدنيا كلها»؛ يريدون كافوراً. فقد رأوه في قوته وحزمه عقبة في سبيل المعز إلى مصر.

قال الذهبي: «وكان كافور خبيراً بالسياسة داهية»[1] وكثيرا ما مدح أبو الطيب كافوراً بالشجاعة والحزم:

وما كنتَ ممن أدرك الملكَ بالمُنى ولكن بأيام يُشبنَ النواصيا

***

وكان له بصر بالعربية والأدب. ومما يذكر هنا ما رواه ياقوت أن الفضل بن العباس دخل على كافور فقال: أدام الله أيام سيدنا. فخفض الأيام. فتبسم كافور إلى أبي إسحاق النجيرمي فقال أبو إسحاق:

لا غرو إن لحن الداعي لسيدنا أوغصَّ من هيبة بالريق والبَهر
فمثل سيدنا حالت مهابته بين البليغ وبين القول بالحصَر
فإن يكن خفضَ الإيامَ عن دَهَش من شدة الخوف لا من قلة البصر
فقد تفاءلتُ في هذا لسيدنا والفال نأثره عن سيد البشر
بأن أيامه خَفض بلا نَصب وأن دولته صَفْو بلا كدر

(١) النجوم الزاهرة: ج ٤ ص ٦، ١٠٦.

قال فأمر له بثلاثمائة دينار ولابن عباس بمثلها»[1]. ولما أنشده أبو الطيب القصيدة التي ذكر فيها قتل شبيب الخارجي وقال فيها:

وقد قتل الأقران حتى قتلته بأضعفِ قرن في أذلِّ مكان

أدرك كافور أن هذا تهوين من ظفره بعدوه. فقال: لا والله بل بأشد قِرن في أعز مكان.

ويروى أن أبا الطيب لما قال في قصيدة الحمى:

ولما صار وُدّ الناس خِبًّا جزيت على ابتسام بابتسام

لم يبتسم له كافور كما عوَّده من قبل.

وكانت تُقرأ عنده كل ليلة السير وأخبار الأمويين والعباسيين.

وكذلك كان كافور محبًّا للعلماء والأدباء ويقرب الشعراء ويجيزهم. وممن كان في صحبته أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيرمي النحوي صاحب الزجاج.

وممن مدحه من الشعراء غيرَ أبي الطيب، الناشئ. وكذلك مدح وزيرَه ابن الفرات.

***

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ٢٧٨.

وكان ديناً متواضعاً قال الذهبي: «وكان يداوم الجلوس غدوة وعشيَّة لقضاء حوائج الناس. وكان يتهجد ويُمرّغ وجهه ساجداً ويقول: اللهم لا تسلط عليّ مخلوقًا [١]. وبعث إلى أبي بكر الرَّملي المعروف بابن النابلسي مالاً. فردّه وقال للرسول: قل لكافور: قال الله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين) فالاستعانة بالله وكفى. فرد كافور الرسول بالمال وقال قل له: (له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) فأين ذكر كافور هنا؟ الملك والمال لله»[٢].

وكان يرسل كل ليلة عيد وقر بغل دارهم في صُرر بأسماء من أرسلت إليهم من العلماء والزهاد والفقراء.

***

وكان كذلك سخيًّا كثير الهبات والخلع. قال أبو جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوي: ما رأيت أكرم من كافور كنت أسايره يومًا وهو في موكب خفيف يريد التنزه، وبين يديه عدة جنائب بمراكب ذهب وفضة، وخلفه بغال المراكب. فسقطت مقرعته من يده. ولم يرها رِكابيته. فنزلتُ عن دابتي وأخذتها عن الأرض ودفعتها إليه. فقال: أيها الشريف «أعوذ بالله من بلوغ الغاية، ما ظننتُ أن الزمان يُبلغني حتى تفعل بي أنت هذا» وكاد يبكي. فقلت: أنا صنيعة الأستاذ ووليه. فلما بلغ باب داره ودعني. فلما سرتُ التفتّ فإذا الجنائب والبغال كلها خلفي. فقلت: ما هذا؟ قالوا:

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦.

(٢) ص ١٠٦.

أمر الأستاذ أن يحمل مركبه كله إليك. فأدخلته داري. وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار [١].

***

ذلك كافور كما يعرفه التاريخ لا كما تصوره أهاجي أبي الطيب وروايات شائعة في كتب الأدب. وفي نسخة المعري رواية طويلة عن نشأة كافور ونهايته، فهو يصور فَدمًا غبيا، يُصفع في الأسواق، ثم يوكَل إليه أخسّ الأعمال في دار الإخشيد. وذلك ليعجب القارئ والسامع كيف صار مثل هذا الرجل وليّ الأمر في مملكة كبيرة. وهذا دأب القُصاص وأشباههم من المؤلفين.

ولعل القارئ عرف مما قدمتُ عن كافور أن أبا الطيب حين قدم مصر قدم على رجل ذكيّ فطن حازم مجرّب له بصر بالأدب. فعلى هذا فليفهم القارئ ما كان بين الرجلين من بعد.

٥

جعفر بن الفرات الوزير

وكانت وزارة مصر في عهد كافور لجعفر بن الفضل المعروف بابن الفرات وبابن حِنزابة. وهو من أسرة وزراء. وزَر أبوه الفضل بن جعفر للمقتدر بالله العباسي. وكان جده جعفر يتولى ديوان الخراج لأخيه أبي

(١) ص ٤.

الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر أيضًا. وولى جعفر بن الفضل الوزارة لأنوجور بن الإخشيد فبقي وزيراً إلى أن زالت دولة الإخشيديين. ولما دخل المعز مصر سأله أن يلي الوزارة فامتنع. ووزر بعض بنيه للحاكم بأمر الله. فقتله بعد خمسة أيام من وزارته.

وكان جعفر بن الفرات محدّثا. سمع الحديث من رجاله وحدّث بمصر واستقدم الدارَقُطني من بغداد فخرّج المُسند. روى ياقوت في معاجم الأدباء أنه «كان كثير الحديث جم السماع، مكرمًا لأهل العلم، مطعمًا لأهل الحديث».

وقال ابن مندة عنه: «وهو أحد الحفاظ حسن العقل كثير السماع مائل لأهل العلم والفضل».

وكال كثير العناية بعمله. كتب إلى السيرافي يسأله عن ثلاثمائة كلمة من فنون الحديث. وكان سمع من البَغويّ مجلساً وضاع منه فكان يقول: من جاءني به أغنيته. وكان يُصنع له الورق الجيد في سمرقند ويُحمل إليه.

قد لزمه جماعةٌ من العلماء منهم الحسين بن علي الآمدي النحوي، وجماعة من المحدثين منهم الإمام الدارقطني.

ومدحه من الشعراء الناشئ، وكشاجم، وصالح بن مؤنس المصري [1].

(١) تنظر ترجمته في معجم الأدباء جزء ٢.

ذكرت هذه الكلمة عن ابن الفرات ليعلم القارئ أنه كان بمصر حين قصدها أبو الطيب- وزير عظيم، ثم يتعرف مقام شاعرنا من هذا الوزير، وأثر هذا في حرمانه، وسيأتي.

الفصل الحادي عشر

أبو الطيب في مصر

١

قدومه على كافور

في نسخة شرح المعري:

«فلما قدم عليه أبو الطيب أخلى له داراً ووكّل به. وأظهر التهمة له، وطالبه بمدحه وخلع عليه، وأعطاه آلافاً من الدارهم فقال يمدحه في جمادي الثانية سنة ست وأربعين وثلاثمائة:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا»

وفي الصبح المنبى: «فطالبه بمدحه فلم يمدحه فخلع عليه فقال أبو الطيب .. الخ».

ولست أدري لماذا يظهر كافور التهمة لأبي الطيب ويوكل به بعد أن كتب إليه يدعوه واحتفى به فأخلى داراً لنزوله؟! ولماذا يمتنع الشاعر عن مدحه أول الأمر، وما قصد مصر إلا ليمدحه؟

لعل مجيبًا يقول إن الشاعر قدم من عند سيف الدولة خصم كافور ومنافسه على الشام. فكان أهلاً للتهمة حتى يتبين أمره. لا أرى في الأمر ما يدعو إلى هذا، ولكن الراوي كما قدَّمتُ يريد أن يمثل لنا أبا الطيب مكرهًا على قصد كافور سجينًا عنده ليصوّره مضطرا إلى مدحه. والناقد

الخبير لا يعبأ بهذه الزيوف. ومدائح أبي الطيب الأولى تُبين عن نفس مغتبطة آملة عظيمة الرجاء.

٢

كم أقام وكم أنشأ من شعر؟

أقام أبو الطيب بمصر أربع سنين وستة أشهر، من جمادي الثانية سنة ست وأربعين، إلى تاسع ذي الحجة سنة خمسين وثلاثمائة.

ومدح كافوراً حين قدم عليه، وختم مدائحه بقصيدة أنشده إياها في شوال سنة تسع وأربعين وثلاثمائة. وبقي بعد ذلك سنة وشهرين لم ينشد كافوراً شيئاً من شعره.

وبين القصيدتين الأولى والآخرة ثلاث سنين وأربعة أشهر مدح فيها أبو الطيب كافوراً بتسع قصائد وقطعتين فيها كلها ثلاثة وسبعون وثلاثمائة بيت. وذلكم ربع ما مدح به سيف الدولة.

٣

مدحه كافوراً وصلته به، وأحواله عنده

ننظر الآن كيف بدأت صلة الشاعر والأستاذ، وكيف وهنت حتى انقطعت. وماذا أمله أبو الطيب ولماذا حرمه أبو المسك ما أمَّل:

(أ) أبان أبو الطيب في القصيدة الأولى عن حزنه واضطراب قلبه بين صديقه الذي غدر به (يعني سيف الدولة) وبين كافور الذي رجا عنده بلوغ

غايته، وأعرب عن عظم أمله في أميره الثاني وبالغ في مدحه. وليس في القصيدة ما يبين أو ينمّ عن أن الشاعر قصد كافوراً كارهًا، ومدحه مرغماً كما يدعي راوي القصة التي نقلنا بعضها من شرح المعرى. بل رضى بالوقوف بين يديه وقيل له مرة: قد طال وقوفك في مجلسه فقال:

يقل له الوقوف على الرءوس ... ويذل المكرمات من النفوس

ويقول أبو الطيب في أول قصيدته:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيًا ... وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى ... صديقًا فأعيا أو عَدوًا مُداجيا
إذا كنت ترضى أن تعيش بذلةٍ ... فلا تستعدنّ الحسام اليمانيا
ولا تستطيلنّ الرماح لغارة ... ولا تستجيدن العِتاق المَذاكيا
فما ينفع الأسدَ الحياء من الطوَى ... ولا تُتقى حتى تكون ضواريا

وفي هذا إشارة إلى سيف الدولة، وتحامله عليه، واضطراره إلى مفارقته. وقد بلغ به الحزن في هذا أن جعل مطلع قصيدته هذه الأبيات التي يتطير منها السامع. وبعد هذه الأبيات:

حبيتُك قلبي قبل حبّك من نأى ... وقد كان غدّاراً فكن أنت وافيا
وأعلمُ أن البين يُشكيك بعده ... فلستَ فؤادي إن رأيتك شاكيا
فإن دموع العين غُدرٌ بربها ... إذا كنّ إثر الغادرين جواريا

فتراه يطالب قلبه بأن يفي له هو ويترك سيف الدولة؛ فإنه أحب قلبه قبل أن يحب القلبُ هذا الأمير. وفي هذا إعراب عن توزع قلبه بين أصدقائه القدماء وبين انتصافه لنفسه بمفارقتهم ومدح غيرهم. ويسوّغ ما فعله بقوله:

إذا الجود لم يُرزق خلاصًا من الأذى فلا الحمد مكسوبًا ولا المال باقيا
وللنفس أخلاقٌ تدل على الفتى أكان سخاءً ما أتى أم تساخيا

ثم رجع إلى قلبه فيقول:

أقلّ اشتياقًا أيها القلبُ ربما رأيتك تُصفى الودّ من ليس صافيا

ثم ينثني فيذكر ما في نفسه من إلف بني حمدان، ويتخلص إلى مدح كافور يقول:

خُلقتُ ألوفًا لو رجعتُ إلى الصِّبى لفارقت شيبى موجَع القلب باكيا
ولكنّ بالفسطاط بحراً أزرْته فؤادي ونُصحي والهوى والقوافيا

ثم يصف سيره وخيله إلى أن يقول:

قواصد كافور تواركَ غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عينِ زمانه وخلّت بياضًا خلفها ومآقيا

ثم يقول في أثناء المدح معربًا عن رجائه وأمله:

إذا كسب الناس المعالي بالندى فإنك تعطي في نداك المعاليا
وغيرُ كثير أن يزورَك راجل فيرجع ملكاً للعراقين واليا
فقد تهبُ الجيش الذي جاء غازيا لسائلك الفرد الذي جاء عافيا
وتحتقر الدنيا احتقار مجرّب يرى كل ما فيها، وحاشاك فانيا

(ب) وفي أواخر الشهر التالي (لثلاث بقين من رجب، عشية يوم الاثنين)، أنشد أبو الطيب قصيدة يهنئ بها كافوراً بدار جديدة بناها [١] أولها:

إنما التهنئات للأكفاء ... ولمن يدّنى من البُعداء
وأنا منك لا يهنئ عضو ... بالمسرّات سائر الأعضاء

قال الواحدي:

«وهذا طريق المتنبي يدّعي لنفسه المساهمة والكفاءة مع الممدوحين، في كثير من المواضع. وليس ذلك للشاعر فلا أدري لم احتُمل منه».

وقال العكبري:

«وهذه عادة أبي الطيب يدعي المساهمة والكفاءة لنفسه ويشركها مع الممدوحين في كثير من المواضع. وليس ذلك للشاعر وإنما كان هو يعمله إدلالاً عليهم».

وجوابنا للواحدي والعكبري أن أبا الطيب قد وضع نفسه فوق الشعراء وتعوّد ذلك منه الممدوحون، والمرء حيث يضع نفسه؛ ولكن امرئ من دهره ما تعودا.

ويقول في آخر هذه القصيدة:

يا رجاء العيون في كل أرض ... لم يكن غيرَ أن أراك رجائي

(١) عند الجامع في القطائع (نسخة ١٥٣٠).

ولقد أفنت المفاوزُ خَيلي قبل أن نلتقي وزادي ومائي
فارم بي ما أردتَ منّي فإني أسدُ القلب آدميّ الرُّواء
وفؤادي من الملوك وإن كان لساني يُرى من الشعراء

فهو يدعوه إلى أن يكل إليه بعض الشئون، ولكن في كلام يُخيف كافوراً ويوهمه أنه أمام ملك لا شاعر.

وفي شرح المعرى بعد هذه القصيدة:

ولما أنشده أبو الطيب حلف ليبلغنه جميع ما في نفسه. وإنه لأكذب ما يكون إذا حلف.

(حـ) ويمضي شهران فنرى أبا الطيب ينشد الأستاذ أبا المسك يوم عيد الفطر قصيدة أولها:

مَن الجآذر في زي الأعاريب حُمرُ الحُلى والمَطايا والجلابيب

وفي هذه القصيدة يُعرّض بسيف الدولة في قوله:

قالوا هجرتَ إليه الغيث قلتُ لهم إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تهبُ الدولاتِ راحته ولا يمن على آثار موهوب
ولا يروع بمغدور به أحداً ولا يفزع موفوراً بمنكوب

ثم يفخر فيقول بعد ذكر الخيل:

تهوى بمنجرد ليست مذاهبه للبُس ثوب ومأكول ومشروب
يرى النجومَ بعيني من يحاولها كأنها سلب في عين مسلوب

وهذا فخر جدير بأن يفزع كافوراً.

ونجد ريح الشكوى في آخر هذه القصيدة حيث يقول:

يـا أيهـا الملـك الغـاني بتـسمية ... في الشرق والغرب عن وصف وتلقيب
أنـتَ الحبيـب ولكنـي أعـوذ بـه ... مـن أن أكـون مُحبًـا غيـر محبـوب

ذلكم ولما يمض علَى أبي الطيب عند كافور أكثر من أربعة أشهر!

وفي عيد الأضحى من السنة أنشده القصيدة الرابعة:

أودّ مـن الأيـام مـا لا تـودّه ... وأشـكو إليهـا بيـننا، وهـي جُنـده

وهو مطلع ناطق بالشكوى والتحسر.

ويقول في القصيدة:

وأتعـبُ خلـق الله مـن زاد همُّـه ... وقـصَّر عمـا تـشتهي الـنفس وجـدُه
فـلا ينحلـل فـي المجـد مالُـك كلّـه ... فينحـلّ مجـد كـان بالمـال عقـده
ودبّـره تـدبيرَ الـذي المجـدُ كفّـه ... إذا حـارب الأعـداءَ والمَـالُ زَنـده
فـلا مجـد فـي الـدنيا لمـن قـلّ مالـه ... ولا مـالَ فـي الـدنيا لمـن قـلّ مجـده

وفي هذا إبانة عما يختَلج في فؤاد الشاعر من الأسى وقد طمح إلى مجد قصّر عنه ماله، فطوّف في الآفاق يبغي ما يبني به مجده فلم يظفر ببغيته.

ويقول أبو الطيب بعد هذا، ومثل هذا الكلام يروع الممدوح ولا يستعطفه:

وفي الناس من يَرضى بميسور عيشه ... ومركوبُـه رِجـلاه والثـوبُ جِلـده
ولكـنّ قلبًـا بـين جنبـيّ مـا لـه ... مـدى ينتهـي بـي فـي مُـراد أحـده

يرى جسمه يُكسى شفوفاً تربُّه فيختار أن يُكسى دُروعًا تهدُه

ثم يقول عن كافور:

أنا اليوم من غلمانه في عشيرة لنا والدٌ منه يفديه وُلدُه
فمن ماله مال الكبير ونفسه ومن ماله در الصغير ومهده
نجرّ القنا الخطيَّ حول قِبابه وتَردى بنا قُبّ الرباط وجُرده
ونمتحن النشّاب في كلّ وابل دَويّ القسي الفارسيةِ رَعده
فإلاّ تكن مصر الشرى أو عرينَه فإن الذي فيها من الناس أُسدُه

ويقول العكبري في شرح البيت الأول:

«يريد أنه وهب له غلمانًا وأنه منهم في عشيرة لأنه إذا ركب ركبوا معه وأطافوا به فكأنهم عشائره وأقاربه».

ولست أرى في الأبيات إبانة عن هبة وهبها كافور، ولكن أبا الطيب يخبر عن نزوله بين غلمان كافور ومشاركته إياهم في رمي النشاب. فالأبيات تصف جنداً لا خدماً وليس فيها ولا بعدها شكرٌ على هبة.

وفي القصيدة يكرر أبو الطيب سؤال كافور أن يصطنعه ويجربه. ويستنجز وعده. ويتبين من كلامه أن كافوراً كان قد وعده بولاية:

فإن نلتُ ما أمّلت منك فربما شرِبتُ بماءٍ يعجز الطيرَ ورده
ووعدُك فعلٌ قبل وعد لأنه نظيرُ فعال الصادق القول وعدُه
فكن في اصطناعي محسنًا كمجرِّب يبنْ لك تقريبُ الجواد وشَدّه
إذا كنت في شكّ من السيف فابلُه فإمّا تُنفيه وإمّا تُعدُّه
وما الصارم الهندي إلا كغيره إذا لم يفارقه النجاد وغمده

وإنـك للمـشكورُ فـي كـل حالـة ... ولـو لـم يكـن إلا البـشاشة رفـده
فكـل نـوال كـان أو هـو كـائن ... فلحظـة طـرف منـك عنـدي نـده
وإنـي لفـي بحـر مـن الخيـر أصـله ... عطايـاك أرجـو مـدها وهـي مـده
ومـا رغبتـي فـي عـسجد أستفيده ... ولكنهـا فـي مفخـر أستجدّه
يجـود بـه مـن يفـضح الجـودَ جـودُه ... ويحمـدُه مـن يفـضح الحمـد حمـده
فإنـك مـا مـرّ النحـوس بكوكـب ... وقابلتـه إلا ووجهُـك سـعده

(هـ) والقصيدة الخامسة أنشدها أبو الطيب يوم الأحد رابع عشر ربيع الثاني سنة سبع وأربعين وثلاثمائة أي بعد ثلاثة أشهر من القصيدة السابقة. وكان فرس أبي الطيب جرح فحزن عليه فتبين كافور الحزن في وجهه. فأرسل خلفه من يسأله فلما عرف هذا بعث إليه فرسًا أدهم [1].

وفي هذه القصيدة يمدح سيف الدولة، بعد أن فضّل كافورًا عليه فيما تقدم. ويذكر أن الحمدانيين بكوا لفراقه رجالاً ونساء. ويُلقى التبعة على سيف الدولة.

وأول القصيدة:

فـراقٌ ومـن فارقـتُ غيـر مـذمّم ... وأمٌّ ومـن يممـت خيـرُ مـيمّم
ومـا منـزلُ اللـذاتِ عنـدي بمنـزلٍ ... إذا لـم أبجّـل عنـده وأكـرَّم
سـجيةُ نفـس مـا تـزال مليحـةً ... مـن الـضَّيم مرميًـا بهـا كـلُّ مخـرم
رحلـتُ فكـم بـاكٍ بأجفـان شـادن ... علـيّ وكـم بـاك بأجفـان ضـيْغم
ومـا ربّـة القُـرط المليـح مكانُـه ... بـأجزعَ مـن ربّ الحـسام المـصمِّم

(١) في نسخة شرح المعرى أن أبا الطيب نظر إلى كافور فثار الدم في وجهه وخرج فأرسل وراءه من يسأله فقال: جرح فرسي ... الخ.

فلو كان ما بي من حبيب مقنَّع عَذَرتُ ولكن من حبيب مُعمَّم
رمَى واتقى رميى، ومن دون ما اتقى هوًى كاسرٌ كفّى وقوسي وأسهمي

ويقول في آخر القصيدة يتنجز وعده، ويستبطئه:

ولو كنت أدري كم حياتي قسمتها وصيّرت ثلثَيها انتظارَكَ، فاعلم
ولكنّ ما يمضي من الدهر فائتٌ فجُد لي بحظّ البادر المتغنم
رضيتُ بما ترضى به لي محبةً وقُدتُ إليك النفسَ قَود المسلِّم
ومثلُك من كان الوسيطُ فؤاده فكلمه عنّي ولم أتكلم

(و) ووقع خلاف بين أنوجور وكافور لأن جماعة من الجند اتصلوا بالأمير، فأنكر كافور هذا وطالبه بتسليمهم فوقعت بينهما وحشة أيامًا ثم سلمهم إليه فقتلهم [1]. واصطلحا وطولب أبو الطيب بذكر الصلح فقال قصيدة هي خير ما يقال في ثمرات الوفاق وعواقب الشقاق، ومدح فيها كافوراً، وأنشدها في شعبان سنة ٣٤٧ بعد شهرين من القصيدة السابقة. ومطلعها:

حسم الصلحُ ما اشتهته الأعادي وأذاعته ألسن الحسّاد
وأرادته أنفس حال تدبير كما بينها وبين المراد

(ز) مضت على أبي الطيب سنة وثلاثة أشهر ولم يبلغ من كافور مُنيته. فلما جاء عيد الفطر سنة سبع وأربعين وثلاثمائة أنشده القصيدة التي أولها:

أغالب فيك الشوقَ والشوقُ أغلب وأعجبُ من ذا الهجر، والوصل

(١) نسخة المعري ونسخة الديوان التي نشرتها.

وفي شرح المعري ونسخ من الديوان: «كان كافور تقدم إلى أصحاب الأخبار يُرجفون بأنه ولاه موضعاً من الصعيد. وينفذ إليه قومًا يعرفونه ذلك. فلما كثر هذا وعلم أن أبا الطيب لا يثق بكلام يسمعه حمل إليه ستمائة دينار ذهب. فقال هذه القصيدة».

ومهما يكن فقد أظهر فيها أبو الطيب ندمه على ترك سيف الدولة إلى كافور. وهذه جرأة على الممدوحين لا يعرفها الشعراء. يقول بعد المطلع:

أما تغلط الأيام فيَّ بأن أرى ... بغيضا تنائى أو حبيبًا تقرّب
ولله سيري ما أقل تئيّةً ... عشيةَ شَرقيَّ الحَدالي وغُرَّب [1]
عشيةَ أحفى الناس بي من جفوته ... وأهدى الطريقين التي أتجنَّبُ

ويقول بعد أبيات:

لحى الله ذي الدنيا مُناخًا لراكب ... فكلُّ بعيد الهمّ فيها معذّب
ألا ليت شعري هل أقول قصيدة ... فلا أشتكي فيها ولا أتعتَّب
ويي ما يذود الشعر عني أقلُّه ... ولكنَّ قلبي يا ابنة القوم قُلّب

ويقول:

أبا المسك هل في الكأس فضلٌ أناله ... فإني أغنّى منذ حين وتشرب
وهبت عَلَي مقدار كفّى زماننا ... ونفسي على مقدار كفّيك تطلب
إذا لم تنُط بي ضَيعة أو ولاية ... فجُودك يكسوني وشُغلك يسلُب
يضاحك في ذا العيد كلٌّ حبيبَه ... حذائي وأبكي من أحب وأندب
أحِنّ إلى أهلي وأهوى لقاءهم ... وأين من المشتاق عنقاء مُغرب

(١) الحدالي وغرب جبلان في الشام كانا شرقيه وهو ذاهب إلى مصر. وهذا كما قال في القصيدة: «واحر قلباه ممن قلبه شبم».

(ح) ويصمت أبو الطيب بعد هذه القصيدة ثمانية أشهر لا يمدح كافوراً. وما كان قبل يسكت عن مدحه أكثر من شهرين أو ثلاثة. وهذا يدل على أن سخط أبي الطيب، ونقمته على أبي المسك، قد اشتدا ولا سيما إذا عرفنا أن عيد الأضحى سنة ٣٤٧ كان في هذه الأشهر الثامنية فلم يهنئه به خلافًا لما عوَّده. وفي هذه الأشهر الثمانية نظم الشاعر قصيدتين. نظم الأولى حين بلغه أن جماعة نعوه في مجلس سيف الدولة. وقد أعرب فيها عن حزنه، وسخطه على زمانه، وعتبه على الحمدانيين، وعرّض بفراق كافور كما فارقهم. وأول القصيدة:

بم التعلل؟ لا أهل ولا وطن ... ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكنُ
أريد من زمني ذا أن يبلّغني ... ما ليس يبلغه في نفسه الزمن

ويقول فيها لسيف الدولة:

يا من نُعيتُ على بُعد بمجلسه ... كل بما زعم الناعون مرتهن
كم قد قُتلت وكم قد متُّ عندكم ... ثم انتفضتُ فزال القبر والكفن
قد كان شاهد دفني قبل قولهم ... جماعةٌ ثم ماتوا قبلَ من دفنوا

ويصف بني حمدان بأنهم لا يرعون الجوار وينغصون رفدهم بالمن ثم يقول:

سهرتُ بعد رحيلي وحشةً لكم ... ثم استمر مريري وارعَوي الوسَن
وإن بليتُ بودّ مثل ودّكم ... فإنني بفراق مثله قَمِنُ

قال ابن جني حكى أن سيف الدولة لما سمع هذا البيت قال سار وحقّ أبي.

ولم ينشد كافوراً هذه القصيدة، ولكن ختمها بأبيات في مدحه واستنجازه الوعد علماً بأنها ستبلغه. يختم القصيدة بقوله:

أبلى الأجلةَ مهري عند غيركم ويُذِل العُذْرُ بالفسطاط والرسَن
عند الهمام أبي المسك الذي غرقت في جُوده مضرُ الحمراء واليمن
وإن تأخر عني بعضُ موعده فما تأخرُ آمالي ولا تَهِنُ
هو الوفيّ ولكني ذكرتُ له مودَّةً فهو يبلوها ويمتحن

والقصيدة الثانية التي نظمها في هذه الفترة قصيدة يتبين فيها تفكيره في الناس والدنيا، ويقول فيها إن مصائب الزمان كثيرة، ولكن الناس لا يكتفون بها فيخلقون لأنفسهم مصائب بالقتال والنزال وإن مطلب النفوس أصغر من أن يتقاتل الناس عليها:

وهذه القصيدة من خير ما قال في الحكم ومطلعها:

صَحب الناسُ قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا

(ط) ثم تكون وقعة تضطر أبا الطيب إلى أن ينشد كافوراً من شعره. ذلكم أن كافوراً كان قد اصطنع شبيبا العقيلي الخارجي، وولاَّه عمان والبلقاء وما يليهما، فعظم أمره. وخرج على كافور. وسار إلى دمشق في جيش كثيف ودخل المدينة.

وفي أثناء الهرج والمرج ألفى شبيب ميتاً. فارتاع أصحابه وهزموا وتفرقوا. واختلفت الروايات في موته: قيل ألقت عليه امرأة حجراً، وقيل سقطت رجل فرسه في قناة فسقط عنها وقيل شرب سويقاً مسموماً، وقيل اعتراه صرع كان يعتريه.

وجاءت الأخبار مصر يوم الجمعة ثاني جمادي الثانية سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، وطالب كافور أبا الطيب بأن يذكر هذا في شعره فقال القصيدة التي أولها:

عدوك مذموم بكل لسان ... وإن كان من أعدائك القمَران

وهي قصيدة يلقى بها الشاعر ممدوحه بعد ترك مدحه ثمانية أشهر. وكأنه أراد أن يهجوه ويغيظه بها لا أن يمدحه. فأول القصيدة:

عدوك مذموم بكل لسان ... وإن كان من أعدائك القمران

ولله سرّ في عُلاك وإنما ... كلام العِدى ضربٌ من الهذَيان

ثم لم يستطع أن يكتم إعجابه بشبيب. وأبو الطيب تعجبه الشجاعة والبطولة حيثما تجلّيا. وكأنه يرثي شبيباً في هذه القصيدة لا يهنئ كافوراً بقتله- يقول:

فإن يك إنسانا مضى لسبيله ... فإن المنايا غايةُ الحيوان

وما كان إلا النارَ في كل موضع ... تُثير غباراً في مكان دُخان

فنال حياةً يشتهيها عدوّه ... وموتًا يُشهّى الموتَ كلَ جبان

نفى وقع أطراف الرماح برمحه ... ولم يخشَ وقعَ النجم والدبَران

ولم يدر أن الموت فوق شَواته ... مُعار جنَاح محسن الطيران

وقد قتلَ الأقرانَ حتى قتلته ... بأضعفِ قرن في أذلّ مكان

أتته المنايا في طريق خفيّة ... على كل سمع حوله وعيان

ولو سلكت طُرق السلاح لردّها ... بُطول يمين واتساع جنان

تقصده المقدارُ بين صحابه ... على ثقةٍ من دهره وأمان

وهل ينفع الجيش الكثير التفافُه ... على غير منصور وغير مُعان

يريد أبو الطيب أن يقول لكافور إنك لم تغلب شبيباً وما كنت لتقدر عليه في الحرب ولكنك قتلته غيلة أو كفاك أمره القضاء.

وكأنه بعد هذه الأبيات يريد أن يكفر عنها قليلاً وينال ثقة كافور ليركن إليه وينيله ما ابتغى فتراه ينعي الوفاء ويقول إن العاقل لا يكفر النعمة وإن كُفران شبيب أودى به، ويختم الكلام بقوله:

وعند مَن اليوم الوفاءُ لصاحب ؟ شبيبٌ وأوفى مَن ترى أخَوان

وأنّى ينفع أبا الطيب كلامه في كفر النعمة والوفاء بعد أن أسمع ممدوحه شعراً يهوّن فيه انتصاره على عدوه، ويُشيد بذكر هذا العدو. ولم يكن أبو المسك غبيًّا عن فهم دقائق الشعر. وقد روى ابن جنى في شرح هذه القصيدة، قال حكى إبراهيم بن محمد العلوي أنه كان بحضرة كافور، وأبو الطيب ينشده هذه القصيدة فلما قال «بأضعف قرن في أذل مكان» قال كافور وهو يتكلم بكلام الخدم: «لا والله بل أشد قرن في أعز مكان، فروى الناس بأضعف قرن وجعلوا مكان أذل أعز».

(ى) وبعد هذه القصيدة التي اضطرته إليها الحادثات والتي هي أقرب إلى الهجاء من المدح انقطع شاعرنا عن مدح الأستاذ كافور الإخشيدي ستة عشر شهراً.

وفي هذه الفترة أصابته حمى، فقال قصيدة باكية شاكية يصف فيها حاله في مصر، ويعرّض ببخل كافور ومنعه إياه السفر ويتمنى الرحيل. وكتبها

يوم الاثنين لأربع خلون من ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.

ويقول في أول القصيدة:

ملومكما يجلّ عن الملام ... ووقعُ فعاله فوق الكلام
ذراني والفلاةَ بلا دليل ... ووجهي والهجيرَ بلا لثام
فإني أستريح بذي وهذا ... وأتعبُ بالإناخة والمُقام
عيونُ رواحلي إن حِرتُ عيني ... وكلّ بُغام راحلةٍ بُغامي
فقد أرد المياه بغير هاد ... سوى عدّى لها برقَ الغمام
يذمّ لمهجتي ربّي وسيفي ... إذا احتاج الوحيد إلى الذمام
ولا أمسى لأهل البخل ضيفًا ... وليس قِرًى سوى مُخ النعام
ولما صار وُدّ الناس خِبًّا ... جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه ... لعلمي أنه بعض الأنام

إلى أن يقول:

أقمت بأرض مصر فلا ورائي ... تخِب بي الرِّكاب ولا أمامي
وملّني الفِراش وكان جنبي ... يمل لقاءه في كلّ عام
قليلٌ عائدي سَقِمٌ فؤادي ... كثير حاسدي صَعبٌ مرامي
عليل الجسم ممتنع القيام ... شديدُ السكر من غير المُدام

ويصف الحمى ونوباتها ثم يقول:

أبنتَ الدهر عندي كل بنت ... فكيف وصلتِ أنت من الزحام
جرحت مجرّحا لم يبق فيه ... مكانٌ للسيوف ولا السهام

ويذكر شوقه إلى السفر ثم يقول:

يقول لي الطبيب أكلت شيئاً ... وداؤك في شرابك والطعام
وما في طِبّه أني جواد ... أضرّ بجسمه طولُ الجِمام

تعـــوّد أن يغبـــر فـــي الـــسرايا ويـــدخلَ مـــن قتـــام فـــي قتـــام
فأمـــسِك لا يُطـــال لـــه فيَرعَـــى ولا هـــو فـــي العليـــق ولا اللجـــام

وقد قال ابن جنى- ومثله في شرح المعرى: إن أهل مصر شغفوا بهذه القصيدة، وبلغت كافوراً فساءته.

(أ) أبو شجاع فاتك:

وفي هذه الفترة أيضًا كان اتصال أبي الطيب بأبي شجاع فاتك الملقب بالمجنون. وكان فاتك روميًا أسر ورُبّى في فلسطين. ثم أخذه الإخشيد من سيده في الرملة كرهًا بلا ثمن فأعتقه صاحبه.

قال في شرح المعري: «فكان معه حرًا في عِدّة المماليك كريم النفس حُرّ الطبع بعيد الهمة.

وكان في أيام كافور مقيماً بالفيوم من أعمال مصر. وهو بلد كثير الأمراض لا يصح به جسم؛ وإنما أقام به أنفةً من الأسود وحياءً من الناس أن يركب معه. وكان الأسود يخافه ويكرمه فزعاً، وفي نفسه ما في نفسه. فاستحكمت العلة في بدن فاتك، وأحوجته إلى دخول مصر فدخلها ولم يمكن أبا الطيب أن يعوده، وفاتك يسأل عنه ويراسله بالسلام ثم التقيا في الصحراء فحمل إلى منزله للوقت هدية قيمتها ألف دينار ذهب، ثم اتبعها هدايا بعدها».

وقال صاحب الإيضاح: وصل إليه من أنواع صلاته وأصناف جوائزه ما تبلغ قيمته عشرين ألف دينار.

وقال صاحب الإيضاح أيضاً: «وقادوا بين يديه (يدي فاتك) في مدخله إلى مصر أربعة آلاف جنيبة منعلة بالذهب فسماه أهل مصر بفاتك المجنون.

ويزيد ابن خلكان على هذا أن الفيوم كان إقطاعًا لفاتك، وأن أبا الطيب كان يسمع بكرم فاتك وشجاعته، ولا يستطيع أن يقصده خيفة كافور، وأن أبا الطيب استأذن كافوراً في مدح فاتك فأذن له»[1].

وسيرى القارئ كيف جزع الشاعر لوفاة أبي شجاع ورثاه أبلغ رثاء. ورثاء فاتك بثلاث قصائد بعد خروج الشاعر من مصر وانقطاع أمل الشاعر في مثوبة فاتك أو أحد من أقاربه، وما في هذه القصائد من الحزن ومن الإعجاب بشجاعة فاتك ومروءته وسخائه، كل هذا يدل على وفاء الشاعر، كما يدل على إكباره الشجاعة والمروءة وما يتصل بهما من أخلاق.

وفي النسخة (١٥٣٠) أن هذا المدح كان بعد استقرار الحال بين فاتك والأستاذ.

---

(١) وكذلك في نسخة ١٥٣٠.

ولا ريب أن شاعرنا ما اتصل بفاتك واستأذن كافوراً في مدحه- وهو يعلم ما بينهما من المنافسة- إلا بعد أن يئس من كافور أو كاد.

أنشد الشاعر مدح فاتك في تاسع جمادي الثانية سنة ٣٤٨. وفي هذه القصيدة أبيات تعدّ تعريضاً بكافور، فأولها:

لا خيل عندك تُهديها ولا مال فليُسعد النطق إن لم تُسعد الحال
واجز الأميرَ الذي نعماه فاجئة بغير قول، ونُعمى الناس أقوال

أليس هذا تعريضًا بكافور والذي وعده فلم يف له؟ وفيها يقول:

كفاتك ودخولُ الكاف منقصة كالشمس قلت، وما للشمس أمثال

***

يريك مخبره أضعاف منظره بين الرجال وفيها الماء والآل
تملّك الحمد حتى ما لمفتخر في الحمد حاء ولا ميم ولا دال

***

وأكبر الظن أن هذه القصيدة أسخطت كافوراً على أبي الطيب، وأبعدت أمل الشاعر في كافور.

(ب) آخر المدائح:

وفي شوال سنة ٣٤٩ أنشد أبو الطيب كافوراً آخر مدائحه، بعد أن انقطع عن إنشاده ستة عشر شهراً كما أسلفتُ وبعد أن مدح فاتكاً، وبعد أن أنشأ قصيدة الحمى التي ساءت كافوراً. فلماذا عاد إلى مدحه؟ وماذا قال؟

أما عوده إلى المدح فإجابة لطلب كافور. في نسخة المعرى: «وكان كافور يتطلع إلى مدحه ويقتضيه، ولم يكن له بدّ من مداراته».

وأحسب تطلع كافور إلى مدح أبي الطيب أحيا في نفسه حُشاشة الأمل. فعاد يرمي آخر سهم غير يائس أن يصيب.

***

بدأ الشاعر يذكر شيبه، وأنه يحمده ولا يذمه، ثم قال فاخراً بنفسه غير مطامنٍ منها ولا غافل عنها ساعةً يتوسل فيها بكافور إلى مطالبه:

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه ... ولو أنّ ما في الرأس منه حِراب
لها ظُفُر إن كَلَّ ظفر أعِدّه ... ونابٌ إذا لم يبق في الفم ناب
يغيّر مني الدهر ما شاء غيرَها ... وأبلغ أقصى العمر وهي كَعاب
وإني لنجمٌ تهتدي صحبتي به ... إذا حال من دون النجوم سحاب
غنيٌّ عن الأوطان لا يستخفني ... إلى بلد سافرتُ عنه إياب
وعن ذَمَلان العِيس إن سامحت به ... وإلاّ ففي أكوارهن عُقاب

ومطلع القصيدة:

مُنًى كنّ لي أن البياض خضاب ... فيخفى بتبييض القرون شباب

تحدّث عن نفسه في ثمانية عشر بيتًا ثم مدح كافوراً بتسعة. ثم طالبه بإنجازه ما وعد:

لنا عند هذا الدهر حَقٌّ يَلُطّه ... وقد قلّ إعتاب وطال عتاب
وقد تُحدث الأيام عندك شيمةً ... وتَنعمر الأوقات وهي يَباب
ولا مُلكَ إلاّ أنت والمُلكُ فضلة ... كأنك سيف فيه وهو قِراب

أرى لي بقربي منك عيناً قريرة ... وإن كان قُربًا بالبعاد يشاب
وهل نافعي أن تُرفَع الحُجُب بيننا ... ودون الذي أمَّلت منك حجاب
أُقلّ سلامي حُبَّ ما خف عنكم ... وأسكت كيما لا يكونُ جواب
وفي النفس حاجاتٌ وفيك فطانة ... سكوتي بيان عندها وخطاب
وما أنا بالباغي على الحب رشوةً ... ضعيفُ هَوًى يُبغَى عليه ثواب
وما شئت إلاّ أن أدلّ عواذلي ... على أن رأيي في هواك صواب
وأعلم قومًا خالفوني فشرّقوا ... وغرَّبتُ أني قد ظفرتُ وخابوا

ويمدحه بعد هذه الأبيات بثلاثة أبيات ثم يختم القصيدة بقوله:

وما كنت لولا أنت إلاّ مهاجراً ... له كلَّ يوم بِلدة وصِحاب
ولكنك الدنيا إليَّ حبيبةٌ ... فما عنك لي، إلاّ إليك، ذهاب

بقي أبو الطيب بمصر بعد هذه القصيدة أربعة عشر شهراً لا يمدح كافوراً. وتتفق نسخ الديوان والشروح على أنه ما كان يلقاه إلاّ أن يركب فيسير معه في الطريق لئلا يوحشه.

٤

ما الذي أمّل الشاعر من كافور؟

وكان أبو الطيب ضيف كافور مدة مُقامة في مصر. وكانت هذه الضيافة صلة بينهما بعد انقطاع الشاعر عن مدحه وغشيان حضرته. ودليلنا على هذه الضيافة ما نقلنا أولاً من أن كافوراً أخلى للشاعر داراً. وما نجده في هجاء كافور بعدُ كقول أبي الطيب:

إني نزلت بكذّابين ضيفُهم ... عن القِرى وعن الترحال محدود

جَوعـانُ يأكـل مـن زادي ويُمـسكني لكـي يقـالَ عظـيمُ القَـدر مقـصود

***

لـــو كـــان ذا الآكـــل أزوادنـــا ضـــيفاً لأوســـعناه إحـــسانا
لكننـــا فـــي العـــين أضـــيافهُ يُوسِـــعنا زوراً وبهتانـــا

لو كانت منية أبي الطيب أن ينال مالاً من كافور لبلغ بعض منيته فقد أعطاه كافور وأكثر العطاء أحياناً، ولكن أبا الطيب طمع في ضيعة أو ولاية:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله فـإني أغنّـي منـذ حـين وتـشرب
وهبـتَ علـى مقـدار كفّـي زماننـا ونفـسي علـى مقـدار كفّيـك تطلـب
إذا لـم تَـنُط بـي ضـيعة أو ولايـة فجـودك يكـسوني وشُـغلك يَـسلُب

قال هذا في قصيدة أنشأها بعد أن أرسل إليه كافور ستمائة دينار ذهب كما تقدم.

ومن قَبْلُ قال بعد قدومه مصر بشهر واحد:

فـارم بـي مـا أردت منـي فـإني أسَـدُ القلـب آدمـيّ الـرُّواء
وفـؤادي مـن الملـوك وإن كـا ن لـساني يُـرَى مـن الـشعراء

ثم قال بعد أن وعده الولاية:

فكـن في اصطناعي محسنًا كمجرّب يَـبنْ لـك تقريـبُ الجـواد وشَـدُّه
إذا كنتَ في شك من السيف فابْلُه فإمـا تُنَفّيـه وإمـا تُعـدّه
ومـا الـصارم الهنـدي إلاّ كغيـره إذا لـم يفارقـه النجـاد وغمـده

وقال في القصيدة نفسها:

وما رغبتي في عسجد أستفيده ولكنها في مَفخَر أستجِدّه

وقال في القصيدة النونية التي لم ينشدها أمام كافور، وقد أشرف على اليأس:

هو الوفي ولكني ذكرت له مودة فهو يبلوها ويمتحن

٥

لماذا خيَّب كافور أمله؟

طلب أبو الطيب ولاية أو ضيعة وألحّ في الطلب، ووعده وذاع بين الناس حينًا أنه ولاّه كما تقدم. فلماذا أخلف كافور وعده، وخيَّب أمل صاحبه؟

قال في الصبح المنبي: وسأل أبو الطيب كافوراً أن يوليه صيداء من بلاد الشام أو غيرها من بلاد الصعيد. فقال له كافور: «أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سمت نفسك إلى النبوَّة، فإن أصبت ولاية وصار لك أتباع فمن يطيقك؟».

ولست أصدق أن كافوراً قال للشاعر هذا ولعل هذا كان في نفسه.

ولم يألُ أبو الطيب في فخره، وذِكر همته وآماله البعيدة، مما يراه القارئ بيّنا فيما قدَّمتُ من شعره.

وسبب آخر يذكره مؤرخو أبي الطيب هو ذكر سواده.

في الصبح المنبي، قال الوحيدي:

«كان المتنبي يعلم أن ذكره السواد على مسامع كافور أمرّ من الموت. فإذا ذكر لون السواد بعد ذلك فقد أساء إلى نفسه، وعرّضها للقتل والحرمان. وكان من إحسان الصنعة وإجمال الطلَب ألاَّ يذكر لونه، وله عنه مندوحة».

ولست أشارك في هذا الرأي. فقد ذكر أبو الطيب سواد كافور في القصيدة الأولى، ثم ذكره من بعد. ولم يكن أبو الطيب غبيًّا. فلو أحسَّ كراهة كافور هذا لتجَنّبه. وقد قدَّمت أنه لما أنشده:

إنما التهنئات للأكفاء ... ولمن يدني من البعداء

حلف ليبَلّغنَّه جميع ما في نفسه. وفي هذه القصيدة يذكر السواد، ويقول:

يفضَح الشمس كلما ذرَّت الشمسُ ... بشمسٍ منيرةٍ سوداء
إنما الجسمُ ملبَس وابيضاضُ ... النفس خيرٌ من ابيضاض القَباء

فلو كره كافور ذكر السواد هذه الكراهة ما اهتزَّ للقصيدة هذه الهِزَّة.

وينبغي ألاَّ ننسى أن الشاعر بعد أشهر من إقامته بمصر شرع يشكو إخلاف كافور، فلما طال عليه الأمد أكثر من تذكيره واستنجازه في كلام لا يخلو من توبيخ كقوله:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله ... فإني أغنّي منذُ حين وتشرب

وقوله:

وهـل نـافعي أن تُرفـع الحجـب بيننـا ودون الـذي أمَّلـتُ منـك حجـاب

فهذا وأشباهه زاد في نفور كافور، وأبعد الشاعر من غايته.

وقصيدة شبيب التي أنشدها الشاعر أمام كافور وقصيدة الحمَّى التي بلغت كافوراً على ألسنة الناس، كان لهما وقع سيئ عليه.

وكذلك مدْح فاتك لم يكن ليرضى كافوراً، وإن أذن به. وقد أثبت فيما تقدم أبياتًا في قصيدة فاتك يمكن عدّها تعريضًا بكافور. ولم يقتصر الشاعر على مدح فاتك بل أنس به وركن إليه، وتمكنت بينهما المودة.

وفي نسخة الديوان التي نشرتُها:

«ولما مدح أبو الطيب أبا شجاع فاتكًا شق على الأسود وشقت عليه قصيدة الحمّى».

ولقائل أن يقول: إن الشاعر ما ألحف في مطالبة كافور وخاطبه بما يقارب التوبيخ، ولا قال ما قال في قصيدة شبيب ولا مدح فاتكاً- إلا بعد أن يئس من كافور.

وبالجواب أن أبا الطيب أعربَ عن رجائه في كافور حتى القصيدة الأخيرة. فحشاشة الأمل في نفسه كانت جديرةً أن تمنعه أن يقول ويفعل ما يبعده من آماله.

وما أحسب أبا الطيب كان غبيًّا عن أثر ما يقول ويفعل في نفس كافور، ولكن الرجل كان عظيم النفس، أبيًّا، جريئًا لا يحسب نفسه فيما يقول ولا يبالي كثيراً موقع كلامه من نفوس الممدوحين، ولم يكن إشفاقه من العواقب يملك عليه قوله وفعله، ويخفض من كبريائه.

وبعد فلا ينبغي أن ننسى الوزير ابن الفرات. وقد أغفله أبو الطيب فلم يمدحه. وقد مدحه شعراء آخرون منهم الناشئ مدح كافوراً ووزيره. ولو توسل شاعرنا بالوزير لكان أقرب إلى أمله. وأظنه كبر عليه أن يمدحه، أو لم يجد من حفاوته ما يغريه بمدحه، كما أبى مدح الوزير المهلبي في بغداد.

٦

روايات عن أبي الطيب بمصر

قبل أن أتكلم في رحيل أبي الطيب عن مصر أثبت واقعات حدثت له أيام مقامه بها:

كان أبو بكر الكندي من أدباء مصر وعلمائه في القرن الرابع. برع في الحديث واللغة والنحو والأدب ولُقِّب سيبويه لمكانته في النحو وغريب اللغة. وقد حدث عليّ بن حمزة، قال حدثني أبو الطيب قال: «وسيبويه هذا فصيح خفيف الروح يركب حماراً يدور عليه ويتكلم والناس يكتبون ألفاظه». وقال: «وقف سيبويه المجنون على باب مسجد الجامع بمصر

فقال: ملوك الناس ثلاثة أقرع وأفظع وأزقع. وذكر كلامًا كثيراً. ثم قال: وهذا الذي لهج أهل مصر بشعره، لو قال:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوًّا له ما من مداجاته بدّ

لكان أحسن من «صداقته».

قال عليّ بن حمزة: فاستحسنت أنا وجميع من حضر وقلنا هو أحسن.

فقال أبو الطيب: لم يدر ما أردت. قال: والذي أراد أبو الطيب أحسن»[1].

وهذه القصة تروى في الصبح المنبي [2] على هذه الصورة:

«حدّث محمد بن الحسن الخوارزمي قال: مررت بمحمد بن موسى الملقب بسيبويه وهو يقول مدح الناس المتنبي على قوله:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بدّ

ولو قال ما من مداراته أو مداجاته بدّ لكان أحسن وأجود. قال: واجتاز المتنبي به فوقف عليه وقال: أيها الشيخ أحب أن أراك. فقال له: رعاك الله وحيّاك. فقال له: بلغني أنك أنكرت عليّ قولي: «عدوًّا له ما من صداقته بد»، فما كان الصواب عندك؟ فقال له: الصداقة مشتقة من الصدق في المودة، ولا تسمى الصديق صديقاً وهو كاذب في مودته؛ فالصداقة إذن

(١) نسخة الأوقاف ببغداد.

(٢) ص ٦٣.

ضد العداوة، ولا موقع له في هذا الموضع. ولو قلت ما من مداراته أو مداجاته لأصبت. هذا رجل منا (يريد نفسه) قال:

أتاني في قميص اللاذ يسعى ... عدو لي يلقّب بالحبيب

فقال المتنبي: أمع هذا غيره؟ قال: نعم.

وقد عبث الشراب بوجنتيه ... فصيَّر خده كسنا اللهيب
فقلت له متى استعملت هذا ... لقد أقبلت في زيّ عجيب
فقال الشمس أهدت لي قميصًا ... مليحَ اللون من نسج المغيب
فثوبي والمدام ولون خدي ... قريب من قريب من قريب

فتبسم المتنبي وانصرف، وسيبويه يصيح عليه: أبكم الرجل وجلال الله».

وفي معجم الأدباء [1] أن الخطيب أبا الوليد بن عسّال حجَّ. فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي، واستشرف، ورأى أن لُقيته فائدة يكتسبها، وجملة فخر يحتسبها؛ فصار إليه، فوجده في مسجد عمرو بن العاص ففاوضه قليلاً. ثم قال: ألا أنشدني لمليح الأندلس- يعني ابن عبد ربه- فأنشده:

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقًا ... ورشًا بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيتُ وما سمعتُ بمثله ... درًّا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه ... أبصرتَ وجهك في سَناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة ... ما بال قلبك لا يكون رقيقا

(١) ترجمة ابن عبد ربه.

فلما أكمل إنشاده استعادها منه. ثم صفق بيديه وقال: «يا بن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبواً».

وفي يتيمة الدهر [١] عن ابن جنى قال: وحدثنى المتنبي، قال: حدثني فلان الهاشمي من أهل حرَّان بمصر، قال: أحدثك بطريفة؛ كتبت إلى امرأتي وهي بحرَّان كتابًا تمثلت فيه ببيتك:

بِمَ التعلل لا أهلٌ ولا وطنٌ ولا نديم ولا كأس ولا سَكَنُ

فأجابتني عن الكتاب وقالت: ما أنت والله كما ذكرته في هذا البيت، بَل أنت كما قال الشاعر في هذه القصيدة:

سهرتُ بعد رحيلي وحشةً لكم ثم استمرَّ مريري وارعَوي الوسَنُ

هذا ولا ريب أن ديوان أبي الطيب قرئ عليه بمصر. وسنبين في الكلام على معرفته باللغة أنه أملى بها تصحيحًا لكتاب المقصور والممدود لابن ولاّد.

(١) ترجمة أبي الطيب.

الفصل الثاني عشر

الرحيل من مصر

١

هل منع كافور أبا الطيب أن يرحل عن مصر؟

أقام شاعرنا في مصر أربع سنين وستة أشهر كما قدمنا. وقد بينا أنه قد بدأ يشكو مطال كافور بعد ثلاثة أشهر من قدومه عليه، وأنه لم يُنشئ في مدحه ما بين شوال سنة ٣٤٧ وسفره من مصر- وهي ثمانية وثلاثون شهراً- إلاّ قصيدتين؛ قصيدة شبيب العقيلي والقصيدة الآخرة، وأنه بعد القصيدة الخاتمة بقي أربعة عشر شهراً لا يمدح الرجل ولا يلقاه. وقد ذكر الرحيل في شعره مراراً. فما الذي أمسكه في مصر هذه المدة؟ أكان الرحيل محظوراً عليه؟

يقول في قصيدة الحمى:

أقمتُ بأرض مصر فلا ورائي ... تخِبّ بي الركاب ولا أمامي
وملتنيَ الفراش وكان جَنبي ... يَمَلّ لقاءه في كل عام

ويقول:

ألا يا ليت شعر يدي أتُمسى ... تَصَرف في عِنان أو زِمام
وهل أرمي هوايَ براقصاتٍ ... مُحَلاّة المقاودِ باللغام
فربتما شفيتُ غليل صدري ... بسير أو قناة أو حسام
وضاقت خُطّة فخلَصت منها ... خلاص الخمر من نسج الفِدام

وفارقتُ الحبيب بلا وَداع ... وودّعت البلاد بلا سلام
يقول لي الطبيب: أكلتَ شيئاً ... وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبّه أنّي جَواد ... أضرَّ بجسمه طول الجِمام
تعوّد أن يُغَبّر في السّرايا ... ويدخل من قَتام في قَتام
فأمسِك لا يُطال له فيَرعى ... ولا هو في العليق ولا اللجام

فانظر كيف يتمنى الرحيل، ويرى فيه شفاءه، فكيف أقام سنة بعد هذه القصيدة؟

ومن قوله في القصيدة التي هجا بها كافوراً عند رحيله من مصر:

إني نزلت بكذابين ضيفهم ... عن القرى وعن التَّرحال محدود

وقوله:

جوعان يأكل من زادي ويُمسكني ... لكي يقال عظيمُ القدر مقصود

وقوله:

لو كان ذا الأكل أزوادنا ... ضيفًا لأوسعناه أحسانا
لكننا في العين أضيافه ... يوسِعنا زوراً ويُهتانا
فليته خلّي لنا طُرْقنا ... أعانه الله وإيانا

وهذا يُشعر أن كافوراً كان يمنعه المسير.

وفي الديوان ما هو أبين من هذا. في شرح المعري ونسخ من الديوان أن الشاعر كتب إلى كافور يستأذنه في المسير إلى الرملة ليتنجز مالاً بها،

وأراد أن يعرف رأيه في مسيره، فأجابه: لا والله، أطال الله بقاءك. لا نكلّفك المسير ولكن نُنفذ رسولا يأتيك به. فلما قرأ الجواب قال:

أتحلِف لا تُكلّفني مسيراً ... إلى بلد أُحاول فيه مالا
وأنتَ مكلِّفي أنبي مكانًا ... وأبعدَ شُقة وأشدّ حالا
إذا سرنا عن الفسطاط يومًا ... فلقّني الفوارس والرجالا
لتعلم قدر من فارقت منّي ... وأنك رمت من ضَيمي مُحالا

وسنرى في رحيل أبي الطيب إلى الكوفة أنه رحيل هارب لا رحيل مودَّع مشيَّع.

فلماذا منع كافور أبا الطيب الرحيل؟ أنزل كافورٌ الشاعر الأبيّ داراً، وأعطاه أكثر مما يعطى الشعراء، وحسب أن هذا يكفيه وأنه يكون عنده كما كان عند سيف الدولة. فلما طالبه بولاية أوضَيعة وعده. ثم خافه حين رأي عُلوَّ نفسه، وبعد أمانيه، ولِما سمع عن حبسه في صباه، وأنه ادّعى النبوة، وأسباب أخرى سنذكرها عند الكلام على هجاء كافور.

فلما ألحّ أبو الطيب في اقتضاء كافور ما وعده، وأشفق كافور أن يُنيله بقى الشاعر بين يأس قريب ورجاء بعيد. وتَلَدَّد كافور لا يدري ما يفعل: أيولّى هذا الرجل الطمّاح ولاية؟ أم يعطيه ضيعة؟ أم يرضيه بعطاء جزيل ليس هو أهلاً له؟ أم يتركه يذهب حيث شاء فيعرض نفسه للهجاء، ويحرم مدائح الشاعر الذائع الصيت التي تطير بذكره في الآفاق؟ فمنّى نفسه أن يبقى أبو الطيب بجانبه قانعًا بما يُدرّه عليه بين الحين والحين مُشيداً بذكره.

جوعان يأكل من زادي ويمسكني ... لكي يقال عظيم القدر مقصود

٢

من الفسطاط إلى الكوفة

أقام أبو الطيب في مصر أربعة عشر شهراً لا يمدح كافوراً ولا يلقاه إلاّ أن يركب فيسير معه لئلا يوحشه.

وكان يتعزّى بأبي شجاع فاتك والحديث معه. فلما توفى فاتك عزم على الرحيل، وكانت وفاته ليلة الأحد وقت العشاء الآخرة لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمسين وثلاثمائة [١] فقد لبث أبو الطيب بعد فاتك شهرين يدبر لرحيله. «وقد أعدّ كل ما يحتاج إليه على مر الأيام في لطف ورفق ولا يعلم به أحد من غلمانه. وهو يظهر الرغبة في المُقام. وطال عليهم التحفظ. فخرج ودفن الرماح في الرمل، وحمل الماء على الإبل في الليل من النيل عُدّة لعشر ليال وتزود لعشرين»[٢].

وكان كافور يتحسس أخباره حتى قيل إن جيرانه كانوا يراعونه، وإن جماعة كانوا يرقبون داره يتعرفون من يدخل إليه، وإن صاحب الخبر كان يَفِد إلى بابه كل يوم[٣].

وفي ليلة عيد الأضحى أنشأ قصيدته الباكية الساخطة التي أولها:

عيدٌ بأية حال عدتَ يا عيد؟ بما مضى أم لأمرٍ فيه تجديد

(١) المعري، والواحدي ونسختي من الديوان.

(٢) المعري، ونسخة أوقاف بغداد.

(٣) ما سبق ذكره.

أمـــا الأحبّـــة فالبيـــداء دونَهـــمُ ... فليـــتَ دونـــك بيـــداً دونهـــا بِيـــد
لولا العلي لمَ تجُب بي ما أجوب بها ... وجنـــاءُ حَـــرْفٌ ولا جَـــرداء قَيـــدود
وكـــان أطيـــبَ مـــن سـيفي معانقـــةً ... أشـــباهُ رونقـــه الغيـــدُ الأماليـــد
لـم يتـرك الدهر مـن قلبي ولا كبدي ... شـــيئًا تتيّمـــه عـــين ولا جيـــد
يـــا ســـاقيّ أخمـــر فـــي كئوســـكما ... أم فـــي كئوســـكما هـــمّ وتـــسهيد
أصـــخرةٌ أنـــا؟ مـــالي لا تحركنـــي ... هـــذي القيـــان ولا تلـــك الأغاريـــد
إذا أردتُ كميـــتَ اللـــون صـــافية ... وجـــدتُها وحبيـــب الـــنفس مفقـــود

ويقول في هجاء كافور:

جَوعـــان يأكـــل مـــن زادي وُيمـــسكني ... لكـــي يقـــال عظـــيمُ القـــدر مقـــصود
ويلمّهـــا خطـــةً ويلُـــمّ قابلهـــا ... لمثلهـــا خُلِـــقَ المَهريّـــة القُـــود
وعنـــدها لـــذّ طعـــمَ المـــوت شـــاربُه ... إن المنيـــة عنـــد الـــذل قِنديـــد

قال في الإيضاح:

«وكان رسم السلطان أن يستقبل العيد بيوم تعدّ فيه الخلع والحُملانات وأنواع المبارّ لرابطة جنده، ورتبة جيشه، وصبيحة العيد تفرق. وثاني اليوم يُذكَر له من قبل ومن ردّ واستزاد. فاهتبل المتنبي غَفلة كافور، ودفَنَ رماحه وسار ليلته»[1].

وكتب أبو الطيب إلى عبد العزيز بن يوسف الخزاعي في بلبيس يطلب منه دليلاً. وتنفق الروايات على أنه كتب إليه هذه الأبيات:

جـزى عَربـاً أمـستْ ببلبـيس ربُّهـا ... بمـــسعاتها تقـــرر بـــذاك عيونُهـــا

(١) الخزانة ج ١ ص ٣٨٥.

كراكرَ من قيس بن عيلان ساهراً جفونُ ظباها للعلي وجفونها
وخَصّ به عبدَ العزيز بنَ يوسف فما هو إلاّ غيثها ومَعينها
فتًى زانَ في عينيَ أقصى قبيلةٍ وكم سَيّد في حُلّة لا يزينها

ولا ريب أن أبا الطيب كان يعرف عبد العزيز من قبل ويركن إليه، ولولا معرفته إياه ووثوقه به ما كتب إليه ولا مرّ به. وبرهان هذا أن في النسخة (١٥٣٠) وله في عبد العزيز الخزاعي قبل رحيله من مصر:

لئن مرّ بالفُسطاط عيشي لقد حلا بعبد العزيز الماجدِ الطرَفين
فتًى زان قيسًا بل معدًّا جميعها وما كلّ سادات الشعوب بزَين
تناول وُدّي من بعيد فناله جَرى سابقًا في الوُد ليس برَين

فانظر قوله لئن مرّ بالفسطاط وقوله: «تناول وُدّي من بعيد فناله» ترى أن المودة بدأت بين الرجلين، وأبو الطيب في الفسطاط. وأحسب الشاعر قد كتب إليه يؤذنه بسيره، ويسأله دليلاً، ثم مرّ به.

وقد نزل عنده حين مرّ ببلبيس فأضافه وأكرمه وسيّره [1].

وفي شرح المعري ونسخ من الديوان:

«وأخفى طريقه حتى قال بعض أهل البادية: هَبْه سار فهل محا أثَره؟ وقال بعض المصريين: إنما أقام حتى عمل طريقًا تحت الأرض. وتبعته البادية والحاضرة ومن وثقوا به من الجُند. وكتبوا إلى عُمّالهم بالحَوفَين والجفار وغَزة والشام وجميع البوادي».

(١) النسخة ١٥٣٠.

وأحسب خروج أبي الطيب خُفية أثار أحاديث الناس، وخلق طائفة من القِصَص التي تحركها العامة حول الحادثات الخفية العجيبة وليس عجيباً أن يتْبعه كافور جماعة، ويكتب إلى عمّاله. فما كان ليرضى خروج شاعره على هذه الشاكلة غير مادح ولا مستأذن، خروجًا يفتح عليه بابًا من الهجاء والتشهير. وأحسب القصيدة التي أنشأها أبو الطيب ليلة العيد بلغت كافوراً بعد قليل فثارت ثائرته. وتحفّظ أبي الطيب في مسيره دليلٌ على أنه كان يتوجس شرًّا من كافور أن يُتبعه جنداً أو يكتب إلى من يقطع عليه الطريق.

وتتبعُ أبي الطيب في سفره وتعرّفُ ما عَرض له في طريقه- يشوق كل متأدب معجَب بهذا الشاعر الشجاع. وأنا أثبت هنا القصة بعد أن قابلت منها روايتين محرّفتين في شرح المعري ونسخة بغداد، ونتفًا في شرح ابن جنى، فصصحتها على قدر الطاقة.

ثم اهتديت- بعد الطبعة الأولى- إلى نسخة من الديوان قديمة صحيحة جعلتها أصلاً لطبعة الديوان التي أخرجتها على ذكرى الشاعر بعد ألف سنة من وفاته. وفي هذه النسخة مقدمات للقصائد وتفصيل للحوادث لا يجدها الباحث في نسخة أخرى.

وهي توافق في قصة سفر أبي الطيب من مصر إلى العراق ما في شرح المعري إلا قليلاً.

وإليك هذه القصة العجيبة كما جاءت في هذه النسخة:

«وكانت للأسود عليه عيون. وكان جميع جيرانه يراعونه حتى كان قوم يسهرون حذاء منزله يتفقدونه ويتعرفون من يدخل إليه ويخرج من عنده. ويفد كل يوم صاحب الخبر إلى بابه، حتى يقف على حاله. وهو يعلم بذلك فلا يظهر لهم.

وكان يتسلّى بفاتك والحديث معه. وتوفى فاتك فعمل أبو الطيب على الرحيل. وقد أعد كل ما يحتاج إليه على مرّ الأيام في رفق ولطف لا يعلم به أحد من غلمانه، وهو يظهر الرغبة في المقام. وطال عليهم التحفظ فخرج فدفن الرماح في الرمل، وحمل الماء على الإبل في الليل من النيل عُدَّة لعشر ليال، وتزود لعشرين.

وكتب إلى عبد العزيز بن يوسف الخزاعي «الأبيات التي قدَّمتُها» وأخفي طريقه فلم يأخذوا له أثراً حتى قال بعض أهل البادية: هبه سار فهل محا أثره؟ وقال بعض المصريين: إنما أقام حتى عمل طريقًا تحت الأرض.

وتبعته البادية والحاضرة ومن وثقوا به من الجند، وكتبوا إلى عمالهم بالحَوفَين والفجار وغزة والشام وجميع البوادي.

«وعبر أبو الطيب بموضع يعرف بنجة الطير [1] إلى الرثنة حتى خرج إلى ماء يعرف بنخل في التيه بعد أيام وتسميه العامة بحراً، فلقي عنده في الليل ركباً وخيلاً صادرة عنه فقاتلوه فأخذهم. وتركهم وسار حتى قرب

(١) معجم البلدان: نجة الطير موضع بمصر وأرض التيه له ذكر في خبر المتنبي.

من النِّقاب فرأى رائدين لبنى سُليم على قلوصين. فركب وطردهما حتى أخذهما فذكرا له أن أهلهما أرسلوهما رائدين ووعداه النزول ذلك اليوم بين يديه. فاستبقاهما ورد عليهما القلوصين وسلاحهما. وسار وهما معه حتى توسط بيوت بني سليم آخر الليل. فضرب له ملاعب بن أبي النجم خيمة بيضاء وذبح له وغدا فسار إلى النقع فنزل ببادية من معن وسُنْبُس. فذبح له عفيف المعنّى غنمًا وأكرمه، وغدا من عنده وبين يديه لِصّان من جُذام يدلاّنه في الطريق. فصعد في النقب المعروف بتِربان، وفيه ماء يعرف بغَرَندل فسار يومه وبعض ليلته ونزل وأصبح فدخل حِسْمى.

وحِسمَى هذه أرض طيبة. تؤدى أثر النخلة من لينها. وتنبت سائر النبات مملوءة جبالاً في كبد السماء مُتناوحة مُلس الجوانب، إذا نظر الناظر إلى قُلَّة أحدها فَتَل عنقه حتى يراها بشدة، ومنها ما لا يقدر أحد أن يصعده. ولا يكاد القَتام يفارقها. وذلك معنى قول النابغة:

فأصبح عاقلاً بجبال حِسمَى ... دُقاقَ التُّرب مُحتزِم القَتام

وقد اختلف الناس في تفسير هذا البيت ولم يعلموا ما أراد. وتكون مسيرة ثلاثة أيام في يومين يعرفها من رآها من حيث رآها؛ لأنها لا مثيل لها في الدنيا. ومن جبالها جبل يُعرف بأرَم عظيم العلوّ تزعم البادية أن عليه كروماً وصَنَوْبراً.

فوجد بني فزارة بها شاتين فنزل بقوم من عَديّ فزارة فيهم أولاد لاحق بن مخلب[1].

وكان مخلب هذا خرج يطلب ناقة له فقدها. وكانت فزارة قد أخذت غزيًا غزاها فكانت الأسرى في القِدّ بين البيوت فسمعه بعض الأسرى يَنشُد الناقة. فقال هي بموضع كذا وكذا وجدناها أمس فشربنا لبنها وتركناها لنعود فنأخذها؛ فنادي مخلب على شهادتهم يا معشر العرب. ثم عاد فلبس سلاحه وركب فرسه وقال: الغزي ضيوفي. فخلَّصهم من القَدّ بعد اختلاف الناس وخوف الشر. فردّ عليهم كل شيء أخذ لهم، وقَراهم وسيَّرهم وقال:

إن تك ناقتي مَنعت غَزيًّا — تجر صِرارها ترعى الرحابا
فأيّ فتى أحقّ بذاك مني — وأجدر في العشيرة أن يُهابا

وكان بينه وبين أمير بني فزارة حسان بن حكمة مودة وصداقة، فنزل بجار للقوم ليورّى عنهم فلا يُعلم بما بينه وبينهم، واسم الجار ورَدان بن ربيعة من طيّ ثم من معن ثم من بني شبيب. فاستغوى عَبيده وأفسدهم عليه وأجلسهم مع امرأته. فكانوا يسرقون له الشيء بعد الشيء من رَحله.

وطابت جِسمى لأبي الطيب فأقام بها شهراً. وكتب الأسود إلى من حوله من العرب ووعدهم. وظهر لأبي الطيب فساد عبيده. وكان الطائي يرى عند أبي الطيب سيفاً مستوراً فيسأله أن يريه إياه فلا يفعل. لأنه كان

(١) في شرح المعري: مجلب.

على قائمه ونعله ذهب من مائة مثقال. وكان السيف لا ثمن له. فجعل الطائي يحتال على العبيد بامرأته طمعاً في السيف، لأن بعضهم أعطاه خبره.

فلما أنكر أبو الطيب أمر العبيد، ووقف على مكاتبة الأسود لكل العرب التي حوله في أمره- أنفذ رسولاً إلى فتى من بني فزارة ثم من بني مازن ثم ولد هَرِم بن قطبة بن سَيَّار يقال له فليتة بن محمد. وفيهم يقول بعض البادية:

إذا ما كنتَ مغتربًا فجاور بني هَرِم بن قُطبة أو دِثارا
إذا جاورتَ أدنى مازنيّ فقد ألزمت أقصاها الجوارا

وكان قد وافقه قبل ذلك على المراسلة. فسار إليه، وترك أبو الطيب عبيده نيامًا وتقدم إلى الجمال فشد على الإبل وحمل خوفًا أن يحتبس [1] عنه بعض عبيده، فلم يعلموا حتى أنبههم وطرحهم على الإبل، وجنَّب الخيل وسار تحت الليل والقومُ لا يعلمون برحيله. ولا يشكون أنه يريد البياض. فأخذ طريق البياض فلما صار نرأس الصوَّان أنفذ فليتة بن محمد إلى عرب بين يديه وتوقف.

وأخذ أحد العبيد في الليل السيف فدفعه إلى عبد آخر ودفع إليه فرسه، وجاء ليأخذ فرس مولاه، وانتبه أبو الطيب. وقال الغلام: أخذ العبد فرسي. يغالط بهذا الكلام. وعدا نحو الفرس ليقعد في ظهره. فالتقى هو

---

(١) في شرح المعري: يختلس.

وأبو الطيب عند الحصان. وسلّ العبد السيف فضَرب رسَنه. فضرب أبو الطيب وجه العبد فقسمه (فخرّ على رتمة)[1] وأمر الغلمان فقطعوه. وانتظروا الصباح. وكان هذا العبدُ أشد من معه وأفرسهم (قال الرتَم شجر له أغصان مُلس دقاق سِباط والواحدة رتمة)[2].

فلما أصبح أتبع العبدَ عليّ الخفاجيّ وعلوان المازنيّ، وأخذا أثره فأدركاه عصراً وقد قصَّر الفرس الذي تحته. فسألهما عن مولاه فقالا جاءك من ثمَّ؛ وأشارا إلى موضع. فدنا منهما كالعائذ وهو يتبصر. فقالا له تقدم. فقال ما أراه، فإن رأيته جئتكما، وإن لم أره فما لكما عندي إلا السيف. فامتنع منهما. وعادا في غد ووافق عودة فليتة، فقال فليتة لقد كان فيما جرى خِيرة، لأن الوقت الذي اشتغلتم بقتله فيه، كانت سُرَب الخيل عابرة مع ذلك العلم. ولو كنتم زلتم عن موضعكم لحدث بعضكم بعضًا، فقال أبو الطيب ارتجالا:

إن تك طيئ كانت لئامًا فألأمها ربيعةُ أو بنوه
وإن تك طيء كانت كرامًا فوَردان لغيرهم أبوه
مَررنا منه في حِسمَى بعبد يمُجّ اللؤمَ مِنخرُه وفوه
أشذّ بعرسه عنّي عبيدي فأتلفهم، ومالي أتلفوه
فإن شقيتْ بأيديهم جيادي لقد شَقيتْ بمُنصلي الوجوه

وقال فيه:

(١) الزيادة من شرح المعري.
(٢) ما بين القوسين من شرح المعري.

لحي الله وردانًا وأما أتت به ... له كسب خنزير وخرطوم ثعلب
فما كان منه الغدرُ إلا دلالة ... على أنه فيه من الأمّ بالأب
إذا كسب الإنسانُ من هَن عرسه ... فيا لؤم إنسان ويا لؤم مكسب
أهذا اللّذَيّا بنتُ وردان بنتُه ... هما الطالبان الرزق من شرّ مطلب [١]
لقد كنت أنفي الغدر عن توس طيّئٍ [٢] ... فلا تعذلاني رُبّ صدق مكذّب

وقال أيضا (في العبد الذي قتله):

أعددت للغادرين أسيافًا ... أجدع منهم بهنّ آنافًا
لا يرحم الله أرؤسا لهم ... أطرنَ عن هامهنّ أقحافا
ما ينقم السيف غير قلّتهم ... وأن تكون المئون آلافا
يا شرَّ لحم فجعته بدم ... وزار للخامعات أجوافا [٣]
قد كنتَ أغنيتَ عن سؤالك بي ... من زجر الطير لي ومن عافا [٤]
وعدتُ ذا النصل من تعرّضه ... وخفتُ لما اعترضتَ إخلافا
لا يذكر الخير إن ذُكرت ولا ... تُتبِعُك المقلتان توكافا [٥]
إذا امرؤ راعني بغدرته ... أوردته الغاية التي خافا

وسار أبو الطيب حتى نظر إلى آثار الخيل. ولم يجد مع فليتة خبراً عن العرب التي طلبها. فقال له أخرق: بنا على بركة الله إلى دُومة الجندل،

(١) بنت وردان: دويبة كالخنفساء حمراء تألف القاذورات.
(٢) التوس: الأصل.
(٣) الخامعات: الضباع.
(٤) في شرح الواحد أن العبد الذي قتل كان سأل عائفاً عن حال المتنبي فذكر له من حاله ما زين له الغدر به.
(٥) وكف المطر: قطر.

وذلك أنه أشفق أن تكون عليه عيون بجِسْمي قد علمت أنه يريد البياض فسار حتى انحدر إلى الكفاف فورد البُوَيرة بعد ثلاث ليال. وأدركتهُم لصوص أخذت آثارهم وهم عليها فلم يطمعوا فيهم. وسار معهم حمصى بن القلاّب.

فلما توسط بُسيطة (وهي أرض تقرب من الكوفة) رأى بعض عبيده ثوراً يلوح فقال: هذه منارة الجامع. ونظر آخر إلى نعامة في جانبها الآخر، فقال: وهذه نخلة. فضحك أبو الطيب وضحكت البادية فقال:

بُسيطة مهلا سقيت القِطارا ... تركتِ عيونَ عَبيدي حَيارى
فظنّوا النَّعام عليك النخيل ... وظَنّوا الصُّوار عليك المنارا
فأمسك صَحبي بأكوارهم ... وقد قَصد الضِّحك فيهم وجارا

وورد العُقدة بعد ليال وسقى بالجراويّ؛ واجتاز ببني جعفر بن كلاب. وهم بالبِرّيت والأوضاع فبات فيهم؛ وسار إلى أعكُش حتى ورد الرُهَيمة. ودخل الكوفة فقال في شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة:

ألا كل ماشية الخيزلى ... فدى كل ماشية الهيدبى

***

لم يسلك أبو الطيب طريقًا معهودة بين مصر والعراق. تجنب طريق الشام إذ كانت في سلطان كافور فما سلك طريق دمشق إلى الكوفة ولا طريق الفرات. ولم يسلك طريق الحاج المصري إلى الحجاز ولا طريق الحاج العراقي من المدينة إلى الكوفة، فهذه المواضع التي ذكرت في الرواية المتقدمة والمواضع التي ذكرها أبو الطيب في قصيدته ليست من

منازل الطرق المعروفة في كتب المسالك. فقد سار- كما قال صاحب الإيضاح: «على الحلل والأحياء والمفاوز المجاهيل والمناهل الأواجن»[١] ومن أجل هذا كان أبو جعفر وزير عضد الدولة يختلف إليه في شيراز ليحفظ المناهل والمنازل من مصر إلى الكوفة [٢].

وحقٌّ أن مسير أبي الطيب من الفسطاط إلى الكوفة على هذه الشاكلة تصديقُ ما ادّعى في شعره من الجرأة والدُّربة على الأسفار بالليل والنهار، والخبرة بالبوادي، والمعرفة بقبائل العرب وسادتها، والدهاء والحزم. وقد صدق حين قال:

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تَعرفني والضربُ والطَّعن والقِرطاس والقلم

٣

بلوغه الكوفة

بلغ أبو الطيب الكوفة في شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة بعد ثلاثة أشهر من خروجه من الفسطاط. فأنشأ قصيدة يعدّد فيها المواضع التي مرّ بها في مسيره، وقد عدّ واحداً وعشرين موضعًا، ويفخر بما فعل ويهجو كافوراً. وأول القصيدة:

ألا كلّ ماشية الخَيْزَلي فدى كلّ ماشية الهيدبي
وكل نَجاة بَجاوِيَة خَنوفٍ وما بي حسن المِشي
ولكنهن حبال الحياة وكيدُ العُداة ومَيط الأذى

(١) الخزانة ص ٣٨٥.

(٢) الخزانة ص ٣٨٨.

ضربت بها التيه ضرب القمار ... إمّا لهذا وإمّا لذا
إذا فزعتْ قدّمتْها الجياد ... وبيضُ السيوف وسُمر القنا
فمرّت بنخل وفي ركبها ... عن العالمين وعنه غنى

وذكر مواضع مرّ بها إلى أن قال:

فلما أنخنا ركزنا الرماح ... بين مكارمنا والعُلى
ويتنا نقبّل أسيافنا ... ونمسحها من دماء العدى
ويتنل نقبّل أسيافنا ... ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصرُ ومن بالعراق ... ومن بالعواصم أني الفتى
وأني وفيت وأني أبيت ... وأني عتوت على من عتا
وما كل من قال قولا وَفى ... ولا كلّ من سيم خسفاً أبي
ومن يك قلبٌ كقلبي له ... يشقّ إلى العِز قلبَ التّوى
ولا بدّ للقلب من آلة ... ورأى يُصدّع صُمّ الصَّفا
وكلّ طريق أتاه الفتى ... على قدَر الرِّجل فيه الخُطى

ثم أخذ يهجو كافوراً ووزيره، ويصف حاله في مدحه:

ونام الخويدم عن ليلنا ... وقد نام قبلُ عمّى لا كرَى
وكان على قربنا بيننا ... مهامه من جهله والغَبَى
وماذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكى
بها نبطيّ من أهل السواد ... يدرّس أنساب أهل الفلا
وأسود مِشفَره نصفه ... يقال له أنت بدر الدجى
وشعرٍ مدحتُ به الكركدنَّ ... بين القريض وبين الرُّقى
فما كان ذلك مدحًا له ... ولكنه كان هجو الورى

هكذا رجع الشاعر الهمام إلى بلده بعد أن غاب عنها نحو ثلاثين سنة.

الفصل الثالث عشر

رثاء فاتك وهجاء كافور

خرج أبو الطيب من مصر ناقمًا على كافور الذي وعده ومطله ثم أخلفه، باكيًا على صديقه أبي شجاع فاتك الذي أعطاه بغير وعد وتودد إليه فأنس به ورجا أن يجد فيه صديقًا معوانًا في النائبات. أخرجه من مصر خيبة أمله في كافور ومصيبته في أبي شجاع. فانفطر قلب الشاعر مقسماً بين نقمة يصبّها على عدوه وحُرقة يُضرمها الحزن والحسرة على صديقه. وهو بين النقمة والحزن يرى الزمان وأهله فيأتي بالحكمة الثائرة الساخطة حينًا والحكمة الوادعة حينًا. وقد أبان في هجاء كافور عن قلب حقود لا يغفر الذنب ولا يعفو عن الإساءة كما أبان في رثاء فاتك عن قلب وفيّ لا ينسى المودة ولا يكفر النعمة.

١

فأما رثاء فاتك ففي ثلاث قصائد:

الأولى العينية التي أنشأها حين وفاة أبي شجاع وتوفى ليلة الأحد عشاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمسين وثلاثمائة، وأنشدها بعد رحيله عن الفسطاط[1]. وقد رحل عنها بعد شهرين من وفاة فاتك. وأولها:

---

(١) نسختي من الديوان.

الحـــزن يقلـــق والتجمـــل يَـــردع ... والـــدمعُ بينهمـــا عَـــصِيّ طَيِّـــع
يتنازعـــان دمـــوعَ عـــين مـــسهّد ... هـــذا يجـــيء بهـــا وهـــذا يرجـــع
النـــومُ بعـــد أبـــي شـــجاع نـــافر ... والليـــل مُعـــيِ والكواكـــبُ ظُلَّـــع
إنـــي لأجـــبُن مـــن فـــراق أحبتـــي ... وتحـــسّ نفـــس بالحِمـــام فأشـــجُع
ويزيـــدني غـــضب الأعـــادي قـــسوة ... ويُلِـــمّ بـــي عَتـــب الـــصديق فـــأجزع

وفي البيتين الأخيرين وصف صادق لنفسه فقد كان في هذه القصيدة نفسها قاسيًا على عدوه كافور، رقيقًا يذوب حسرات على صديقه فاتك.

وانظر كيف يجتمع الغضب والحزن في قوله:

قبحًـــا لوجهـــك يـــا زمـــان فإنـــه ... وجـــه لـــه مـــن كـــل لـــؤم برقـــع
أيمـــوت مثـــل أبـــي شـــجاع فاتـــك ... ويعـــيش حاســـده الخَـــصِيّ الأوكـــع
أبقيـــت أكـــذب كـــاذب أبقيتَـــه ... وأخـــذتَ أصـــدقَ مـــن يقـــول ويـــسمع
وتركـــت أنـــتن ريحـــة مذمومـــة ... وأخـــذت أطيـــب ريحـــة تتـــضوع

ثم يقول في رثاء فاتك وهو يفكر في كافور وأشباهه:

المجـــد أخـــسرُ والمكـــارمُ صـــفقةٌ ... مـــن أن يعـــيش لهـــا الكـــريم الأروَع
والنـــاسُ أنـــزَلُ فـــي زمانـــك منـــزِلا ... مـــن أن تعايـــشهم وقـــدرك أرفـــع

والقصيدة الثانية نظمها في الكوفة وقد أخرج تفاحة من الند عليها اسم فاتك فقال:

يـــذكّرني فاتكـــا حلمُـــه ... وشـــيء مـــن النـــد فيـــه اســـمه
ولـــستُ بنـــاسٍ ولكننـــي ... يُجـــدّد لـــي ذكـــرَه شـــمّه
وأيّ فتـــى ســـلبتني المَنـــون ... لـــم تـــدرِ مـــا ولـــدتْ أمّـــه
ولا مـــا تـــضمّ إلـــى صـــدرها ... ولـــو عَلمـــتْ هالهـــا ضـــمُّه

بمصرَ ملوك لهم ما له ... ولكنهم ما لهم هَمّه
فأجودُ من جودهم بُخله ... وأحمد من حَمدِهم ذمّه
وأشرف من عَيشهم موتُه ... وأنفع من وُجدهم عدمه
وإنّ منيّته عنده ... لكالخمر سُقّيه كرمه
فذاك الذي عَبّه ماؤه ... وذاك الذي ذاقه طعمه
ومن ضاقت الأرض عن نفسه ... حَرَى أن يضيق بها جسمه

وهذه ذكرى تنطق بالحسرة على صديقه والوفاء له، تأمل قوله: ولست بناس ... الخ. وقوله: وأى فتى سلبتني المنون ... الخ، لترى الحزن الصادق والوفاء الخالص.

ويرثى فاتكاً مرة أخرى بعد خروجه من بغداد في شعبان سنة اثنتين وخمسين. ورثاء الشاعر بالعراق صديقًا له مات في مصر قبل سنتين، وقد أدى حق رثائه من قبل، برهانٌ على إعجاب أبي الطيب بأبي شجاع واعترافه بفضله وعلى ما كان بين الرجلين من مودة محكمة وما كان في خلق أبي الطيب من وفاء. يقول في أول المرثية يذكر أسفاره:

حتّامَ نحن نُسارى النجم في الظُّلَم ... وما سُراه على خُفّ ولا قَدم
ولا يُحسّ بأجفان يحسّ بها ... فقدَ الرقاد غريبٌ بات لم ينم
تُسوّد الشمس منا بيضَ أوجهنا ... ولا تسوّد بيضَ العُذْر واللِّمَم
وكان حالُهما في الحكم واحدة ... لو احتكمنا من الدنيا إلى حكم

ويصف سيره عن مصر ثم يصف غلمانه الذين صحبوه في أسفاره:

في غلمةٍ أخطروا أرواحهم ورضُوا ... بما رضيت رضى الأيسار بالزلَم
تبدو لنا كلما ألقوا عمائمهم ... عمائمٌ خُلقت سوداً بلا لُثُم

بيض العوارض طعانون مَن لَحقوا ... من الفوارس شَلاّلون للنَّعَم
قد بَلّغوا بقناهم فوق طاقته ... وليس يَبلغ ما فيهم من الهمم
في الجاهلية إلا أنّ أنفسهم ... من طيبهنَّ به في الأشهر الحرم
ناشوا الرماح وكانت غيرَ ناطقة ... فعلّموها صياح الطير في البُهَم

ثم يدخل إلى رثاء فاتك بقوله:

تَخدى الركابُ بنا بيضًا مشافرها ... خُضراً فَراسنُها في الرُّغل واليَنَم [1]
مَكعومةً بسياط القوم نضربها ... عن مَنبِت العشب نَبغي منبِت الكرم
وأين منبتُه من بعد منبته ... أبي شجاع قريع العُرب والعجم
لا فاتك آخر في مصر نقصده ... ولا له خَلَف في الناس كلهم
من لا تشابهه الأحياء في همم ... أمسي تشابهه الأموات في الرِّمَمِ
عدمتُه وكأني سرتُ أطلبه ... فما تزيدني الدنيا على العَدَم

ثم يقول إنه سيترك القلم إلى السيف، وهذا أول كلام عن التوسل بالسيف إلى آماله منذ اتصل بسيف الدولة:

ما زِلت أُضْحِك إبْلى كلما نظرت ... إلى مَن اختضبت أخفافها بدم؟
أُسيرها بين أصنام أشاهدها ... ولا أشاهد فيها عفّة الصنم
حتى رجعتُ وأقلامي قوائلُ لي ... المجدُ للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به ... فإنما نحنُ للأسياف كالخدم
أسمعتِني ودوائي ما أشرتِ به ... فإن عصيتُ فدائي قلة الفَهَم
من اقتضى بسوى الهنديّ حاجتَه ... أجابَ كلَّ سؤال عن هلِ بلم

(١) الرغل نبات أخضر صغير ينبسط على الأرض. رأيته في بحيرة العاقول على مقربة من المدينة المنورة فسألت جغديا كان معي من أهل المدينة فقال: هذا الرغل.

وينعى الوفاء في الناس وكأنه يعني كافوراً:

غاض الوفاء فما تلقاه في عدة ... وأعوز الصدق في الإخبار والقسم
سبحان خالقِ نفسي كيف لذتُها ... فيما النفوسُ تراه غاية الألم

ويختم القصيدة بقوله:

وقتٌ يضيع وعمر ليتَ مدّته ... في غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمانَ بنوه في شبيبته ... فسرّهم وأتيناه على الهَرَم

وفي هذه القصيدة أثر للخيبة وسوء اللقاء اللذين مُنى بهما في بغداد، إلى خيبته التي مُنى بها في مصر.

٢

هجاء كافور

(أ)

جاش أبو الطيب علي أبي المسك لعناتٍ تموج بها أبحر الشعر، وقذف عليه حُمَمًا يهدم بها ما شاد في مدحه من بيوت. فلماذا هذا الهجاء؟

إن مَدح الشعراء يُبغى ثوابه فلا ينبغي أن نلمس له أسبابًا أخرى، ولكن الهجاء لا ثواب عليه بل يدعو الشاعر إليه نقمةٌ على المهجوّ أدت إليها أسباب؛ فما الذي نقم أبو الطيب من كافور؟

أعطى كافور الشاعر كثيراً؛ ضيّفه في دار خاصة، ووصله صلات مختلفة. نجد في نسخ الديوان أنه خلعَ عليه حين قدم مصر وأعطاه آلافًا

من الدراهم. وأعطاه مرة فرسًا أدهم. وأعطاه ستمائة دينار ذهب مرة أخرى. والذي يعطى هذا العطاء جملة يعطى غيره في هذه السنوات التي أمضاها الشاعر في ضيافته. وأبو الطيب يقول:

وإني لفي بحر من الخير أصلُه عطاياك أرجو مَدَّها وهي مَدُّه

أحسب أن كافوراً أعطى الشاعر أقلّ مما أمّل، ودون ما تعود من سيف الدولة. وكان الشاعر يؤمّل أن ينال مالاً كثيراً، وينال إلى المال ضيعة أو ولاية. وقد قدّمت بيان هذا.

ولم يكن كافور أهلاً لهذا الهجاء بما أقلّ هباته أو بما منع الشاعر ولاية أو ضيعة، ولكنه استحقه بما وعد ومطل ثم أخلف، فملأ نفس الشاعر الطموح أملاً. ثم ذبذبه بين الرجاء والخيبة، ثم أيأسه بعد انتظار طويل.

وطان أبو الطيب يبغي لنفسه مجداً، ويريد أن يسوّغ فراق سيف الدولة بما ينال من هذا المجد. وكان يخشى أن يَشمَت به أعداؤه. فكان حِرمان كافور إياه هدْمَ مجد بناه في نفسه وإثارةَ ندم على فراق ابن حمدان، وإشمات أعداء وحساد طالما ذكرهم في شعره. ثم زاده غيظًا أن كافوراً حاول أن يمسكه عنده ولم ييسر له الرحيل.

وعلى قدر هذا كله كان سخطه ومرارة هجائه. وأبو الطيب إذا حقد اضطرم قلبه فإذا هجا رمي بالحمم كالإرَة [1] المضطرمة.

---

(١) الإرة: البركان.

ولم يَهجُ في حياته إلا ثلاثة: ابن كيغَلغ وكافوراً وضبة؛ ولكنه هجاء حاطم هادم مقذع، بعثه الحقد والغل لا التلهي والسخرية.

(ب)

وأهاجي كافورقسمان: قسم جاء في أثناء منظومات تضمنت أغراضًا أخرى غير الهجاء. وذلك في ثلاث قصائد وقطعة. في القصيدة التي أنشأها قبل خروجه من مصر بيوم واحد.

عيدٌ بأيةِ حالٍ عدتَ يا عيدُ بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ

والقصيدة التي وصف فيها سيره من مصر إلى الكوفة:

ألا كلّ ماشيةِ الخَيْزَلي فِدَى كلّ ماشيةِ الهَيْذَبي

والقصيدة العينية التي رثى بها فاتكا:

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصيّ طيّع

والقطعة التي نظمها حين رأى في الكوفة من هدايا فاتك تفاحة من الند عليها اسمه.

والقسم الثاني ست قطع فيها أربعة وأربعون بيتًا.

وليس يعنينا ما في الهجاء من شتم وسخرية وازدراء، ولكن يعنينا الأبيات التي تعرب عما نقمه الشاعر من كافور، وما أثار غضبه عليه لنتعرف باعث هذا الهجاء.

فمن هجاء في القِطَع قوله:

أمَينًا وإخلافًا وغَدراً وخِسَّة وجُبنًا؟ أشخصًا لحت لي أم مخازيا؟

فهو يصفه بالمين والإخلاف والغدر لأنه كذبه وعده.

وفي قطعة أخرى:

ما من يرى أنك في وعده كمن يرى أنّك في حبَسه
لا يُنجز الميعادَ في يومه ولا يَعي ما قال في أمسه
وإنما تحتال في جذبه كأنك المَلاّح في قَلسه
فلا تُرجّ الخير عند امرئ مرّت يد النخاس في رأسه

وفي قطعة ثالثة:

لو كان ذا الآكل أزوادنا ضيفًا لأوسعناه إحسانا
لكننا في العين أضيافه يُوسِعنا زوراً وبهتانا
فليته خلّى لنا طُرْقنا أعانه الله وإيانا

فتأمل قوله: «يوسعنا زوراً وبهتانًا». وقوله «فليته خلّى لنا طرقنا»:

ومن قوله في قصيدة الخروج:

أمسيت أرْوح مثر خازنًا ويداً أنا الغنيّ وأموالي المواعيد
إني نزلت بكذابين ضيفُهم عن القِرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدي وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ويقول في القصيدة العينية التي رثا بها أبا شجاع:

أبقيتَ أكذب كاذب أبقيتَه وأخذتَ أصدقَ من يقول ويسمع

فهذه هي الأبيات التي تبين لنا سبب الهجاء وما عداها سبّ قليل الغنَاء.

وفي القصيدة الميمية التي رثي بها فاتكاً يقول غير مصرّح باسم كافور:

غاض الوفاءُ فما تلقاه في عِدة وأعوز الصدق في الإخبار والقسم

(جـ)

متى نظم هذه الأهاجي؟

أما القصائد الثلاث فمعروفة التاريخ، العينية التي رثى بها أبا شجاع أنشأها حين وفاته وأنشدها بعد رحيله كما قدمت. والدالية نظمها قبل خروجه من مصر بيوم واحد، وقصيدة السفر قالها حينما حلّ بالكوفة.

وأما القطع الأخرى غير المؤرخة ففي الواحدي ونسخة بغداد ونسختي أن القطعة التي مطلعها:

أريك الرضى لو أخفت النفس خافيًا وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا

نظمها حينما خرج من عند كافور وقد أنشده أولى مدائحه. وهذا قول لا يقبله النقد فلم يكن لأبي الطيب أن يهجو كافوراً وقد جاءه مادحًا مملوءاً رجاء، ولمّا ير منه ما يكره، ولأن الشاعر يقول في القطعة:

أمينًا وإخلافًا وغدراً وخسة ... الخ.

ولم يكن كافور وعده إذ ذاك شيئاً فأخلف. وأحسب هذه القطعة وضعت بعد القصيدة الأولى في بعض نسخ الديوان لأنها توافقها وزنًا ورويًا فوهم الشراح من أجل هذا.

والقطعة:

أنوكُ من عَبد ومن عرسه ... من سَلّط العبد على نفسه

وضعت في شرح الواحدي والمعري والنسخة (١٥٣٠) ونسختي بعد القصيدة الميمية التي أنشدها في ربيع الثاني سنة ٣٤٧، وقيل إنه نظمها بعد هذه القصيدة. وهذا ممكن ولكنه بعيد فما أظن أبا الطيب هجا كافوراً إلا حين اشرف على اليأس منه، وانقطع عن مدحه زمنًا طويلاً وذلكم في سنة ٣٤٨ فما بعدها:

والقطعة التي يقول فيها:

وأسود أما القلب منه فضيّق ... نَخيب وأما بطنه فرحيب
يموت به غيظًا على الدهر أهله ... كما مات غيظًا فاتك وشبيب

نُظمت بعد موت فاتك في شوال سنة ٣٥٠.

والقطعة التي يقول فيها:

فليته خلى لنا طرقنا ... أعانه الله وإيانا

قيلت حين همّ بالرحيل.

وأحسب بعض القطع أنشئت بعد خروجه من مصر.

وأما القصيدتان اللتان يقال إنهما وجدتا في رحله بعد قتله فسيأتي الكلام فيهما.

الفصل الرابع عشر

أبو الطيب في العراق

١

حال العراق إذ ذاك

نشأت دولة بني بويه في أوائل القرن الرابع الهجري. وتعاون الإخوة الثلاثة عليّ والحسن وأحمد بنو بويه على التسلط في فارس والعراق واستولى أصغرهم أحمد علي بغداد سنة ٣٣٤هـ، وكان بها الخليفة العباسي المستكفى بالله. فمنحهم الولاية على ما بأيديهم ولقب عليًا عماد الدولة، والحسن ركنَ الدولة، وأحمد معزَّ الدولة، وقد تنازع بنوهم على السلطان من بعد، وتشعبت إماراتهم. وبقى ملكهم في العراق إلى سنة ٤٤٧ حين استولى عليه السلاجقة.

بقى معز الدولة في بغداد حتى توفى سنة ٣٥٦. وكان استيلاؤه على العراق إيذانًا بانتقال السلطان جملة من أيدي الخلفاء إلى ملوك البويهيين. فبعد أسابيع من دخوله بغداد خلع الخليفة المستكفى بالله وسمَل عينيه وولّى مكانه الخليفة المطيع.

وكان هذا الاستيلاء إيذانًا بالخراب فقد شغَب الجند على معز الدولة طالبين أرزاقهم. فأخذ الأموال من الناس ظلمًا. وأقطع قوّاده القرى

جميعها. فأهملوا الطرق والمشارب فخربت المزارع. وكانوا كلما نقص الدخل زاد ظلمهم، ومصادرتهم أموال الناس.

وقدم أبو الطيب العراق بعد ستة عشر عاماً من استيلاء معزّ الدولة فوجدها أسوأ حالاً منها يوم تركها، وأقام بالكوفة التي هجرها في صباه مرات فراراً من القرامطة والأعراب، فشهد بعد سنتين من قدومه غارة بني كلاب عليها. وشارك هو في الحرب والدفاع عنها وسيأتي ذكر هذا بعد.

وكان يلي الوزارة الحسنُ بن محمد المعروف بالوزير المهلبي، وليها ثلاثة عشر عامًا وثلاثة أشهر من سنة ٣٣٩ إلى سنة ٣٥٢.

وكان أديبًا شاعرًا اجتمع حوله جماعة من الأدباء منهم القاضي التنوخي، وأبو الفرج الأصفهاني. ومدحه جماعة من الشعراء منهم السرِيّ الرّفاء، وابن البقال، وألّف عليّ بن هرون المنجم كتابًا باسمه.

وكان جواداً ذا مروءة معوانًا لأصحاب الحاجات. رتب لرجل فقير عرف أنه من أولاد معن بن زائدة مائة دينار وكسوة كل سنة. ولما مات التنوخي صلي عليه وقضى دينه وكان خمسين ألف درهم.

وكان مسرفًا في بَذْخِه كَلِفًا بمجلس اللَهو والمجون عرف بها.

وسترى ما كان بينه وبين أبي الطيب.

٢

في الكوفة

أقام أبو الطيب في العراق منذ قدمها في ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة إلى أن سافر إلى فارس في صفر سنة أربع وخمسين، وذلك زهاء ثلاث سنين. وكانت إقامته ببلده الكوفة. ولسنا ندري كم مرة ذهب إلى بغداد. والروايات تصف قدومه إلى بغداد وإقامته بها مرة واحدة. وسنرى أن بغداد لم تكرم مثواه؛ فأحسبه ما ذهب إليها من بَعد إلا في طريقه إلى فارس سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.

ولا نعرف من سيرته بالكوفة إلا ما يتصل بشعره من الوقائع:

(أ) في جمادي الثانية سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة كان هجاؤه لضبة بن زيد العيني.

وفي نسخ كثيرة من الديوان قصة هذا الهجاء متفقة في فحواها مختلفة في التفصيل. وأوفاها رواية المعري ونسخة بغداد. وهذا نسقها:

كان قوم من أهل العراق قتلوا يزيد العيني ونكحوا امرأته. ونشأ منها له ولد بالعين يسمى ضبة يغدر بكل من نزل به وأكل معه أو شرب.

واجتاز أبو الطيب بالطفّ فنزل بأصدقاء له. وسارت خيلهم إلى هذا العبد واستركبوه فلزمه المسير معهم. فدخل العبد الحصن وامتنع به وأقاموا عليه أيامًا لا سلاح له إلا شتمهم من وراء الحصن أقبح شتم.

ويُسمِّي أبا الطيب باسمه ويشتمه. وأراد القوم أن يجيبوه بمثل ألفاظه. وسألوه ذلك فتكلف لهم على مشقة. وعلم أنه لو سبَّه لهم معرّضًا لم يَفهم ولم يَعمل فيه عمل التصريح فخاطبه على ألسنتهم من حيث هو فقال:

مـــا أنـــصف القـــوم ضـــبه وأمـــــــه الطرطبّـــــــه

وهي قصيدة بلغ فيها الغاية من الإقذاع، وأبو الطيب إذا حقد أفاض حقده هجاء لا يبالي فيه ما يقول. وسير أبي الطيب مع أصدقائه لقتال ضبّة أو شتمه دليل على ما تَمكن فيه من طباع البادية. وسيأتي أن الرجل كان بدويًّا في طباعه وسيرته. ثم إفحاشه في هذا الهجاء لا يقوم به الاعتذار بأن ضبة لم يكن يفهم التعريض. فمن قَبل هجا ابن كيغلغ فلم يقصر في الإفحاش والتصريح.

ويقول ابن جنى في شرحه ديوان أبي الطيب:

«ورأيته وقد قرأت عليه هذه القصيدة وهو ينكر إنشادها». وقال الواحدي: «كان المتنبي إذ قرئت عليه هذه القصيدة ينكر إنشادها. وأنا أيضًا والله أنكر كتابتها وتفسيرها. ولست أرويها، إنما أحكيها على ما هي عليه. واستغفر الله تعالى من خطّ مالا يُزلف لديه».

(ب) وبعد ستة أشهر من هذه الواقعة كانت حوادث في الكوفة اشترك فيها أبو الطيب وقاتل. ثم مدح قائد الجيش الذي قدم من بغداد لحرب الأعراب الذين أغاروا على البلد.

قال في شرح المعري ومثله في نسختي:

«ونجم خارجي من بني كلاب بظهر الكوفة. وذُكر له أنّ خلقاً من أهل الكوفة قد أجابوه وحلفوا له. فسارت إليها بنو كلاب معه ليأخذها. ورفعت الرايات. وخرج أبو الطيب على الصوت من ناحية قَطَوان. فلقيته قطعة من الخيل في الظهر فقاتلها ساعة. فانكشفت وقد جَرح فيها وقتل منها. وسار في الظهر حتى دخل إلى جمع السلطان والرعية من درب البراجم. ووقعت المراسلة سائر اليوم وعادوا من غد فاقتتلوا إلى آخر النهار فلم يصنع الخارجي شيئًا. ورجع وقد اختلفت فيه بنو كلاب وتبرأ بعضها منه. وعاد بعد أربعة أيام فالتقوا في الظهر فوقعت بالسلطان والعامة جراح. وقُتل من بني كلاب. وطُعن فرس لأبي الطيب تحت غلام له في لبته فمات لوقته. فحمله أبو الحسن محمد بن عمر العلوي على فرس. وجرح غلام له فرسين وقتل رجلاً.

وعادوا من غد فالتقى الناس عند دار أسلم وبينهم حائط فقتل من بني كلاب بالنشاب عدة فانصرفوا ولم يقفوا لقتال.

ووردت الأخبار إلى بغداد فار أبو الفوارس دلير بن لشكروز في جماعة من القواد، فورد الكوفة بعد رحيل بني كلاب. فأنفذ إلى أبي الطيب ساعة نزل ثيابًا نفيسة من ديباج رومي وخزّ وديبقى فقال يمدحه، وأنشده إياها في الميدان وهما على فرسيهما. وكان تحت دلير جواد أصفر وعليه حلية ثقيلة فقاده إليه. وذلك كله في ذي الحجة سنة ٣٥٣».

ومطلع القصيدة:

كدعواك كلٌّ يدعي صحة العقل ... ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل
لهنّك أولى عاذل بملامة ... وأحوجُ ممن تعذلين إلى العذل
تقولين ما في الناس مثلك عاشق ... جِدي مثلَ من أحببتُه تجدي مثلي
مُحب كَنَى بالبيض عن مُرهفاته ... وبالحسن في أجسامهنّ عن الصقل
وبالسمر عن سُمر القنا غير أنني ... جَناها أحبائي وأطرافها رُسلي
عدمتُ فؤاداً لم تَبِت فيه فضلة ... لغير الثنايا الغُر والحدَق النُّجل

ويصف ممدوحه بالعفة والشجاعة، وهما خلتان يحبهما الشاعر:

عفيف تروق الشمسَ صورةُ وجهه ... فلو نزلَت شوقًا لحاد إلى الظل
شُجاع كأن الحرب عاشقة له ... إذا زارها فَدَّته بالخيل والرَّجْل
وريَّان لا تَصدَي إلى الخمر نفسُه ... وصَديانُ لا تَروَى يداه من البذل
فتمليك دَلّير وتعظيمُ قدره ... شهيد بوحدانية الله والعدل

٣

أبو الطيب في بغداد

ذهب أبو الطيب إلى بغداد بعد رجوعه من مصر إلى الكوفة. ولا ندري متى ذهب إليها، ولكنا نعلم أنه خرج منها في شعبان سنة اثنتين وخمسين؛ ونحن نعرف أنه لقي الوزير المهلبي حين قدومه بغداد ونعرف أن المهلبي برح بغداد إلى البصرة في جمادي الآخرة سنة اثنتين وخمسين، ومات قبل أن يرجع إلى دار الخلافة. فقد كان أبو الطيب ببغداد من جمادي إلى شعبان. ولا ندري كم أقام قبل هذا؟ وأحسبه لم يطل الإقامة بها.

نزل في رَبض حُميد في الجانب الغربي من بغداد في دار علي بن حمزة البصري اللغوي الذي رَوى ديوانه، ورَوى عنه ابن جنى بعض أشعار أبي الطيب وبقى ضيفه إلى أن رحل عن المدينة [1].

وكان ببغداد معزّ الدولة بن بويه ووزيره المهلبي. ولا ريب أنهما تطلعا إلى مدح الشاعر النابه الذي أشاد ببني حمدان خصوم بني بويه، ولكن أبا الطيب لم يمدح الملك ولا وزيره. فلماذا؟ قال صاحب الإيضاح: فلما حصل المتنبي ببغداد نزل في رَبضِ حميد فركب إلى المهلبي فأذن له فدخل وجلس إلى جنبه، وصاعدٌ خليفته دونه، وأبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني. فأنشدوا هذا البيت:

سقى الله أمواهًا عرفت مكانها جُرامًا ومَلكومًا ويذر فالغَمرا

وقال المتنبي: جُرابا، وهذه أمكنة قتلتها علمًا، وإنما الخطأ وقع من النقلة. فأنكره أبو الفرج.

قال الشيخ: هذا البيت أنشده أبو الحسن الأخفش صاحب سيبويه في كتابه جرامًا بالميم. وهذا الصحيح وعليه علماء اللغة.

وتفرق المجلس عن هذه الجملة. ثم عادوا في اليوم الثاني. وانتظر المهلبي إنشاده فلم يفعل. وإنما صَدّه ما سمعه من تماديه في السُّخف، واستهتاره بالهزل، واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه. وكان المتنبي مُر النفس صَعب الشكيمة حادًّا مُجدًّا فخرج.

---

(١) الخطيب: وياقوت ج ٢ ص ٥٠٢ ط بيروت.

فلما كان اليوم الثالث أغروا به ابن الحجّاج حتى علق بلجام دابته في صينية الكرخ وقد تكابس الناس عليه من الجوانب وابتدأ ينشده:

يـا شـيخ أهـل العلـم فينـا ومـن يلـزم أهـل العلـم توقيره

فصبر عليه المتنبي ساكتًا ساكنًا إلى أن نجّزها ثم خلّى عنان دابته. وانصرف المتنبي إلى منزله».

وابن الحجاج هذا شاعر خليع ماجن فلم يكن أبو الطيب ليعبأ به.

وقد روى ياقوت عن المحسّن بن إبراهيم بن هلال الصابي عن والده أبي إسحاق قال: «راسلت أبا الطيب المتنبي رحمه الله في أن يمدحني بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف درهم. ووسطت بيني وبينه رجلاً من وجوه التجار. فقال: قل له والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك. ولا أوجَب عليّ في هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبتَ. وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير (يعني أبا محمد المهلبي)، وتغير عليك لأني لم أمدحه. فإن كنت لا تبالي هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمست ولا أريد منك مالاً ولا عن شعري عوضاً.

قال والدي: فتنبهت على موضع الغلط، وعلمت أنه قد نصح فلم أعاوده»[1].

(١) ياقوت ج ١ ص ٣٤٦.

فهذه الرواية ترينا تطلع الرؤساء إلى مدح أبي الطيب، وأن المهلبي كان راغبًا في مديحه مغيظًا من إغفاله إياه.

وروى ياقوت في أخبار علي بن يوسف البقال أن المهلب أحضره فأنشده بحضرة المتنبي، وأن المتنبي قال: ما رأيت ببغداد من يجوز أن يقطع عليه اسم شاعر إلا ابن البقال [1].

ولست أرى رأى الثعالبي في اليتيمة أن أبا الطيب ترفّع عن مدح المهلبي ذهاباً بنفسه عن مدح غير الملوك. فلو صح هذا ما مدح ابن العميد. والذي أراه أن أبا الطيب ازدرى المهلبي كما قال صاحب الإيضاح، وأن المهلبي لم يلقه من التكريم والإعظام بما يُنشطه إلى مدحه. وأحسب أبا الطيب كان يريد مدحه وأنه لذلك زاره مرتين. وكان المهلبي وسيلته إلى معز الدولة كما كان ابن العميد وسيلته إلى عضد الدولة. فلما غاضب المهلبيّ لم يجد إلى معزّ الدولة وسيلة.

وأغرى المهلبي جماعة من شعراء بغداد فوقعوا في أبي الطيب، قال الثعالبي: فأغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه، وتباروا في هجائه وفيهم ابن الحجاج، وابن سكرة الهاشمي، والحاتمي. وأسمعوه ما يكره وتماجنوا به وتنادروا عليه؛ فلم يجبهم ولم يفكر فيهم. وقيل له في ذلك؛ فقال: إني قد فرغت من إجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء:

---

(١) ج ٢ ص ٥١٢.

أرى المتشاعرين غَروا بذمي ... ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مرّ مريض ... يجد مُرًّا به الماء الزلالا

وقولي:

أفي كل يوم تحت ضِبني شويعر ... ضعيفٌ يقاويني، قصير يُطاول
لساني بنطقي صامتٌ عنه عادل ... وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأتعبُ من ناداك من لا تُجيبه ... وأغيظُ من عاداك من لا تشاكل
وما التيهُ طبي فيهم غير أنني ... بغيض إليّ الجاهل المتعاقل

وقولي:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني كامل

وبلغ أبا الحسين بن لنَكَكَ بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقيعة شعراء بغداد فيه واستحقارهم، وكان حاسداً له طاعنًا عليه هاجيًا إياه، زاعماً أن أباه كان سقاء بالكوفة، فشمت به وقال:

قولا لأهل زمان لا خَلاق لهم ... ضَلّوا عن الرشد من جهل بهم وعموا
أعطيتم المتنبي فوق مُنيته ... فزوّجوه برغمٍ أمهاتكم
لكنّ بغداد جاد الغيث ساكنها ... نعالها في قفا السقاء تزدحم

وفي اليتيمة بعد هذا قطعتان أخريان من أهاجي ابن لنك فيهما ستة أبيات.

مناظرة الحاتمي:

ومما كان بين أبي الطيب وبين أعوان المهلبي ما حكاه الحاتمي في مناظرته لأبي الطيب ببغداد [١]. وأظن الحاتمي قد كذب على خصمه وبالغ فيما ادعى إرضاءً للمهلبي. والناقد الخبير يعرف ألوان التناقض والكذب في دعاويه. وليس يتسع المجال هنا لذكرها ونقدها.

وقد قال ياقوت عن الحاتمي هذا إنه كان مبغضًا لأهل العلم وهجاه ابن الحجاج وغيره بأهاجٍ مرة.

وفي إقامة أبي الطيب بمدينة السلام قُرئ عليه ديوانه وسمعه جماعة منهم علي بن حمزة البصري رواية الديوان، وابن جني، والقاضي أبو الحسن المحاملي [٢].

ويذكر الثعالبي وغيره قصة المتنبي في بغداد ثم يقولون إنه خرج منها إلى ابن العميد. وليس هذا حقًّا فقد لبث سنة ونصفاً في الكوفة بعد مفارقته بغداد، ثم مرّ ببغداد في طريقه إلى أرّجان.

---

(١) انظر ترجمة الحاتمي في ياقوت وانظر الصبح المنبي.

(٢) الخطيب البغدادي وياقوت ج ٥، ص ٢٠٢.

الفصل الخامس عشر

أبو الطيب وسيف الدولة

لما سمع سيف الدولة بخروج أبي الطيب من مصر مراغمًا كافوراً وبلوغه الكوفة كاتَبه مُعرّضًا برجوعه إلى حلب. وأهدى إليه مرة بعد مرة. وفي بعض نسخ الديوان أنه أرسل ابنه إليه. فأجابه أبو الطيب في شوال سنة ٣٥٢ بعد ست سنين من فراقه بقصيدة يتبين فيها حزنه وإكباره سيف الدولة، ولكنه يتغاضى عما أراده الأمير من رجوع شاعره إليه.

وكان سيف الدولة خرج وهو مريض للقاء الروم وقد ساروا لغزو طَرْسوس فرجعوا. وبلغ أبا الطيب الخبر فذكر حرب الروم في قصيدته. يقول في مطلعها:

ما لنا كلّنا جوٍ يا رسول ... أنا أهوَى وقلبُك المتبول
كلما عاد من بعثتُ إليها ... غار منّي وخان فيما يقول
أفسدت بيننا الأماناتِ عينا ... ها وخانت قلوبهنّ العقول

وفي هذا إشارة إلى حسّاده الذين أفسدوا بينه وبين سيف الدولة. ثم يقول فيمزج الحزن بالنسيب:

زوّدينا من حُسن وجهك ما دام ... فحسن الوجوه حالٌ تحول
وصلينا نَصلُكِ في هذه الدنيا ... فإن المقام فيها قليل
من رآها بعينها شاقه القُطّانُ ... فيها كما تَشوق الحُمول

ويقول في مدح سيف الدولة:

الـذي زلـتُ عنـه شـرقًا وغربًـا ... ونـداه مقـابلي مـا يـزول
ومعـي أينمـا سـلكت كـأني ... كـلُّ وجـه لـه بـوجهي كفيـل

إلى أن يقول:

كيـف لا تـأمن العـراقُ ومـصر ... وسَـراياك دونهـا والخيـول
لـو تحرّفـتَ عـن طريـق الأعـادي ... رَبـطَ الـسّدرُ خـيلَهم والنخيـل
ودرى مـن أعـزّه الـدفعُ عنـه ... فيهمـا أنـه العزيـز الـذليل
أنـتَ طـولَ الحيـاة للـروم غـاز ... فمتـى الوعـدُ أن يكـون القُفـول
وسـوى الـروم خلـفَ ظهـرك روم ... فعلـى أيّ جانبيـك تميـل
قعـد النـاسُ كلّهـم عـن مـساعيك ... وقامـت بهـا القَنـا والنـصُول
مـا الـذي عنـده تُـدار المنايـا ... كالـذي عنـده تُـدار الـشَّمول

وفي هذا تعريض بالإخشيديين وبني بويه ملوك مصر والعراق.

لـست أرضـى بـأن تكـون جـوادا ... وزمـاني بـأن أراك بخيـل
نغّـص البعـدُ عنـك قـربَ العطايـا ... مَرتعـى مُخـصب وجـسمي هزيـل
إن تبـوأتُ غيـر دنيـاي داراً ... وأتـاني نَيـل فأنـت المنيـل
من عبيدي إن عشتَ لي ألفُ كافو ... ر ومـن نـداك رِيـف ونيـل

ثم توفيت أخت سيف الدولة الكبرى في ميّافارقين (في شعبان سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة) وورد خبرها إلى العراق، فقال يرثيها في المحرم سنة ثلاث وخمسين بقصيدة أولها [1]:

يـا أختَ خيـر أخ يـا بنـتَ خيـر أب ... كنايـةً بهمـا عـن أشـرف النـسب
طـوى الجزيـرةَ حتـى جـاءني، خبـرٌ ... فَزِعـت فيـه بآمـالي إلـى الكـذب

(١) في تاريخ هذه القصيدة خلاف. ويضعها بعض الرواة قبل القصيدة التي قبلها.

حتى إذا لم يَدَع لي صدقه أملاً شرِقْت بالدمع حتى كاد يَشرَق بي

وكان لهذا الرثاء أثره في نفس ابن حمدان فأرسل بعد إلى أبي الطيب هدية ومالاً وأماناً بخطه وكتاباً يستدعيه. فكتب أبو الطيب في ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين قصيدة أولها:

فهمتُ الكتاب أبرّ الكتبْ فسمعًا لأمر أمير العربْ
وطَوعًا له وابتهاجًا به وإن قَصّر الفعل عما يجب

ويقول معتذراً عن القعود عنه:

وما عاقني غيرُ خوف الوُشاة وإن الوشاياتِ طُرْق الكذِب
وتكثير قوم وتقليلهم وتقريبهم بيننا والخبَب
وقد كان ينصرهم سمعهُ وَينصرني قلبه والحسب
وما قلت للبدر أنت اللجين ولا قلتُ للشمس أنتِ الذهب
فيقلقَ مني البعيدُ الأناة ويغضبَ مني البطيء الغضب
وما لا قَنى بلدٌ بعدكم ولا اعتضتُ من ربّ نُعماي رب
ومن ركب الثور بعد الجواد أنكر أظلافَه والغَبَب
وما قستُ كل ملوك البلاد فدع ذكر بعض بمن في حلب

ويذكر محاربته الروم وجهاده حامياً للثغور الإسلامية. ثم يختم القصيدة بقوله:

أرى المسلمين مع المشركين إما لعجز وإما رَهَب
وأنتَ مع الله في جانب قليلُ الرقاد كثيرُ التعب
كأنك وحدك وحدته ودان البرية بابن وأب
فليت سيوفَك في حاسد إذا ما ظَهرتَ عليهم كَتِب

وليـــت شَـــكاتك فـــي جـــسمه   وليتـــك تجـــزي بـــبغض وحـــب
فلـــو كنـــت تجـــزي بـــه نلـــتُ منـــك   أضـــعفَ حـــظ بـــأقوى ســـبب

ويتبين من هذه القصيدة أن أبا الطيب كان لا يزال عاتبًا على سيف الدولة معاتبًا إياه على ما كان يصغى إلى المفسدين بينهما في الحين بعد الحين.

انظر قوله: وقد كان ينصرهم سمعه ... الخ. وقوله آخر القصيدة:

وليتك تجزي ببغض وحبّ ... الخ. وكان إلى هذا العتب يخشى أن يعود الوشاة إلى الإفساد بينهما:

ومـــا عـــاقني غيـــر خـــوف الوشـــاة   وإن الوشـــايات طـــرق الكـــذب

ثم كان إلى هذا وذاك حياء الشاعر من لقاء الأمير ومصاحبته بعد ما فارقه مراغماً، وعرَّض به في القصائد المصريات.

وسنرى أنه في مدح عضد الدولة لم يتجنب ما يسئ إلى سيف الدولة كقوله:

وقـــد رأيـــتُ الملـــوك قاطبـــة   وســـرتُ حتـــى رأيـــت مولاهـــا

وقد رُوِي أن سيف الدولة لما سمع هذا البيت قال:

تُرى هل نحن في الجملة؟

ولو أنه كان يفكر في الرجوع إلى بني حمدان بعد العودة إلى العراق أو يرى هذه العودة ممكنة يومًا لتجنب ما يسوء الأمير وما يكدّر المودة بعد ما صفت.

الفصل السادس عشر

أبو الطيب في فارس

١

عند ابن العميد

قال ابن خلكان في ترجمة أبي الفضل جعفر بن الفرات وزير كافور الإخشيدي:

«ذكر الخطي أبو زكريا التبريزي في شرحه ديوان المتنبي أن المتنبي لما قصد مصر ومدح كافوراً مدح الوزير أبا الفضل المذكور بقصيدته الرائية التي أولها:

بـاد هـواك صـبرت أم لـم تـصبرا ويكـاك إن لـم يجر دمعـك أو جـرى

وجعلها موسومة باسمه. فكانت إحدى قوافيها جعفراً وكان قد قال فيها:

صـغت الـسوار لأيّ كـفّ بـشّرت بـابن الفـرات وأي عبـد كبـرا

فلما لم يرضه، صرفها عنه ولم ينشده إياها. فلما توجه إلى عضد الدولة قصد أرّجان، وبها أبو الفضل بن العميد فحوّل القصيدة إليه، وحذف منها لفظ جعفر وجعل ابن العميد مكان ابن الفرات».

وقال صاحب الإيضاح: «وكان السبب في قصده أبا الفضل بن العميد على ما أخبرني أبو علي بن شبيب القاشاني- وكان أحد تلامذتي ودرس

عليّ بقاشان سنة ثلاثمائة وسبعين وتوزّر للأصبهبد بالجبل، وأبوه أبو القاسم توزّر لوشمكير بجُرجان- عن العلوى العباسي نديم أبي الفضل بن العميد الذي يقول فيه:

أبلغ رسالاتي الشريفَ وقل له　　　قَدك اتّئد أربيتَ في الغُلوَاء

أنّ المعروف بالمطوق الشاشي كان بمصر وقت المتنبي فعمد إلى قصيدته في كافور:

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب　　　وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

وجعل مكان أبا المسك أبا الفضل. وسار إلى خراسان وحمل القصيدة- أعني قصيدة المتنبي إلى أبي الفضل- وزعم أنه رسوله فوصله أبو الفضل بألفي درهم. واتصل هذا الخبر بالمتنبي ببغداد فقال رجل يعطي لحامل شعري هذا فما تكون صلته لي؟»[1].

وهاتان روايتان خليقتان بالرد، ويكفي التأمل في القصيدتين لنرى كذب الروايتين. ففي القصيدة الرائية أبيات لا تصلح لخطاب ابن الفرات ولا مدحه، وأبيات تصف سفر أبي الطيب إلى أرّجان. وما كان أبو الطيب عييًا بالشعر فيحول قصيدة من مدح ابن الفرات إلى مدح ابن العميد ويتكلف حذف أبيات وإثبات أبيات، وتغيير أخرى لتلائم ممدوحه الثاني.

والقصيدة البائية فيها ندم أبي الطيب على فراق سيف الدولة وأبيات فيها اسم كافور، وأبيات فيها لوم كافور على حرمانه الشاعر مما أمّل.

---

(١) الخزانة ج ١ ص ٣٨٥.

ويذكر الشاعر في القصيدة العيد وشوقه إلى أهله. ثم أبيات أخرى لا تلائم مدح ابن العميد. وما كان الشاشي ليغفل عن هذا وما كانت هذه الرسالة المفتراة لتخيل عند ابن العميد النقادة.

وروى صاحب الصبح المنبى أن ابن العميد كان يخاف ألاّ يقصده أبو الطيب ويعامله معاملة المهلبي، فكان يتحامل عليه ويغض من شعره.

روى عن بعض أصحاب ابن العميد قال: «دخلت عليه يومًا قبل دخول المتنبي فوجدته واجماً. وكانت قد ماتت أخته عن قريب فظننته واجداً لأجلها. فقلت: لا يحزن الله الوزير، فما الخبر؟ قال: إنه ليغيظني أمر هذا المتنبي واجتهادي في أن أُخمل ذكره، وقد ورد عليّ نيّفٌ وستون كتابًا في التعزية ما منها إلا وقد صُدّر بقوله:

طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ ... فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً ... شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل إلى إخماده ذكره؟ فقلت: القدَر لا يغالَب، والرجل ذو حظ من إشاعة الذكر واشتهار الاسم؛ فالأولى ألاّ تشغل فكرك بهذا الأمر.

ويؤخذ من رواية الصبح المنبي أن ابن العميد لم يرسل إلى المتنبي يدعوه، وفي بعض نسخ الديوان أنه أرسل إليه. في نسخة الوزير تاج الدين المحفوظة في دار الكتب المصرية والتي رمزت إليها بالحرف ت في تعليقي على الديوان: «ثم خرج أبو الطيب من الكوفة إلى العراق (لعله

يريد بغداد) فراسله ابن العميد أبو الفضل محمد بن الحسين وزير ركن الدولة من أرّجان فسار إليه».

ومهما يكن فقد فصل من مدينة السلام يوم الخميس ١١ صفر سنة ٣٥٤ [١]، وذلك بعد سبعة عشر شهراً من خروجه من بغداد المرة الأولى، بعد أن يئس من المهلبي ومعز الدولة. وسار من طريق الأهواز. ولقيه التنوخي بها كما في تاريخ الخطيب. وبلغ أرّجان في الشهر نفسه. ويحدثنا صاحب الإيضاح عن دخوله أرّجان روايةً عن ابن جنى عن عليّ بن حمزة البصرى قال:

«كنت مع المتنبي لما ورد أرّجان. فلما أشرف عليها وجدها ضيقة البقعة والدور والمساكن. فضرب بيده على صدره وقال: تركت ملوك الأرض يتعبدون بي، وقصدت ربَّ هذه المدَرة؛ فما يكون منه؟! ثم وقف بظاهر المدينة وأرسل غلامًا على راحلته إلى ابن العميد. فدخل عليه وقال: مولاي أبو الطيب خارج البلد. وكان وقت القيلولة وهو مضجع في دسته. فثار من مضجعه واستثبته ثم أمر حاجبه باستقباله. فركب واستركب من لقيه في الطريق. ففصل عن البلد بجمع كثير فتلقوه وقضوا حقه وأدخلوه البلد. فدخل على أبي الفضل فقام له من الدست قيامًا مستوياً. وطُرح له كرسيّ عليه وسادة ديباج. وقال أبو الفضل: كنت مشتاقًا إليك يا أبا الطيب.

---

(١) شرح ابن جنى.

ثم أفاض المتنبي في حديث سفره، وأن غلامًا له احتمل سيفًا وشذّ عنه. وأخرج من كمه عقب هذه المفاوضة درجًا فيه قصيدته:

باد هواك صبرت أم لم تصبرا ويكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

فوحى أبو الفضل إلى حاجبه بقرطاس فيه مائتا دينار وسيف غشاؤه فضة. وقال: هذا عوض عن السيف المأخوذ. وأفرد له داراً نزلها. فلما استراح من تعب السفر كان يغشى أبا الفضل كل يوم ويقول: ما أزورك إكبابًا إلا لشهوة النظر إليك. ويؤاكله»[1].

لبث أبو الطيب شهرين عند ابن العميد. وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه ويتعجب من حفظه وغزارة علمه.

وقد مدح الشاعر ابن العميد بثلاث قصائد؛ الأولى التي مطلعها:

باد هواك صبرت أم لم تصبرا ويكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

وفيها يقول بعد النسيب:

أعطى الزمان فما قبلتُ عطاءه وأراد لي فأردتُ أن أتخيرا
أرجانَ أيتها الجياد فإنه عزمي الذي يذر الوشيج مكسّراً
لو كنت أفعل ما اشتهيتِ فعاله ما شق كوكبَك العجاجَ الأكدرا
أمي أبا الفضل المُبر أليتي لأيممنّ أجلّ بحر جوهرا
أفتى برؤيته الأنامُ وحاش لي من أن أكون مقصراً أو مُقصِرا
صُغْتُ السِّوار لأيّ كف بشّرت بابن العميد وأي عبد كبّرا
إن لم تُغثني خيله وسلاحه فمتى أقود إلى الأعادي عسكرا

(١) الخزانة ج ١.

فقد رجع إلى ذكر الخيل والسلاح والأعادي كما ترى في البيت الأخير. ويصف بلاغة ابن العميد ومهابته ثم يقول:

أرأيت همة ناقتي في ناقة ... نقلتْ يداً سُروحا وخُفًّا مُجمَرا
تركت دخانَ الرِّمث في أوطانها ... طلبًا لقوم يوقدون العَنبرا
وتكرمت رُكْباتها عن مَبرَك ... تقعان فيه وليس مسكا أذفرا
فأتتك داميةَ الأظل كأنما ... حُذيت قوائمُها العقيقَ الأحمرا
بدرتْ إليك يدَ الزمان كأنها ... وجدته مشغول اليدين مفكرا
مَن مُبلغُ الأعراب أنّي بعدهم ... لاقيتُ رسطاليس والإسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه ... متملكا متبدّيًا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما ... ردّ الإله نفوسهم والأعصرا
نُسقوا لنا نسقَ الحسابِ مقدّمًا ... وأتى «فذلك» إذ أتيتَ مؤخرا [1]

ربما يظن أن في قول أبي الطيب: «تركت دخان الرمث ... الخ» و«مَن مبلغ الأعراب ... الخ» تحقيراً للعرب لا يجمل بهذا الشاعر العربيّ القحّ. وجواب هذا في الكلام على العروبة في شعر أبي الطيب فيما يأتي.

والقصيدة التالية مدحه بها يوم النوروز وقد انتقد ابن العميد شعره فهو يمدحه ويعتذر بقوله:

هل لعذري عند الهمام أبي الفضل ... قبولٌ سَوادُ عيني مِداده ؟
أنا من شدة الحياء عليل ... مَكْرُماتُ المعله عُوّاده
ما كفاني تقصيرُ ما قلت فيه ... عن عُلاه حتى ثناه انتقاده

---

(١) فذلك، يقولها الحاسب حين يجمع الأعداد ويكتبها قبل حاصل الجمل يريد المتنبي أن ابن العميد هو حاصل جمع المتقدمين.

إنّني أصيد البزاة ولكنّ ... أجلّ النجوم لا أصطاده
رُبّ ما لا يعبّر اللفظ عنه ... والذي يضمر الفؤاد اعتقاده
ما تعودت أن أرى كأبي الفضل ... وهذا الذي أتاه اعتياده
إن في الموج للغريق لعذراً ... واضحاً أن يفوته تَعداده
للندى الغَلب إنه فاض والشعر ... عمادي وابنُ العميد عماده
نال ظني الأمورَ إلاّ كريمًا ... ليس لي نُطقُه ولا فيّ آده
ظالمُ الجود كلما حلّ ركب ... سيمَ أن تحمِل البحارَ مَزاده
غمرتني فوائدٌ شاء فيها ... أن يكون الكلامُ مما أُفادُه
ما سمعنا بمن أحَبّ العطايا ... فاشتهى أن يكون فيها فؤاده

وقال صاحب الإيضاح:

أرسل ابن العميد بعض ندمائه إلى المتنبي: كان يبلغني شعرك بالشام والمغرب، وما سمعته دونه. فلم يحر جوابًا إلى أن حضره النيروز وأنشده مهنئًا ومعتذراً.

وفي الأبيات اعتراف بما أخذه ابن العميد عليه، واعتذار عنه. وكأن شاعرنا استشعر الهيبة حين مدح أديباً كبيراً وهو لم يتعود مدح الأدباء النقاد. كما يقول: ما تعودت أن أرى كأبي الفضل ... الخ.

وقد أدرك الواحدي هذا فقال في شرح هذا البيت:

وهذا يدل على تحرز المتنبي منه وتواضعه له. ولم يتواضع لأحد في شعره ما تواضع له.

وأزيد على هذا أن اهتمام الشاعر بابن العميد وتهيبه إنشاد هذا الأديب العالم أوحيا إلى أبي الطيب شيئاً من التكلف والإغراب في القصيدة الأولى. فقد أراد أن يأتي بأمر بِدع، وأن يتفلسف مسايرة لابن العميد فحطّ هذا من شعره.

وبعد هذه القصيدة في الديوان قطعتان؛ الأولى خمسة أبيات أنشأها حين ورد عليه كتاب من أبي الفتح بن أبي الفضل بن العميد يثنى عليه ويذكر شوقه إليه، وهي:

بكُتب الأنام كتاب ورد ... فدتْ يدَ كاتبه كلُّ يد
يعبر عما له عندنا ... ويذكر من شوقه ما نجد [1]

والثانية أربعة أبيات يصف فيها مجمرة رآها عند ابن العميد:

أحبُّ امرئ حَبّت الأنفسُ ... وأطيب ما شمّه مِعطس
ونشرٌ من النّد لكنما ... مجامره الآس والنرجس [2]

ثم يودعه بالقصيدة الثالثة:

نسيت وما أنسى عتابًا على الصد ... ولا خفَراً زادت به حمرة الخدّ

وفيها يصف غلمانه الذين صحبوه في أسفاره كما وصفهم من قبل في مرثية فاتك الميمية:

تُبدّل أيامي وعيشي ومنزلي ... نجائبُ لا يُفكرن في النحس والسعد
وأوجهُ فتيان حياءً تلثموا ... عليهن لا خوفًا من الحرّ والبرد

---

(١) نسختي من الديوان ص ٥٤٦.

(٢) نسختي من الديوان ص ٥٥١.

وليس حياءُ الوجه في الذئب شيمةً ولكنه من شيمة الأسد الوَرد
إذا لم تُجِزهم دارَ قوم مودةً أجاز القنا والخوفُ خير من الوُد
يحيدون عن هزل الملوك إلى الذي توفر من بين الملوك على الجِد

إلى أن يقول في مدح ابن العميد:

فإن يكن المهديّ من بان هديه فهذا، وإلاّ فالهُدى ذا فما المهدي؟

ثم يقول:

تفضلت الأيامُ بالجمع بيننا فلما حَمِدنا لم تُدمنا على الحمد

وفي هذا تسوية نفسه بابن العميد وهي عادته في مدائحه. ثم يذكر أهله وانتظارهم رجوعه:

وقد كنت أدركت المنى غير أنني يعيّرني أهلي بإدراكها وحدي

٢

عند عضد الدولة

كان عضد الدولة بصيراً بالأدب، له شعر جيد، وكانت دولته هو وبني بويه عامة دولة للأدب العربي. وتولى الوزارة لهم ابن العميد والصاحب والمهلبي.

وكان الشعر الفارسي يترعرع في الجهات النائية من فارس لا في الجهات القريبة من العراق العربي. ولم يهتم أحد من بويه ووزرائهم بشعراء الفرس. إذ كان الأدب العربي غالبًا، والشعر العربي أبعد صيتًا وأروج سوقًا.

وكان عضد الدولة يسمع بأبي الطيب ويتمنى قدومه عليه. ففي الإيضاح أنه كان جالسًا في البستان الزاهر في يوم زينته وأكابر حواشيه وقوف؛ فقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الحكارى: ما يعوز مجلس مولانا سوى أحد الطائيين[1]. فقال عضد الدولة: لو حضر المتنبي لناب عنهما.

أرسل عضد الدولة إلى ابن العميد يسأله أن يدعو أبا الطيب إلى المسير إليه. وكان الشاعر يريد العَود من أرّجان إلى الكوفة. وفي قصيدة وداع ابن العميد ما يشعر بهذا. فقد اعتذر عن الرحيل بتطلع أهله إليه، وهذا صريح في كلام صاحب الإيضاح فهو يقول: «لما ودّع أبا الفضل ابن العميد ورد كتاب عضد الدولة يستدعيه، فعرّفه ابن العميد: فقال ما لي وللديلم؟ فقال أبو الفضل: عضد الدولة أفضل مني، ويصلك بأضعاف ما وصلتك به. فأجاب بأني ملقى من هؤلاء الملوك، أقصد الواحد بعد الواحد، وأملّكهم شيئا يبقى ببقاء النيرين، ويعطونني عرضًا فانياً. ولي ضجرات واختيارات، فيعوقونني عن مُرادي، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه ...» فكاتب ابن العميد عضد الدولة بهذا الحديث، فورد الجواب بأنه مُملك مراده في المقام والظعن.

وصدق أبو الطيب في حديثه عن الملوك وفراقهم؛ فكذلك فارق سيف الدولة وكافوراً.

---

(١) يعني أبا تمام والبحتري. وقد توفيا منذ زمن بعيد، ولكن المتكلم يتمنى أن يكون في المجلس أحدهما أو من يشبههما.

وفي شرح المعري:

«وجه أبو شجاع عضد الدولة في طلبه، ولم يمكن الأستاذ مخالفته فحمله مكرهًا.

سار من أرّجان فلما كان على أربعة فراسخ من شيراز استقبله عضد الدولة بأبي عمر الصباغ أخي أبي محمد الأبهري صاحب كتاب حدائق الآداب. فلما تلاقيا وتسايرا استنشده، فقال المتنبي: الناس يتناشدونه فاسمعه. فأخبر أبو عمر أنه رسم له ذلك عن المجلس العالي. فبدأ بقصيدته التي فارق مصر بها:

ألا كلّ ماشية الخيزلي ... فدى كلّ ماشية الهيدبي

ثم دخل البلد فأنزل داراً مفروشة ورجع أبو عمر الصباغ إلى عضد الدولة فأخبره بما جرى وأنشده أبياتًا من كلمته وهي:

فلما أنخنا ركزنا الرماح ... بين مكارمنا والعُلى
ويتنا نقبل أسيافنا ... ونمسحها من دماء العِدى
لتعلم مصر ومن بالعراق ... ومن بالعواصم أنّي الفتى
وأني وفيت وأني ابيت ... وأني عتوت على من عتا

فقال عضد الدولة: هو ذا يتهددنا المتنبي.

ثم لما نفض غبار السفر واستراح ركب إلى عضد الدولة فلما توسط الدار انتهى إلى قرب السرير مصادمة فقبّل الأرض واستوى قائمًا. وقال:

شكرت مطية حملتني إليك، وأملاً وقف بي عليك. ثم سأله عضد الدولة عن مسيره من مصر، وعن علي بن حمدان فذكره وانصرف» أ هـ.

أنشأ أبو الطيب عند عضد الدولة ست قصائد، وأرجوزة طردية، وقطعة. وإحدى القصائد تعزية بعمة عضد الدولة التي توفيت ببغداد، والأخريات مدائح ليس فيها من التاريخ إلا وصفه هزيمة وهشوذان الكردي الثائر على بني بويه في قصيدتين.

وأولى القصائد القصيدة التي مطلعها:

أوه بديلٌ من قولتي واها لمن نأت والبديل ذكراها

ويؤخذ من الإيضاح أن الأولى هي التي وصف فيها الشعب في طريقه إلى شيراز:

مغاني الشعب طيبًا في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن ترتيب الديوان وعنوان الأولى في النسخ، وقوله في الثانية يصف ابني عضد الدولة:

ولم أر قبله شبلي هزبر كشبليه ولا مهري رهان

وهو لم يرهما إلا بعد قدومه إلى شيراز، وغشيانه مجلس عضد الدولة. كل هذا يدل على أن الأولى هي: أوه بديل من قولتي واها.

ويعنينا من هذه القصائد في تاريخ أبي الطيب أنه استوحش من فقد العربية في فارس، وذكر الشام وحنّ إليها في قصيدتين. ولم نَر ذلك في

شعره بمصر والعراق كأنه حنّ إلى ملاعب الصبى من بلاد العرب حين رحل إلى بلاد العجم. يقول في القصيدة الأولى:

أحـــبّ حمـــصًا إلـــى خُناصـــرة وكـــل نفـــس تحـــب محياهـــا

ويقول في الثانية:

مغـاني الـشعب طيبًـا فـي المغـاني بمنزلـــة الربيـــع مـــن الزمـــان
ولكـــن الفتـــى العربـــي فيهـــا غريـــب الوجـــه واليـــد واللـــسان
ملاعـــبُ جِنـــة لـــو ســـار فيهـــا ســـليمان لـــسار بترجمـــان

إلى أن يقول وقد افتقد الضيافة التي تعودها في بلاد العرب:

ولـــو كانـــت دمـــشق ثنـــى عِنـــاني لبيـــتُ الثُّـــرد صـــينيّ الجِفـــان
يَلَنْجـــوجّي مـــا رُفعـــت لـــضيفٍ بـــه النيـــرانُ نَـــدّى الـــدخان
تحـــلّ بـــه علـــى قلـــبٍ شـــجاع وترحـــل منـــه عـــن قلـــبٍ جبـــان
بـــلاد لـــم يـــزل منهـــا خيـــال يـــشيّعني إلـــى النَّوبنـــدجان

وكذلك يدل على حنينه إلى العرب- ولا سيما باديتهم وهو مغرم بالبداوة- تغزّله بالبدويات في القصيدة اللامية التي مدح بها عضد الدولة:

اثلِـــث فإنهـــا أيهـــا الطلَـــل نبكـــي وتُـــرزم تحتنـــا الإبـــل

يقول فيها:

فـــي مقلَتـــي رشـــأ تـــديرهما بدويـــة فتنـــت بهـــا الحُلـــل
تـــشكو المطـــاعمُ طـــولَ هجرتهـــا وصـــدودَها ومـــن الـــذي تـــصل

***

وقد وصل عضد الدولة الشاعر صلات كثيرة، روى صاحب الإيضاح أنه لما أنشده القصيدة الأولى «حمل إليه عضد الدولة من أنواع الطيب في الأردية والأمنان، من بين الكافور والعنبر والمسك والعود. وقاد فرسه الملقب بالمجروح، وكان اشتُرى له بخمسين ألف شاة، وبدرةً دراهمها عدلية، ورداء حشوه ديباج رومي مفصل، وعمامة قومت بخمسمائة دينار، ونصلاً هنديًا مرصّع النجاد والجفن بالذهب».

وأنه لما دخل عليه يوم نثر الورد قال: ما خدمتْ عيناي قلبي كاليوم، وأنشده قطعة فأعطاه فرسًا وخلعة وبدرة.

وروى صاحب اليتيمة أنه وصله بأكثر من مائتي ألف درهم، وأنه لما استأذنه في المسير أمر أن يخلع عليه الخلع الخاصة، ويقاد إليه الحُملان الخاص، وتعاد صلته بالمال الكثير.

وقد ظهر أثر هذا في شعر أبي الطيب ولا سيما قصيدة التوديع.

أقام أبو الطيب في شيراز زهاء ثلاثة أشهر وقرئ عليه ديوانه، ثم أنشد قصيدة الوداع في شعبان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة. ولا بدّ من وقفة نتأمل فيها هذه القصيدة.

يبالغ الشاعر في شكر الأمير ويقول:

أروح وقد ختمتُ على فؤادي ... بحبك أن يحلّ به سواكا
وقد حمّلتني شكراً طويلا ... ثقيلاً لا أطيق به حراكا
أحاذر أن يشقّ على المطايا ... فلا تمشي بنا إلاّ سِواكا

ويظهر الشاعر رغبته في الرجوع إلى الأمير:

لعل الله يجعله رحيلاً ... يعين على الإقامة في ذراكا
فلو أني استطعت خفضت طَرفي ... فلم أبصره حتى أراكا
وكيف الصبر عنك وقد كفاني ... نداك المستفيض وما كفاكا

ويقول:

وما أنا غيرُ سهم في هواء ... يعود ولم يجد فيه امتساكا

ويعتذر بأن أهله في شوق إليه وحزن لغيابه.

وكم دون الثويّة من حزين ... يقول له قدومي: ذا بذاكا
ومن عَذب الرُّضاب إذا أنخنا ... يقبّل رَحل تُروَك والوراكا
يحرّم أن يمس الطيب بعدى ... وقد عَبَق العبير به وصاكا
ويمنع ثغره من كل صب ... ويمنحه البشامة والأراكا
يحدث مقلتيه النومَ عني ... فليت النوم حدّث عن نداكا

ويقول ما يدل على أنه يتوقع شرًا في طريقه:

فُزل يا بُعد عن أيدي ركاب ... لها وقع الأسنّة في حشاكا
وأيًا شئتِ يا طُرُقي فكوني ... أذاة أو نجاة أو هلاكا
فلو سرنا وفي تشرين خمس ... رأوني قبل أن يروا السِّماكا
يُشرّد يمنُ فنّاخسرَ عني ... قنا الأعداء والطعن الدراكا
وألبس من رضاه في طريقي ... سلاحًا يذعر الأعداء شاكا

فقوله: وأيا شئت ... الخ، وقوله إن يمن فناخسر يشرد عنه الأعداء والطعن، وإنّ رضاه سلاح له في طريقه- يشعر أنه يخاف الطريق، ويحذر عدوًا عليها أو لصًا.

وقد روى العكبري أن عضد الدولة قال: تطيرت عليه من ترك النجاة بين الأذاة والهلاك. ومعنى هذا أن سامع القصيدة شعر أن فيها ما يتطير منه. وقد قال من قبل في قصيدة يصف الأمن في بلاد عضد الدولة.

أروض الناس من تُرب وخوف وأرض أبي شجاع من أمان
يُذمّ على اللصوص لكل تَجْر ويضمن للصوارم كلَّ جان

وفي هذا إعراب عن إشفاق أبي الطيب من الطريق وتوقعه شرًّا فيها، وأنه عرف أن الطريق خارج مملكة عضد الدولة مخوفة. هذا ما يعرب عنه كلامه. وأحسبه عرف في العراق في طريقه إلى أرجان فشيراز أن السبل آمنة في أرض عضد الدولة مخوفة في بلاد العراق حيث سلطان معزّ الدولة البويهي ولا أدري أتوقع مع هذا شرًّا من عدو يقصده بسوء أم لا.

الفصل السابع عشر

رجوعه إلى العراق وقتله في الطريق

١

خرج أبو الطيب من شيراز لثمان خلون من شعبان قاصداً بغداد فالكوفة [١].

ويقول بعض الرواة إن أبا الطيب لما قدم على عضد الدولة ومدحه وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس محلاّة، ثم دس إليه من يسأله: أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال: إن سيف الدولة كان يعطي طبعًا، وعضد الدولة يعطي تطبعًا. فغضب عضد الدولة وأوصى إلى جماعة أن يقتلوه [٢]. وروى صاحب الإيضاح أن عضد الدولة قال: إن المتنبي كان جيد الشعر بالغرب. فلما بلغت المتنبي قال: الشاعر على قدر البقاع [٣].

وهاتان روايتان لا تثبتان على النقد. فأبو الطيب قد أفرغ وسعه في مدح صاحبه ونال من جوائزه ما ملأه شكراً. فكيف يقول ما نسب إليه؟! وكيف وهو يعلم أن كلامه حريّ أن يبلغ عضد الدولة؟! وتدل أخباره في شيراز أنه كان حذراً كل الحذر أن تنقل عنه كلمة تسخط عضد الدولة.

---

(١) ابن خلكان.

(٢) الصبح ص ٩٩.

(٣) الخزانة ج ١.

انظر الرواية الآتية:

قال صاحب الصبح المنبي: حكى عبد العزيز بن يوسف الجرجاني كاتب الإنشاء عند عضد الدولة، قال: لما دخل أبو الطيب المتنبي مجلس عضد الدولة وانصرف عنه، أتبعه بعض جلسائه وقال له: سله كيف شاهد مجلسنا؟ وأين الأمراء الذين لقيهم منا؟ قال: فامتثلت أمره وجاريت المتنبي في هذا الميدان. وأطلت معه عنان القول. فكان جوابه عن جميع ما سمع مني أن قال: ما خدمتْ عيناي قلبي كاليوم. ولقد اختصر اللفظ وأطال المعنى وأجاد فيه. وكان ذلك من أوكد الأسباب التي حَظى بها عند عضد الدولة.

فهذه الرواية أشبه بحزم أبي الطيب. ولماذا يقول الشاعر في أمير أفاض عليه عطاءه، إن هذا عطاء متكلف وسيف الدولة كان يعطي طبعًا؟ أكان يبغي إرضاء سيف الدولة وهو في شيراز ولا يبالي إغضاب عضد الدولة، وقد قصده وبذل في مدحه وسعه ونال من عطاياه ما أثقله شكراً. ورواية «الشعر على قدر البقاع» سبيلها في الرد والدحض سبيل أختها.

ثم ما الذي يغري عضد الدولة بقتل عظيم أشاد بذكره وآثره بالمدح على ابن عمه معز الدولة، ووعده أن يرجع إليه ليخلد مآثره. إن أعداء عضد الدولة أولى بهذه التهمة. وقد أدرك بعض المعاصرين أن قتل أبي الطيب إخفار لذمة عضد الدولة. فأنشأ أبياتاً يحرضه فيها على عقاب من أخفروا ذمته. وسيأتي هذا في رثائه.

سار الشاعر بمراكبه وأحماله وغلمانه حتى بلغ الأهواز. وبين الأهواز وشيراز واحد وخمسون فرسخًا. ثم سار خمسين فرسخًا حتى بلغ واسط. وهنا نقف لنعرض على القارئ روايتين: الأولى مروية في الصبح المنبى عن الخالديين، والثانية مروية في الخزانة عن الإيضاح.

قال الخالديان:

«كنا قد كتبنا إلى أبي نصر محمد الجبلى نسأله عما صدر لأبي الطيب المتنبي بعد مفارقته عضد الدولة وكيف قتل- وأبو نصر هذا من وجوه الناس في الناحية وله فضل وأدب جزل وحرمة وجاه- فأجابنا عن كتابنا جوابًا طويلا يقول في أثنائه: وأما ما سألتما عنه من خبر مقتل أبي الطيب فأنا أسوقه وأشرحه شرحًا بيّنًا».

وفي هذا الشرح يذكر أبو نصر قتل أبي الطيب وسببه ويبين تربص فاتك الأسدي في طريق الشاعر وعزمه على قتله فيقول:

«وأما شرح الخبر فإن فاتكًا هذا صديق لي. وهو كما سمي فاتك لسفكه الدماء وإقدامه على الأهوال في مواقف القتال. فلما سمع الشعر الذي هجى به ضبة اشتد غضبه. ورجع على ضبة باللوم وقال له: كان يجب ألاّ تجعل لشاعر عليك سبيلاً. وأضمر غير ما أظهر.

واتصل به انصراف المتنبي من فارس وتوجهه إلى العراق، وعلم أن اجتيازه بجَبُّل ودير العاقول. فلم يكن ينزل عن فرسه، ومعه جماعة من

بني عمه رأيهم في المتنبي مثل رأيه من طلبه واستعلام خبره من كل صادر ووارد.

وكان فاتك خائفًا أن يفوته. وكان كثيراً ما ينزل عندي. فقلت له يومًا وقد جاءني وهو يسأل قومًا مجتازين عن المتنبي، فقلت له: أكثرت المسألة عن هذا الرجل! فأي شيء تريد منه إذا لقيته؟ فقال: ما أريد إلاّ الجميل وعذْله على هجاء ضبة. فقلت له: هذا لا يليق بأخلاقك. فتضاحك ثم قال: يا أبا نصر والله لئن اكتحلت عيني به أو جمعتني وإياه بقعة لأسفكن دمه، ولأمحقن حياته. قلت له: كُفّ عافاك الله عن هذا القول، وأزل هذا الرأي من قلبك فإن الرجل شهير الاسم، بعيد الصيت؛ ولا يحسن منك قتله على شعر قاله، وقد هجت الشعراء الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام؛ فما سمعنا بشاعر قتل بهجائه. وقد قال الشاعر:

هجوتُ زهيراً ثم إني مدحتُه وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

ولم يبلغ جرمه ما يوجب قتله. فقال: يفعل الله ما يشاء، وانصرف.

ولم يمض لهذا القول غير ثلاثة أيام حتى وافاني المتنبي ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والطيب والتجملات النفيسة والكتب الثمينة والآلات. لأنه كان إذا سافر لم يخلف في منزله درهمًا ولا شيئًا يساويه. وكان أكثر إشفاقه على دفاتره لأنه كان قد انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحًا».

قال أبو نصر: «فتلقيته وأنزلته داري، وسألته عن أخباره وعمن لقي. فعرفني من ذلك ما سررت له. وأقبل يصف ابن العميد وعلمه وكرمه، وكرم عضد الدولة ورغبته في الأدب وميله إلى أهله.

فلما أمسينا قلت: يا أبا الطيب على أي شيء أنت مجمع؟ قال: علي أن أتخذ الليل مركبًا؛ فإن السير فيه يخفّ عليّ. فقلت: هذا هو الصواب. رجاء أن يخفيه الليل ولا يصبح إلاّ وقد قطع بلداً بعيداً. وقلت له: والرأي أن يكون معك من رجالة هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضع المخيفة جماعة يمشون بين يديك إلى بغداد. فقطب وجهه وقال: لم قلت هذا القول؟ قلت: لتستأنس بهم. فقال: أما والجُراز في عنقي فما بي حاجة إلى مؤنس غيره. قلت: الأمر إليك، والرأي في الذي أشرت عليك. فقال: تلويحك ينبى عن تعريض، وتعريضك ينبى عن تصريح. فعرّفني وبيّن لي الخطب. قلت: إن الجاهل فاتكًا الأسدى كان عندي منذ ثلاثة أيام، وهو غير راض عنك لأنك هجوت ابن أخته ضبة، وقد تكلم بأشياء توجب الاحتراز والتيقظ، ومعه أيضًا نحو العشرين من بني عمه قولهم مثل قوله.

فقال غلام أبي الطيب، وكان عاقلاً: الصواب ما رآه أبو نصر؛ خذ معك عشرين رجلاً يسيرون بين يديك إلى بغداد. فاغتاظ وشتمه شتمًا قبيحًا. وقال: والله لا أرضى أن يتحدث عني الناس بأني سرتُ في خِفارة أحد غير سيفي.

قال أبو نصر: فقلت: يا هذا أنا أوجّه قومًا من قِبَلي يسيرون بمسيرك وهم في خفارتك. فقال: والله لا فعلت شيئًا من هذا.

ثم قال: يا أبا نصر! أبخر الطير تخوفني، ومن عبيد العصا تخاف عليّ؟ والله لو أن مِخصَرتي هذه مُلقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد مُعطِشون بخمس، وقد نظروا إلى الماء كبطون الحياة ما جسُر لهم خُف ولا ظِلف أن يرده. معاذ الله أن أشغل فكري بهم لحظة عين. فقلت له: قل إن شاء الله تعالى. فقال: هي كلمة مقولة لا تدفع مَقضيًا ولا تستجلب آتيًا.

ثم ركب فكان آخر العهد به». أهـ.

نقف هنا لنتأمل في هذه الرواية المطولة قبل أن نقيسها إلى رواية أخرى:

يقول الخالديان إنهما كتبا إلى أبي نصر محمد الجَبُلى ثم يقولان «وأبو نصر هذا من وجوه الناس في تلك الناحية» وليس في الرواية تصريح باسم ناحية؛ ولكن ذكرت ضمنًا في نسبة أبي نصر «الجَبُلي». والذي أراه أنها نسبة إلى جَبَل. وهي بلدة بين النعمانية وواسط على دجلة تبعد عن النعمانية مسيرة فراسخ إلى الشرق والجنوب، وعن دير العاقول ثلاثة عشر فرسخًا فهذا الراوي من بلدة تبعد عن مقتل أبي الطيب نحو أحد عشر فرسخًا وهو يزعم أنه صديق للشاعر وقاتِله، وكلاهما نزل في داره قبل القتل بأيام قليلة. وخلاصة روايته:

١- أن فاتكاً الأسدي خال ضبة العيني الذي هجاه أبو الطيب كان يكثر السؤال عن الشاعر ليقتله انتقامًا لأخته التي هجاها. وقد صرّح بهذا لأبي نصر.

٢- وأن أبا الطيب نزل على أبي نصر بجبُل فأخبره ونصحه بالحذر فلم يقبل واحتقر فاتكًا وقومه احتقاراً شديداً. وغلا في كلامه غلوًّا لا يليق برجل عاقل.

وفي خزانة الأدب عن الإيضاح رواية أخرى نصها:

و«أخبرنا أبو الحسن السوسي في دار الوقف بين السورين، قال: كنت أتولى الأهواز من قبل المهلبي وورد علينا المتنبي ونزل عن فرسه ومِقودُه بيده، وفتح عيابه وصناديقه لبلل مسها في الطريق وصارت الأرض كأنها مَطارف منشورة. فحضرته أنا وقلت: قد أقمت للشيخ نُزلا. فقال المتنبي: إن كان ثم فهاته. ثم جاء فاتك الأسدي بجمع، وقال: قدم الشيخ هذه الديار وشرّفها بشعره والطريق بينه وبين دير قُنّة موحش، قد احتوشته الصعاليك. وبنو أسد يسيرون في خدمته، إلى أن يقطع هذه المسافة، ويبرّك لواحد منهم بثوب بياض. فقال المتنبي: ما أبقى الله بيدي هذا الأدهم وذباب الجُراز الذي أنا متقلده، فإني لا أفكر في مخلوق. فقام فاتك ونفض ثوبه. وجمع من رتوت الأعاريب الذي يشربون دماء الحجيج حسواً، سبعين رجلاً ورصدوا له: فلما توسط المتنبي الطريق خرجوا عليه، ... الخ».

هذه الرواية تؤيد الأولى في أنّ أبا الطيب أبى أن يسير في خفارة أحد وتخالفها في أن فاتكًا هو الذي عرض على الشاعر أن يخفره. ومعنى هذا أنه ما كان مبيتًا شرًّا له، وأنه لو قُبلت خفارته ما قتله. وفي الرواية مطاعن:

فقول أبي الحسن السوسي: «كنت أتولى الأهواز من قبل المهلبي ... الخ» يؤخذ منه أن مرور أبي الطيب بالأهواز كان في عهد المهلبي. والمهلبي توفى سنة ٣٥٢ كما تقدم.

ومطعن آخر: لو أن فاتكًا لقي أبي الطيب في الأهواز فعرض عليه خفارته فأبى فعزم على قتله أو سلبه، ما صبر عليه حتى قطع المسافة من الأهواز إلى واسط وهي خمسون فرسخًا ثم سار من واسط حتى جاوز النعمانية، كما سيأتي. ثم قول فاتك إن الطريق إلى دير قنة موحش- بعيد أن يقال في الأهواز وبينها وبين دير قنة مراحل كثيرة وبلدان عامرة، وإنما يقال مثل هذا في موضع قريب من دير قنة مثل النعمانية أو جَبّل.

ثم عرض فاتك خفارته على أبي الطيب وفي نفسه منه ما فيها مستبعد كذلك. فراوية أبي نصر أجدر بالقبول بعد حساب المبالغة فيها كقول أبي الطيب عن بني أسد: «أبخرء الطير تخوفني ... الخ.» فالرجل مهما تكبر وتهوّر كان أعقل من أن يقول مثل هذا القول. وأحسب أبا نصر حينما سئل عن مقتل أبي الطيب أراد أن يُبين عن نصيبه في هذه القصة التي يتشوف الناس إلى سماعها فأدخَل فيها شيئًا من الصنعة، ومبالغة القصاص، وبالغ في دعواه نصيحة أبي الطيب وفي إباء هذا قبول النصيحة.

٢

سار أبو الطيب من الأهواز إلى واسط فنزل بها. قال علي بن حمزة البصري عن القصيدة الكافية التي ودع بها الشاعر عضد الدولة: هذه القصيدة آخر شعر قاله أبو الطيب. وكتبتها والتي قبلها عنه بواسط يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة»[1].

بين واسط وبغداد زهاء أربعين فرسخًا. وعلى الطريق بلاد نذكر منها ما ذكر في روايات مقتل أبي الطيب؛ وهي النعمانية ودير قُنّى ودير العاقول والصافية.

النعمانية في نصف الطريق بين واسط وبغداد غربي دجلة وهي قائمة اليوم. وكانت تسمى بغيلة فأعيد اسمها القديم. ودير العاقول كان على شاطئ دجلة الشرقي، وكان عنده مدينة مسماة باسمه، وكان على ميل من النهر أيام ياقوت. وبينه وبين بغداد خمسة عشر فرسخًا، وبينه بين النعمانية زهاء خمسة فراسخ.

وإلى الجنوب الشرقي من دير العاقول على مقربة منه دير مرماري الذي يسمى دير قُنّى أو (قُنَة) وهو على ستة عشر فرسخًا من بغداد يبعد عن الشاطئ قليلاً.

---

(١) نسخة بغداد.

وأما دير قُنّى على الشاطئ الصافية إلى الجنوب والشرق من دير العاقول. وكانت على الشاطئ في زمن ياقوت (تنظر الخارطة).

وعلى نحو ثمانين كِيلاً من بغداد إلى الجنوب والشرق توجد اليوم أرض تسمى أرض الدير. ذهبت إليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف [1] فإذا تلال كثيرة متقاربة قليلة الارتفاع عليها حطام من الآجر والخزف تبعد عن شاطئ دجلة الشرقي نحو كيل واحد.

وقد سألت أعرابًا نازلين هناك من قبيلة شمَّر عن أرض أخرى تسمى أرض الدير في هذه الناحية فنفوا هذا. وسألت عن أسماء العاقول وقُنّى والصافية أتعرف اليوم هي أو ما يقرب منها فنفوا جازمين ...

وإذا نظرنا إلى المسافة بين هذه الأرض وبغداد فهي تقارب خمسة عشر فرسخًا. وهي تقارب المسافة المقدرة بين بغداد ودير العاقول في معجم البلدان وغيره.

ومهما يكن فأكبر الظن أن هذه التلال بقايا دير قُنّى أو دير العاقول. وكانا متقاربين. وهذا يدل على أن دجلة لم تغير مجراها كثيرا في هذه الناحية.

---

(١) ١٢ حزيران (يونية) سنة ١٩٢٦.

وأما الصافية فأحسب موضعها الآن في مجرى النهر. فقد كانت أيام ياقوت على ميل من دير قنى وعلى الشاطئ ويؤيد هذا قول صاحب مراصد الأطلاع عن الصافية: «وقيل موضع دجلة».

٣

الروايات في مقتل أبي الطيب متفقة في جملتها ولكن بعضها أبين وأكثر تحديداً من بعض. وهي في التحديد قسمان:

١- روايات تجعل مقتله قرب النعمانية أو قرب دير العاقول دون ذكر الموضع الذي قتل به [١].

٢- روايات تذكر الصافية على أنها موضع القتل أو قريبة منه. وهي على مقربة من دير العاقول، بينه وبين النعمانية. فليست تناقض الروايات الأولى بل تزيد عليها تحديداً [٢].

٣- رواية ابن خلكان التي تحاول الجمع بين الروايات فقول: «بالقرب من النعمانية في موضع يقال له الصافية من الجانب الغربي من سواد بغداد عند دير العاقول بينهما مسافة ميلين».

وحق أن الصافية قريبة من دير العاقول ولكنها ليست قريبة من النعمانية إلاّ قربًا نسبياً.

---

(١) انظر رواية أبي نصر الجبل في الصبح ورواية الخطيب البغدادي.

(٢) ابن الأنباري ونسخة الأوقاف والمعري.

٤- رواية ابن جنى ونسخة بغداد ونسخة ي الموصل [١] تذكر مكانًا محرّفاً مضطربًا بين فرع ونيزع وشرع. والصواب أنها نيزع كما يأتي في الكلام على المعركة. ونيزع قريبة من الصافية.

يستطيع الباحث بعد هذا أن يقول إن أبا الطيب قتل على مقربة من الصافية. ولكن ابن خلكان وابن الأنباري يقولان: «من الجانب الغربي من سواد بغداد» والصافية على الشاطئ الشرقيّ. فكيف هذا؟

رواية ابن خلكان متناقضة بلا ريب؛ فهو يقول في موضع يقال له «الصافية من الجانب الغربي» وهذا خطأ. وأحسبه اتبع ابن الأنباري فالعبارتان متقاربتان. فهل عبارة ابن الأنباري مقبولة؟

هو يقول: «حيال الصافية من الجانب الغربي» فيمكن أن يقال إن مقتل الشاعر في الجانب الغربي حيال الصافية على الضفة الشرقية. وكلمة حيال هذه صحفت في بعض الروايات إلى جبال وليس عند الصافية جبال.

كان جائزاً قبول رواية ابن الأنباري بهذا التفسير لو لم نعرف الطريق بين واسط وبغداد أتساير الضفة الشرقية أم الغربية من دجلة، ولكننا نعرف من كتب المسالك أن الطريق شرقي دجلة. وقد عرفنا أنه مرّ بجبل وليس لنا أن نفرض أنه سار شرقي النهر من واسط إلى جبّل حيث نزل على أبي نصر ثم عبر إلى النعمانية ليعبر إلى الشرق مرة أخرى. فكلمة الجانب الغربي ينبغي أن تكون محرفة عن الجانب الشرقي.

---

(١) مكتبة يحيى باشا الجليلي.

وخلاصة هذه الكلمة أن جمع هذه الروايات ونقدها وتعرّف مواقع البلاد التي ذُكرت في الروايات، والطريق بين واسط ودار الخلافة- كل أولئك يبين لنا أن مقتل أبي الطيب كان عند الصافية شرقيّ نهر دجلة على نحو ستة عشر فرسخًا من بغداد.

٤

الواقعة

سار أبو الطيب من واسط يؤمّ بغداد. وكان مسيره يوم السبت سابع عشر رمضان. وفي هذا اليوم كتب عنه راويته عليّ بن حمزة البصري القصيدتين الأخيرتين من شعره.

وبلغ جبّل بعد أن سار زهاء سبعة عشر فرسخًا فنزل عند أبي نصر الجبّلي كما تقدم.

ثم أخذ طريقه حتى حاذى النعمانية. وهي في نصف الطريق بين واسط وبغداد. وواصل سيره فمرّ بجَر جَراباً على أربعة فراسخ إلى الجنوب والشرق من دير العاقول. وتقدم حتى جاوز الصافية، وبينها وبين بغداد ستة عشر فرسخًا، متوجّهًا إلى دير العاقول.

وهناك كانت الموقعة التي قتل فيها الشاعر العظيم. وهذه روايات مختصرة عن هذه الوقعة. في آخر شرح ابن جنى:

«وقتل يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وقت منصرفه من شيراز، بنَيزَع بين الكِيل والرُّصافة والصافية، وابنُه وغلام له يعرف بمفلح؛ قتلهم فاتك بن أبي جهل الأسدي وفراس بن بداد. وقيل إنه قال له: يا قاذف المحصنات يا سبّاب! قبحًا لهذه اللحية».

وفي شرح المعرّى:

«وخرج من عند عضد الدولة حتى إذا قارب بغداد وخرج من دير العاقول، خرج عليه فرسان ورجال من أسد وشيبان. فقُتل بين الصافية ودير العاقول. وذلك يوم الاثنين لست ليال بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة. وقُتل معه عبده، وقتل ابنه بعده».

وفي النسخة البغدادية [1]:

قال علي بن حمزة البصري:

«هذه القصيدة (يعني الكافيّة التي ودّع بها عضد الدولة) آخر شعر قاله أبو الطيب. وكتبتُها والتي قبلها منه بواسط السبت لثلاث عشرة بقيت من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة. وسار منها فقتل بنيزع. قتله بنو أسد وابنَه وغلمانه. وأخذوا ماله يوم الأربعاء لليلتين بقيتا منه. والذي تولى

(١) انظر المقدمة في وصف نسخ الديوان التي رجعت إليها في تاريخ أبي الطيب.

قتله منهم فاتك بن أبي الجهل بن ذراس بن بداد[1]. ومن قوله له: قبحًا لهذه اللحية يا سبّاب. وذلك أن فاتكا هذا ذو قرابة لضبة بن يزيد العيني الذي هجاه المتنبي بقوله:

ما أنصف القوم ضبة ... الخ. وهي من سخيف شعره. وكانت سبب قتله. وذهب دمه».

وفي النسخة التي طبعت عليها الديوان، بعد القصيدة الكافية التي مدح بها عضد الدولة وودّعه:

«هذا آخر ما قاله أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي. ورحل من شيراز بعد ذلك في شعبان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة يريد الكوفة. فاعترضه فوارس بين دير العاقول والصافية. وكان التُمس منه خفارة لبعض الرجّالة ليسلكوا به الطريق ويحموا عنه فلم يفعل.

وقال: معي سيفي ورُمحي. أخفّرا!

ويقال إن الذين خرجوا عليه من بني كلاب مع ضبة بن محمد العيني لما هجاه به:

ما أنصف القوم ضبة

(١) يقرن هذا بما تقدم عن شرح ابن جني أن القاتل فاتك بن أبي جهل الأسدي وفراس بن بداد، والظاهر أن الواو زائدة.

وكان الفرسان نحو خمسين فارسًا. فقَتَل منهم جماعة وجرح جماعة فيهم عدة. وقُدّرت الحرب من ضحوة إلى الأولى. ثم كلّ أبو الطيب وولده ومملوكه. فلما تطاول الأمر استرسل وظفروا به. فقتلوه وولده والمملوك وأخذ جميع ما كان معه. ودفنوه في الموضع، وكان له قيمة كثيرة. ولم يكن طلبهم ما معه، سوى نفسه.

والذي قتله منهم فاتك بن فراس بن بداد. وكان قرابة لضبة.

ويقال إنه لما قرب منه فاتك كان معه عبد يقال له سراج فقال له: يا سراج أخرج إليّ الدرع. فأخرجها ولبسها وتهيأ للقتال ثم قال:

أفرغ الدرع يا سراج وأبصر ... ما ترى اليوم ها هنا من قتال
فلئن رحتُ في المكرّ صريعًا ... فانعَ للعالَمين كلَّ الرجال

ثم قال فاتك: قبحًا لهذه اللحية يا سبَّاب ...، فقال فاتك: ألست الذي تقول:

الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والطعن والضرب والقرطاس والقلم

فقال: أنا عند ذاك يا بن اللخناء العفلاء. ثم قاتل وبطح نفسًا أو نفسين. فخانته قوائم فرسه فغاصت إحداها في ثقبة كانت في الأرض. فتمكن منه الفرسان وأحاطوا به وقتلوه واقتسموا ماله ورحله. وأخذوا ابنه المحسّد وأرادوا أن يستبقوه. فقال أحدهم: لا تفعلوا واقتلوه، فقتلوه.

وحكى الشريف ناصر قال:

عبرت على بدنه. وكان مفروقًا بينه وبين رأسه. ورأيت الزنانير تدخل في فيه وتخرج من حلقه.

أعاذنا الله من كل سوء ومكروه بمنّه وطوله».

وفي نسخة بغداد أن فاتكاً كان في نيف وثلاثين فارسًا رامحين وناشبين.

وفي الخزانة- عن الإيضاح- أن فاتكاً كان معه سبعون فارساً. وأنهم قتلوا كل من كان مع أبي الطيّب، وأنّ فاتكاً حمل عليه وطعنه في يساره ونكّسه عن فرسه، وأن ابنه أفلت إلا أنه رجع يطلب دفاتر أبيه. فقنّه خلفه الفرس أحدهم وحزّ رأسه».

وقال صاحب الإيضاح:

«كان المتنبي يحفظ ديواني الطائيين ويستصحبهما في أسفاره ويجحدهما. فلما قتل توزعت دفاتره، فوقع ديوان البحتري إلى بعض من درس عليّ، وذكر أنه رأى خط المتنبي وتصحيحه فيه».

ويقول أبو نصر الجبّلي الذي أثبتّ روايته آنفًا:

«ولما صح خبر قتله وجّهت من دفنه ودفن ابنه وغلمانه وذهبت دماؤهم هدراً».

٥

نظرات في هذه الروايات

ندع جانبًا تفصيلاً تختلف فيه الروايات وهو غير ذي خطر، فنجد الروايات التي ذكرتها وروايات أخرى لم أجد حاجة إلى ذكرها تجمع على ما يأتي:

(أ) أن أبا الطيب قتل وهو راجع من شيراز إلى بلده.

(ب) وأن قتله كان في مكان قريب من الصافية ودير العاقول.

(ج) وأن الذي رصد له وخرج عليه هو فاتك الأسدي قريب ضبة العيني الذي هجاه الشاعر بالقصيدة المقذعة: ما أنصف القوم ضبة، القصيدة المشئومة التي يقول ابن جنى إنه كان يرى في وجه الشاعر الاشمئزاز وهو يقرؤها عليه.

(د) وأن معركة ثارت بين أبي الطيب ومن معه وبين فاتك ومن معه.

(هـ) وأن الشاعر وابنه محسّداً وبعض غلمانه قتلوا في المعركة وبعدها. وأقول إن أبا الطيب كان يستصحب غلمانه في أسفاره، وقد وصفهم في قصيدة رثى بها أبا شجاع فاتكاً:

في غلمة أخطروا أرواحهم ورَضوا ... بما رضيت رضا الأيسار بالزلَم
تبدو لنا كلما ألقوا عمائمهم ... عمائمٌ خلقت سوداً بلا لُثم
بيض العوارض طعّانون من لحقوا ... من الفوارس شلاّلون للنعَم
قد بلّغوا بقناهم فوق طاقته ... وليس يبلُغ ما فيهم من الهمم

فـــي الجاهليـــة إلا أن أنفـــسهم   مـن طيـبهنّ بـه فـي الأشـهر الحُـرُم

وذكرهم مرة أخرى في القصيدة التي ودّع بها ابن العميد:

تبـدّل أيـامي وعيـشي ومنزلـي   نجائبُ لا يُفكرن في النحس والسعد
وأوجــهُ فتيــان حيــاء تلثمــوا   علـيهن لا خوفًـا مـن الحـرّ والبـرد
ولـيس حياء الوجه في الذئب شيمة   ولكنـه مـن شـيمة الأسـد الـوَرد
إذا لـم تُجِـزهم دارَ قـوم مـودةٌ   أجـاز القنـا، والخـوفُ خيـر مـن الـوُد

ومثل أبي الطيب في أسفاره البعيدة التي يحمل فيها هبات الممدوحين لا يسير بغير أعوان.

وقد ذكر الرواة أن غلامه مفلحًا قتل معه، وذكروا أن بعض غلمانه قتل. وأكبر الظن أن الغلمان لم يثبتوا بعد قتل سيدهم. فمن لم يقتل قبله أو معه حين الوقعة نجا بنفسه بعد قتل سيّده.

والبيتان المرويّان في نسختي من الديوان:

أفرِغ الدرع يا سراج وأبصر ... الخ.

إن لم يكونا للشاعر فهما جديران به. ومثل أبي الطيب من يحسَب نعيَه نعَى الرجال كلها إلى الناس جميعًا.

٦

بقى تعيين اليوم الذي قتل فيه.

رواية ابن جنى أن القتل كان يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان.

ورواية علي بن حمزة البصري الأربعاء لثمان وعشرين من رمضان.

ورواية شرح المعري: الاثنين لأربع وعشرين من رمضان وروايات أخرى تذكر ٢٢ و٢٥ و٢٧. وإذا أخذنا بقول على بن حمزة البصري أنه كتب القصيدتين الأخيرتين عن الشاعر يوم السبت عشر من رمضان فيوم الاثنين يوافق ١٩ و٢٦. فرواة شرح المعري أن الاثنين يوافق ٢٤ غلط.

والأربعاء المذكور في رواية علي بن حمزة وابن جنى يوافق ٢١ و٢٨؛ فقول ابن جنى يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان غلط.

وتبقى رواية علي بن حمزة الذي كتب عن الشاعر يوم السبت ١٧، وقال إن مقتله كان الأربعاء ٢٨. وهي أصح الروايات فيما أرى.

ويؤيدها أن المسافة بين واسط ودير العاقول- وهي خمسة وعشرون فرسخًا- لا تقطع في يومين فلا تصحّ رواية يوم ١٩، ويبعد أن تقطع في ثلاثة أيام؛ فتبعد رواية ٢١.

فالظاهر بعد كل هذا، أن الرجل قتل يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة. كما يقول راويته على بن حمزة البصري.

رحم الله أبا الطيب الذي يقول:

ردى حياضَ الردى يا نفسِ واتّركي حياض خوف الردى للشاء والنَّعَم

إن لم أذَرْكِ على الأرماح سائلة فلا دعيتُ ابنَ أمّ المجد والكرم

الفصل الثامن عشر

رثاء أبي الطيب

أثبت هنا ما اطّلعت عليه من رثاء أبي الطيب لنعرف وقع قتله في نفوس الأدباء ولنتبين الصفات التي رثوه من أجلها.

رثاه صديقه أبو الفتح عثمان بن جنى بقصيدة رواها ياقوت بعد قوله: «وما كنت أعلم أنه ينظم القريض أو يسيغ ذلك القريض حتى قرأت له مرثية في المتنبي». وأثبتَ ستة عشر بيتًا. وكلامه يفهم أن هذه الأبيات بعض المرثية ولكن يظهر عند قراءتها أنها المرثية كلها وهي:

غاض القريض وأودت نَضرةُ الأدب ... وصوّحت بعد ريّ دوحةُ الكتب
سُلِبتَ ثوبَ بهاء كنتَ تلبسه ... كما تخُطفت بالخطيّة السُلُب
مازلت تصحب في الجُلى إذا انشعبت ... قلبًا جميعًا ورأيًا غيرَ منشعب
وقد حلبتَ، لعمري، الدهَر أشطُرَه ... تمطو بهمة لا وانٍ ولا نصِب
مَن للهواجل يُحبى مَيتَ أرسُمها ... بكل جائلة التصدير والحَقَب [1]
قبّاء خَوصاء مَحمودٌ عُلالتها ... تنبو عريكتُها بالحِلس والقتَب
أم من لبِيض الظبى توكافُهنّ دم ... أم من لسمر القنا والزُغْف واليَلَب
أم للجحافل يُذكى جَمر جاحمها ... حتى يقرّ بها من جاحم اللهب
أم للمحافل إذ تبدو لتعمرها ... بالنظم والنثر والأمثال والخطب
أم للصواهل مُحمرًا سرابلها ... من بعد ما غبَرت معروفة الشَهب
أم للمناهل والظلماءُ عاكفة ... يواصل الكرّ بين الوِرد والقرَب

---

(١) في الصبح بيت بعد هذا هو:

أم من لسرحانها يقريه فضلته ... وقد تضور بين اليأس والسغب.

أم للقساطل تعتمّ الحروب بها ... أم من لضَغْم الهزبر الضَيغَم الحرِب
أم للملوك يحلّيها ويُلبسها ... حتى تَمايَس في أبرادها القُشُب
باتت وسادِيَ أطرابٌ تؤرّقني ... لما غدوت لقًى في قبضة النُّوَب
عَمرَت خِدن المساعي غيرَ مُضطَهد ... كالنصل لم يَدَّنِس يومًا ولم يُعَب
فاذهب عليك سلام المجد ما قَلِقت ... خوص الركائب بالأكوار والشُّعَب

ورثاه أبو القاسم المظفر بن علي الطَّبَسي بأربعة أبيات رواها الثعالبي في اليتيمة:

لا رعى الله سِربَ هذا الزمان ... إذ دَهانا في مثل ذاك اللسان
ما رأى النّاسُ ثاني المتنبي ... أي ثان يُرى لِبكر الزمان
كان من نفسه الكبيرة في جيش ... وفي الكبرياء ذا سلطان
كان في لفظه نبيًا ولكن ... ظهرت معجزاته في المعاني

وفي رواية الصبح المنبي «هو في شعره نبي ولكن ... الخ».

وكذلك رثاه ثابت بن هارون الرّقى النصراني، وحرض عضدُ الدولة على عِقاب من قتلوه:

الدهر أخبثُ والليالي أنكَد ... من أن تعيش لأهلها يا أحمد
قصدتْك لمّا أن رأتك نَفيسَها ... بُخلا بمثلك، والنفائسُ تُقصَد
ذقتَ الكريهة بغتة وفقدتَها ... وكريهةُ فقدك في الورى لا يُفقَد
قل لي إن اسطعتَ الخطاب، فإنني ... صبّ الفؤاد إلى خطابك مُكمَد
أتركتَ بعدك شاعراً؟ والله لا ... لم يبق بعدك في الزمان مُقَصِّد
أما العلوم فإنّها يا ربَّها ... تبكي عليك بأدمع لا تجمُد

***

يـا أيهـا الملـك المؤيـدُ دعـوةً ... عمـن حـشاه بالأسـى يتوقـد
هـذي بنـو أسـد بـضيفك أوقعـت ... وحـوَت عطـاءك إذ حـواه الفرقَـد
ولـه عليـك بِقـصده، يـا ذا العلـى ... حـقّ التحـرم والـذّمام الأوكـد
فـارعَ الـذمام وكـن لـضيفك طالبًـا ... إن الـذمام علـى الكـريم مؤبّـد

الفصل التاسع عشر

بيت أبي الطيب

يقول أبو الطيب في قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران. وهو أحد ممدوحيه في الشام قبل اتصاله ببني حمدان:

في الناس أمثلة تدور حياتها ... كمماتها، ومماتُها كحياتها
هبتُ النكاح حذار نسلٍ مثلها ... حتى وفرتُ على النساء بناتها

وهذا يدل على أنه لم يتزوج إلى ذلك الوقت. وإذا أخذنا بترتيب الديوان فقد أنشأ هذه القصيدة بعد مفارقته بدر بن عمار أي بعد سنة ٣٢٩ هـ، وسن أبي الطيب حينئذ زهاء ستة وعشرين عاماً.

ولا ندري متى تزوج. ولكن دلنا على أن له عيالاً حين قال لسيف الدولة سنة ٣٣٧، وقد أزمع المسير لنُصرة أخيه ناصر الدولة وسأله أن يسير معه. قال:

يا مَن يَعزّ على الأعزّة جاره ... ويذل عن سطواته الجبار
كن حيثُ شئتَ فما تَحول تَنُوفة ... دون اللقاء، ولا يَشِطّ مَزار
وبدون ما أنا من وِدادك مُضمِر ... يَنضَى المطيّ وَيقرُب المستار
إن الذي خَلَّفتُ خلفي ضائع ... مالي على قلقي إليه خيار
وإذا صُحبتَ فكلُّ ماء مَشرَب ... لولا العيال، وكلّ أرض دار
إذن الأمير بأن أعود إليهم ... صلةٌ تسير بذكرها الأشعار

فقد أعلمنا أن له عيالاً يشفق عليهم. وقد نزح من العراق وحده فيما نعلم. فهؤلاء العيال زوجه وأولاده أو زوجه وحدها، وقد كنى عنها، تزوج الشاعر إذن قبل سنة ٣٣٧. وإن صحّ ترتيب الديوان في القصيدة التائية كما قلت آنفًا، فزواجه بين سنتي ٣٢٩ و٣٣٧هـ.

ويقول في رثاء ابن سيف الدولة (في بعض نسخ الديوان):

وقد ذقت حَلواء البنين على الصبي فلا تحسبنّي قلتُ ما قلتُ عن جهل

لا نجد في شعر أبي الطيب ذكراً لأهله من بعدُ إلا في مصر حين يقول في قصيدة مدح بها كافوراً في شوّال سنة سبع وأربعين وثلاثمائة:

يُضاحك في ذا العيد كلُّ حبيبه حِذائي وأبكي من أحب وأندب
أحنّ إلى أهلي وأهوى لقاءهم وأين من المشتاق عنقاء مُغرب
فإن لم يكن إلاّ أبو المسك أوهمُ فإنك أحلى في فؤادي وأعذب

ويقول في قصيدة الخروج من مصر:

عيدٌ بأية حال عدتَ يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد
أما الأحبَّة فالبَيداء دونهُم فليت دونك بِيداً دونها بيد

وفي النسخة (١٥٣٠) ونسخة الشرواني أبيات عنوانها في النسخة الأولى:

«وله بعد ما هرب من مصر يذكر شوقه إلى ابنه وإلى شيخ كان له محبًّا يسمى الحسين».

والأبيات مضطربة ومنها:

لـولا محمـد بـل لـولا الحسين لمـا رأيـت رأيـي بـوهن العـزم مختلطـا

وأحسب محمداً هنا محرفة عن محسّد، وهو مشهور في أخبار أبي الطيب. وفي هذا بيان أن ابنه لم يكن معه في مصر. وأحسبه ترك أهله بالشام ثم لحقوه بالكوفة أو سبقوه إليها.

ونجد أبا الطيب يذكر أهله من بعدُ في توديع ابن العميد. يقول:

وقـد كنـت أدركـتُ المنى غيـرَ أننـي يُعيّرنـي أهلـي بإدراكهـا وحـدي
وكـلّ شـريك فـي السـرور بمُصبَحي أرى بعـده مـن لا يـرى مثلَـه بعـدي

ويذكرهم كذلك في توديع عضد الدولة:

وكـم دون الثويَّـة [1] مـن حَـزين يقـول لـه قـدومي: ذا بـذاكا
ومـن عَـذْب الرّضـاب إذا أنخْنـا يُقبّـل رحـل تُـروَك [2] والوراكـا
يحـرّم أن يمَـس الطيـبَ بعـدي وقـد عَبَـق العبيـر بـه وصـاكا
ويمنَـع ثغـرَه مـن كـل صـبٍّ ويمنحـه اليـشامة والأراكـا
يحـدّث مقلتيـه النـومُ عنّـي فليـت النـوم حـدَّث عـن نـداكا

ولسنا نعرف عن زوجه شيئاً. وأكبر ظني أنها شامية. فقد تزوج بالشام. ولعلّ هذا يسر له ترك عياله هناك حين سار إلى مصر.

ولا نعرف من أولاده إلا محسّداً. ولم يذكره في شعره عدا الابيات الطائية التي قدمتها. وهي ملحقة ببعض النسخ.

---

(١) مكان قرب الكوفة.

(٢) اسم ناقة أعطاه إياها عضد الدولة.

وعندنا من أخبار محسَّد مع أبيه نُتف:

ذكر الحاتمي في حديثه عن لقاء أبي الطيب في بغداد أن الشاعر غضب علي رجل كان حاضراً مجلس فقال: «يا محسَّد خذ بيده وأخرِجه»[1].

وفي طبقات الأدباء عن أبي زكريا التبريزي أن المتنبي كان بواسط جالساً وعنده ابنه محسَّد قائمًا، وجماعة يقرءون عليه فورد إليه بعض الناس، فقال: أريد أن تجيز لنا هذا البيت وهو:

زارنا في الظلام يطلب ستراً فافتضحنا بنوره في الظلام

فرفع رأسه، وقال: يا محسَّد! قد جاءك بالشمال فأته باليمين فقال:

فالتجأنا إلى حنادس شعر سترتنا عن أعين اللُّوَّام

وروى صاحِب الإيضاح: وكان أبو جعفر وزير بهاء الدولة [2] مأموراً باختلاف إليه، وحفظ المنازل والمناهل من مصر إلى الكوفة وتعرفها منه. فقال: كنت حاضره وقام ابنه يلتمس أجرة الغسّال. فأحدّ المتنبي إليه النظر بتحديق فقال: ما للصعلوك والغسال؟ يحتاج الصعلوك إلى أن يعمل بيده ثلاثة أشياء. يطبخ قدرهن ويُنعل فرسه، ويغسل ثيابه. ثم ملأ يده قطيعات بلغت درهمين أو ثلاثة».

ليس عندي من أخبار الرجل في بيته وأخبار أولاده إلاّ هذه الشذرات. ولعل البحث يكشف عن غيرها فيما بعد.

---

(١) معجم الأدباء ج ٦ ص ٥١٢.

(٢) أظنها عضد الدولة.

الفصل العشرون

أخلاق أبي الطيب

لعل القارئ في غنى عمن يبي olkان له عن أخلاق أبي الطيب، بعد الذي قرأ من سيرته تفصيلاً، وبعد أن عرف كيف اختلفت الغِيرَ عليه، وكيف قابلها وأعرب عنها.

قد صحب القارئ الشاعر من نشأته إلى مماته؛ فهو عالم بأخلاقه، عارف بنزعاته، ولكني أحاول في هذا الفصل أن أردّ هذه الأخلاق والنزعات المتفرقة إلى أصولها في نفس الرجل، وأقول في ذلك قولاً يشبه أن يكون بيانًا وخلاصة لما قدمتُ في تاريخه:

١

جُمَاع أخلاقه

يتبين قارئ شعر الرجل ومتتبع سيرته الكبرياء والعُجب والإباء وبعد الهمة، والجرأة والإقدام والصبر، فيرى رجلاً قويَّ النفس كما كان قويَّ الجسم.

ويمكن ردّ هذه الأخلاق إلى ثلاثة: الشجاعة، والأنفة، وعلو الهمة. وهي أخلاق تتجلى في أقواله وأفعاله كلها إلاّ شذوذاً.

وقد مكنها في نفسه وأمرّها نشأته في البادية، ثم صحبة الأعراب في الحين بعد الحين من بعدُ، وكثرة أسفاره، وتعرضه للصعاب والمخاوف.

وإن في هجرته إلى الشام شابًا، وتطويفه في أرجائه، وهمّه بالثورة أو دعوته إلى بيعته وهو في حدود العشرين من العمر، ومساواة نفسه بالممدوحين وفي هجائه ابن كَيغَلغ هجاءً مُقذعًا، وهو رجل ذو باس، ومقابلة وعيده بالسخرية، وفي شهود الحروب مع سيف الدولة، وفي غضبته على هذا الأمير، وإنشاده القصيدة: «واحرّ قلباه ممن قلبه شيم»، ثم مغاضبته إياه وسيره إلى مصر، وفي تعاظمه في قصائد كافور، والاشتداد في مطالبته بإنجاز وعده، ثم خروجه من مصر إلى الكوفة يشق الأهوال والفيافي، وفي إبائه مدح المهلبي ومعز الدولة إذ لم يلقياه بما يستحق من الحفاوة، وهجاء ضبة بن يزيد وهو يعرف أخلاق البادية، وفي إبائه الحقارة وقد أخبر أن شرًّا يرصده في طريقه- في هذا كله وفي كلفه في شعره بالحرب والضرب والسؤدد والمجد والإباء والثورة، لبرهاناً على ما أقول لا تعوزه الدلالة والقوة.

وفي الإيضاح: «سمعت أنه قيل للمتنبي، قولك في كافور:

فارم بي ما أردتَ منّي فإني ... أسَدُ القلب آدميّ الرواء
وفؤادي من الملوك وإن كا ... ن لساني يُرى من الشعراء

ليس قول ممتدح ولا منتجع إنما هو قول مضاد. فأجاب المتنبي إلى أن قال: هذه القلوب كما سمعت، أحدها يقول:

يقرّ بعيني أن أرى قِصَد القَنا ... وصرعى رجال من وغًى أنا حاضره

وأحدهما يقول:

يقرّ بعيني أن أرى مَن مكانها ... ذُرًا عَقَدت الأجرع المتقاود»

ولولا أن الرجل كان طامعًا في المجد ولا عصبية له ولا مال فاضطر إلى المدح، وما يجرّه المدح من المذلة والنفاق- لبلغ في الإباء والشمم ومكارم الأخلاق عامّة أعلى مما بلغ.

٢

ترفعه عن الدنايا

وهذه الأخلاق أدت إلى تعاليه عن مسايرة شعراء وقته في اللهو والمجون ومعاقرة الخمر. فقد عرف بعفته وتنزّهه عما لا يليق بالرجل العظيم. وفخر بذلك في شعره على خلاف جمهرة الشعراء في عصره. قال في قصيده مدح بها أبا أيوب بن عمران:

وترى المروّةَ والفتوّة والأبوَ ... ةَ في كلُّ مليحة ضرّاتِها
هنّ الثلاث المانعاتي لذّتي ... في خلوتي لا الخوفُ من تَبعاتها

وقال في بعض القصائد السيفية:

وقد استقدتُ من الهوى وأذقته ... من عفّتي ما ذقت من بَلبالـه

***

وما كلّ من يهوى يعفّ إذا خلا ... عفافي ويُرضى الحبّ والخيل تلتقي

***

وأغيدُ يهوى نفسَه كلّ عاقل ... لبيب ويهوى جسمه كلُّ فاسق

وقال في قصيدة كافورية:

وغيرُ فؤادي للغواني رميّةٌ ... وغيرُ بناني للزجاج رِكاب
تركنا لأطراف القنا كلَّ شهوة ... فليس لنا إلاّ بهن لِعاب

وقال في أرجوزة عضدية: لا تخطر الفحشاء لي ببال.

وقد عُرف بين أهل عصره بتجنب الخمر على كثرة غشيانه مجالس الأمراء والكبراء. وكان أصدقاؤه يعرضون عليه الشرب فيجيبهم بمثل قوله:

لأحبتي أن يملأوا ... بالصافيات الأكؤبا
وعليهمُ أن يبذُلوا ... وعليَّ ألاّ أشربا
حتى تكونَ الباتراتُ ... المسمعاتُ فأطربا

وقد بلغ من إبائه الخمر أن حلف عليه صديق له بالطلاق ليشربنّ، وقال له الأمير ابنُ طغُج: بحقي عليك إلا شَربت. ولا أنكر أنه شرب مرات إجابة لأيمان أصدقائه، أو إلحاح ممدوحيه.

وهو ينقم على أمراء عصره الشربَ واللهو في مثل قوله لسيف الدولة:

ألهى الممالكَ عن فخر قَفلتَ به ... شربُ المدامة والأوتارُ والنغم

وقوله في مدحه وهو بالعراق مُعرّضًا بالأمراء الآخرين:

قعد الناس كلهم عن مساعيك ... وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا ... كالذي عنده تدار الشمول

٣

صدقه وكراهته التصنّع

ويتصل بهذا صدقه الذي عرف به حتى قال علي بن حمزة راويته: إنه ما كذب قط. وقد قال هو في بغداد:

فـي الـصدق مندوحـةٌ عـن الكـذب والجِـدّ أولـى بنـا مـن اللعـب

وفي ذلك البيت الفرد قاعدتان من قواعد أخلاقه.

ومـن ذلـك صـراحته ونفـوره مـن التكلـف حتـى فـضّل البـداوة علـى الحضارة بأن حسنها طبيعي:

حُـسن الحـضارة مجلـوب بتطريـة وفـي البـداوة حـسنٌ غيـر مجلـوب

وفضّل النساء البدويات على الحضريات بأنهن أصرح لفظًا وأبعد من الزينة:

أفـدى ظبـاء فـلاة مـا عـرفن بهـا مـضغ الكـلام ولا صـبغ الحواجيـب

بل عدّ خضاب الشيب من التمويه والكذب:

ومِـن هـوى كـل مـن ليـست مموَّهـة تركـتُ لـون مـشيبي غيـر مخـضوب
ومـن هـوى الـصدق فـي قـولي وعادتـه رغبتُ عـن شَعرٍ فـي الـرأس مكـذوب

٤

سخطه على الناس

وكـان أبـو الطيـب، فـي اعتـداده بنفسه وطموحـه إلـى الـسؤدد، وقـصور عـصبته وثروتـه عـن بلـوغ مـا أمّـل- حاقـداً علـى النـاس يحقـرهم ويـذمهم ويضطغن عليهم، ويتحدث بقتلهم كما مرّ. وكان حقده يتجلى حين يحقِره إنسان أو يحول دون غايته، انظر كيف هجا ابن كَيغَلغ وكافوراً وضبة بشعر فيه من الإقذاع ما يكاد يوفى بالقارئ على الشك في أنه شعر أبي الطيب.

٥

وفاؤه وتودّده

وكان على شدة في طبعه، ومرارة في جِدّه- ودوداً لأصدقائه وفيًّا لهم، يتبسط معهم ويمازحهم، ويأسي لفراقهم، ويجزع لموتهم.

انظر كيف تقسّم قلبُه بينه وبين بني حمدان، في أول مدائحه في كافور، وكيف رثى صديقه أبا شجاع رثاء صادقًا لم يُمله إلا الوفاء، ولم يكتف بمرثيّة بل رثاه ثلاث مرات. وكلّ مراثيه أنشأها بعد خروجه من مصر حين بعد عن فاتك وما يُذكّر به وانقطع كل أمل في الجزاء. وإحدى هذه المراثي قالها بعد وفاة صديقه بسنتين. فلم يكن الشاعر كاذبًا حين قال:

خُلقتُ ألوفًا لو رجعت إلى الصبا لفارقتُ شيبي موجَع القلب باكيا

وقد مثّل شدته على أعدائه ورقته مع أصدقائه في قوله:

ويَزيدني غضب الأعادي قسوة ويلُمّ بي عتبُ الصديق فأجزع

ومما أُثر من مزاحه- وللمزاح دلالة على الأخلاق- ما رواه صاحب اليتيمة عن ابن جنى. قال:

«حدثني أبو علي الحسين بن أحمد الصّنَوبري: قال خرجت من حلب أريدُ سيف الدولة. فلما برزت من السور إذا أنا بفارس متلثم قد أهوى نحويَ برمح طويل، وسدّده إلى صدري. فكنت أطرح نفسي عن الدابة فرَقًا. فلما قرب مني ثنى السنان وحسر لثامه، فإذا المتنبي وأنشدني:

نثرنا رءوسًا بالأحيدِب منهم كما نُثرت فوق العروس الدراهم

ثم قال كيف ترى هذا القول، أحسن هو؟ فقلت له: ويحك قد قتلتني يا رجل.

قال ابن جنى: «فحكيت أنا هذه الحكاية بمدينة السلام لأبي الطيب فعرفها وضحك لها، وذكر أبا علي من التقريظ والثناء بما يقال في مثله».

ويرى القارئ أن أبا الطيب لا يمزح إلا برمح.

ثم رأى أصدقائه المقرّبين كابن جنى، يشهد بأن الرجل كان صديقًا محموداً.

٦

انقباضه وتشاؤمه

وكان الشاعر العظيم حزين الطبع كثير التفكير في الدنيا وغيرها. فتراه ينطق بالكلمة الحزينة حيث ينتظر المقامُ غيرها أثناء مدح أو غزل.

يمدح سيف الدولة فيختم المدح بقوله:

ولو جاز الخلودُ خلدتَ فرداً ولكن ليس للدنيا خليل

ويقول في آخر قصيدة أخرى سيفية:

فهنّاك النصر معطيكه وأرضاه سعيُك في الآجل
فذي الدار أخونُ من مومِس وأخدعُ من كفّة الحابل
تَفاني الرجال على حبّها وما يحصلون على طائل

ويقول في القصيدة: «ليالِيّ بعد الظاعنين شكول»:

وما عشتُ من بعد الأحبة سَلوة ولكنني للنائبات حَمول
وإن رحيلاً واحداً حال بيننا وفي الموت من بعد الرحيل رحيل

وفي القصيدة: «ما لنا كلّنا جوٍ يا رسول» التي أرسلها إلى سيف الدولة من العراق:

زوّدينا من حسن وجهك ما دا م فحسنُ الوجوه حالٌ تحول
وصلينا نصِلُك في هذه الد نيا فإنَّ المُقام فيها قليل
من رآها بعينها شاقه القُطّانُ فيها كما تَشوق الحُمول

فانظر كيف غلبه الحزن والفكر في عاقبة الإنسان وهو يحاول النسيب.

ويقول في القصيدة العضدية: «أزائر يا خيال أم عائد»:

إذا خيالاته أطفُن بنا أضحكه أنني لها حامد
لا أنكر الفضلَ ربما فعلتْ ما لم يكن فاعلاً ولا واعد
ما تعرف العينُ فرق بينهما كلٌّ خيالٌ وصاله نافد

فبينما يذكر خيال الحبيب غلب عليه الفكر في فناء الناس. فقال: إن الخيال كالحبيب: «كلٌّ خيالٌ وصاله نافد».

فهذا جانب من أخلاق الرجل يتبينه المدقق في شعره.

٧

وصفه بالبخل

ومن الأخلاق التي شاعت عن أبي الطيب البخل، وقد رويت في هذا حوادثُ مُثبتة في اليتيمة والإيضاح والصبح المنبى:

قال الثعالبي: «سمعت الخوارزمي يقول كان أبو الطيب المتنبي قاعداً تحت قول الشاعر:

وإن أحـق النـاس بالبخـل شـاعر يلـوم علـى البخـل الرجـالَ ويبخـل

وإنما أعرب عن عادته وطريقته في قوله:

بَليتُ بِلى الأطلال إن لـم أقـف بهـا وقوفَ شحيح ضاع في الترب خاتَمه

فحضرت عنده يومًا بحلب وقد أحضر مالاً من صلات سيف الدولة، فصُبّ بين يديه على حصير قد افترشه، ووُزن وأعيد في الكيس، وإذا بقطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال قد تخللت خَلَل الحصير. فأكب عليها بمجامعه يَنقُرها، ويعالج استنقاذها منه، ويشتغل بذلك عن جلسائه حتى توصل إلى إظهار بعضها فتمثل بقول قيس بن الخطيم:

تبـدّت لنـا كالـشمس تحـت غمامـة بـدا حاجـبٌ منهـا وضـنّت بحاجـب

ثم استخرجها وأمر بإعادتها إلى مكانها من الكيس، وقال: إنها تحضر المائدة [1].

وخلاصة ما رواه صاحب الصبح أن سيف الدولة أتى ببَدرة فشقّها، فقام أبو الفرج الببغاء وابن خالويه وأخذا منها. ولم يقُم أبو الطيب. فاغتاظ سيف الدولة ونثرها على الغلمان. فقام أبو الطيب يزاحمهم، فغمزهم عليه فداسوه.

---

(١) اليتيمة ج ١، ص ٨٤.

وأنّ ابن العميد خالف أبا الطيب في سيفين أيهما أقطع. فاقترح أبو الطيب أن يجرّب السيفان في قطع الدنانير. وضرَب عشرين ديناراً فقطعها وقام يلتقطها، فقال ابن العميد: «ليلزم الشيخ مجلسه فإن أحد الخدم يلتقطها ويأتي بها إليك. فقال: بل صاحب الحاجة أولى».

فأما قصة اليتيمة فليس فيها دليل بيّن على البخل وقد يتشاغل الإنسان بمثل هذا رغبة في التشاغل. على أن الرجل جعلها مزاحًا حين قال: تبدت لنا كالشمس... الخ.

وقصة سيف الدولة بعيدة من كبرياء أبي الطيب. وما أحسبه قام لمزاحمة الغلمان ولكن سيف الدولة نثرها عنده، وأغرى غلمانه به. فإن صلحت القصة دليلاً على شيء فهي دليل على أنفة أبي الطيب من أن يقوم إلى سيف الدولة ليأخذ من البدرة التي شقها كما قام التبغاء وابن خالويه، وكيف يستكبر عن أن يقوم إلى المال ليأخذه من يد الأمير، ولا يستكبر أن يلتقطه من الأرض ويزاحم فيه الغلمان؟!

وقصة ابن العميد يمكن أن يقال فيها إن أبا الطيب ما كان خائفاً من ضياع الدنانير في مجلس ابن العميد. وكان يستطيع أن يأمر بجمعها وهو قاعد، ويثق بتحصيلها، ولكنه كان مجلس رهان ولهو لا يلزم فيه التوقّر.

ولعلّ قصة الحصير وقصة ابن العميد تمثّلان ما في خلق الرجل من التياسر وتجنّب التكلف، كقصة الغسّال التي تقدمت في أخبار محسّد ابنه. ولست أدفع عن الرجل البخل ولكني أبيّن مقدار دلالة هذه القصص.

قد تقدم قول الخوارزمي في بخل أبي الطيب. وقال ابن فورّجة: «ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه إلا بخله وشرهه على المال».

ربما يكون شيوع الحديث عن بخله دليلاً عليه، ولكن ينبغي أن يُحسَب في هذا كلَف حسّاد الرجل بالطعن عليهن ومبالغة الناس في مثل هذا؛ وتوهّمهم أن الشعراء أغنياء بما ينالون من صلات، ومحاسبتهم إياهم على هذا الغني محاسبةً يبالغون فيها مبالغتهم في تقدير الصلات التي ينالونها.

على أن أبا الطيب كان صريحاً في الإيصاء بتدبير المال وتوفيره لأنه وسيلة المجد وعماده:

فلا ينحَلِل في المجد مالُك كلُّه فينحلَّ مجدٌ كان بالمال عَقده
ودبّره تدبيرَ الذي المجدُ كفُّه إذا حارب الأعداء والمالُ زَنده

والحرص على المال وتدبيره ليس غريباً من رجال كأبي الطيب طموح إلى السؤدد ليس له من وسيلة إليه إلا المَال. وقد فسّر ذلك حين سُئل عن بخله في قصّة تشفع طرافتها لإثباتها هنا على طولها؛ وقد تقدمت الإشارة إليها في الكلام على ذهابه إلى بغداد في صباه. قال صاحب الصبح المنبى:

«قال أبو البركات بن أبي الفرج المعروف بابن زيد التكريتي الشاعر:

بلغني أنه قيل للمتنبي: قد شاع عنك من البخل في الآفاق ما قد صار سمرَاً بين الرفاق. وأنت تمدح في شعرك الكرم وأهله وتذمّ البخل وأهله. ألستَ القائل:

ومن يُنفِقِ الساعاتِ في جمع ماله مخافةَ فقرٍ فالذي فعل، الفقر

ومعلوم أن البخل قبيح، ومنك أقبح؛ فإنك تتعاطى كبر النفس وعلوّ الهمة وطلبَ الملك، والبخل ينافي سائر ذلك. فقال: إن للبخل سببًا؛ وذلك أني أذكر أني وردت في صباي من الكوفة إلى بغداد، فأخذت خمسة دارهم بجانب منديلي وخرجت أمشي في أسواق بغداد، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة، فرأيت عنده خمسة من البطيخ باكورة، فاستحسنتها ونويت أن أشتريها بالدراهم التي معي. فتقدمت إليه وقلت: بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ؟ فقال بغير اكتراث: اذهب فليس هذا من أكلك. فتماسكت معه وقلت: يا هذا دع ما يغيظ واقصِد الثمن. قال: ثمنها عشرة دراهم. فلشدّة ما جبهني به ما استطعت أن أخاطبه في المساومة. فوقفت حائراً ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل. وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهبًا إلى داره. فوثب إليه صاحب البطيخ من الدكان ودعا له، وقال: يا مولاي هذا بِطّيخ باكورة، بإجازتك أحمله إلى البيت؟ فقال الشيخ: ويحك بكم هذا؟ قال: بخمسة دراهم. قال: بل بدرهمين. فباعه الخمسة بدرهمين، وحملها إلى داره، ودعا له وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل.

فقلت: يا هذا ما رأيت أعجَبَ من جهلك! استَمتَ عليّ في هذا البطيخ، وفعلت فعلتك التي فعلت، وكنتُ قد أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم فبعتَه بدرهمين محمولاً. فقال: اسكت هذا يملك مائة ألف دينار.

فعلمت أن الناس لا يكرمون أحداً إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة ألف دينار. وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون: إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار».

إن لم تكن هذه القصة حقًّا فهي تمثل ما كان في نفس أبي الطيب من التوسل إلى الجاه والسؤدد بجمع المال إذ لم يكن له وسيلة أخرى.

***

ذلك إجمال القول في أخلاق أبي الطيب كما نعرف من سيرته وشعره. ومن روايات شتى في كتب الأدب.

وينبغي ألا يعوّل على غير هذا من أقوال لا ينصرها دليل، ومطاعن أشاعها الحسّاد وخذلها الحق.

٨

اتهامه بالغدر والكنود

يقول بعض الكاتبين عن أبي الطيب إنه لا خُلق له، فهو منافق متقلب تقلّب الأحوال كَنود. يمدح الرجل فيُفضّله على الناس طُرًّا، ثم يتركه إلى غيره فينسى ما قال من قبل، ويرفعه فوق البشر ثم يتركه إلى ثالث وهلم جرا. وهو قد صحب سيف الدولة ثماني حِجج فأدرّ عليه الرزق، ونبّه من ذكره. فلم يمنعه ذلك أن يهجرَه مغاضبًا ويذهب إلى كافور فينظم في مدحه روائع القصائد، ويعرّض بصديقه القديم بل يهجوه في مثل قوله:

رأيتكم لا يصونُ العرضَ جارُكم ولا يدرّ علىَ مَرعاكم اللبن

وقد أقام في كَنَف كافور أربع سنين يمدحه في الحين بعد الحين، ثم سخط عليه ففارقه مُراغمًا وصبَّ عليه لعنات محقت مدائحه كلها.

كذلك يقول القائلون. ومنهم من يُفيض على الشاعر من السب والهجاء ما يُذكّرنا بأهاجي كافور.

وجوابي عن الشق الأول أن ذنب أبي الطيب في هذا أنه كان من شعراء القرن الرابع فسار على سنن سلفه ومعاصريه من الشعراء. وكان عُرف الناس يبيح للشاعر أن يكسب المال بشعره ولا يرى في هذا مهانة. وإذا تصدَّى الشاعر للمدح فإنما هي صناعة قِوامها خَلق المعاني وتصويرُها ورفعُ قدر الممدوح بها، وإبعاد صيته فيها. ولم يكن هذا المدح كلّه حقًّا فيجب على الشاعر أن يلائم بين ما قال أمس وما يقول اليوم. فإذا أردنا أن نقدر أخلاق الرجل فعلينا أن نزنها بميزان القرن الذي عاش فيه.

وأما سيرة الشاعر مع سيف الدولة فالرجل كان أعرف بصاحبه. وقد احتمل هناتٍ ما زالت تتوالى حتى ضاق بها ذرعه، فأنذر صديقه وحذّره فراقه. فلم يحذر واستمرّ يستمع للمفسدين حينًا بعد حين.

وقد فارقه مغاضبًا وعتَب عليه أحيانًا فعرّض به، وذكر أياديه أحيانًا فمدحه وأعرب عن ندمه لمفارقته في مدائح كافور. وكان تعريضه وتصريحه في بني حمدان أشبهَ بقول الصديق الغاضب العاتب، الذي يجزع لفراق صديقه ويحاول أن يسوّغ هذا الفراق.

وسيف الدولة نفسه لم يرَ في فعل أبي الطيب ما يصده عن مكاتبته والإهداء إليه، ودعوته إلى جانبه وترغيبه في معاودة صحبته، وأبو الطيب هو الذي استمرّ عاتبًا على صديقه يؤاخذه باستماعه لوشايات حسّاده، ويُعلمه أنه خائف أن تعود الوشايات سيرتها الأولى. وقد أسلفت بيان هذا في الكلام على الشاعر والأمير في الفصل الخامس عشر.

وأما كافور فقد قصده الرجل تاركاً صديقاً جذَب بضبعه وأسبغ عليه برّه، وحساداً ينالون منه ويرمونه بالغدر والكفران، منطويًا على أمل عظيم، راجيًا أن ينال المجد الذي طمع إليه، وأن يبلغ في مصر ما ينفي عنه قول أعدائه وطعن حساده. فأدناه كافور من أمله بمواعيده، ثم مطله وسقاه الخيبة جرعة بعد جرعة، ثم اضطره إلى الفرار خائبًا خائفًا بعد انتظار سنوات أربع، فمضى وكأنه يسمع قهقهة سيف الدولة ومن حوله، ويحسّ شماتة أعدائه أنّى توجه.

وقد أعرب عما في نفسه من سيف الدولة وكافور ومن الملوك عامة في قوله لابن العميد: إني ملقًّى من هؤلاء الملوك أقصد الواحد بعد الواحد، وأملّكهم شيئًا يبقى ببقاء النيّرين، ويعطونني عرضًا فانيًا [1].

لا أنكر أن الشاعر قسا على كافور واشتد في عتبه على بني حمدان. فإن يكن أبو الطيب ملومًا على شيء فعلى غلوّه لا على أنه فارق سيف الدولة أو هجا كافوراً.

---

(١) انظر ص ١٧٢.

وحسب أبي الطيب أنه لم يهج أحداً قط بأنه حرمه مالاً أو أكدى في عطاء، وقد أعطاه أحد الممدوحين ديناراً، وأعطاه آخر دراهم قليلة، كما تقدم؛ فما هجا أحداً بمنع أو تقتير وإنما هجا من أراد الغض منه أو سامه هوانًا. هجا من أخذ عليه طريقه وحاول أن يقسره على أن يمدحه؛ وهو ابن كيغلغ، ومن ملأ نفسه أملاً بواعيده وكذبه ثم مطله وأخلفه؛ وهو كافور. وعرّض بصديق رفع قدرَه ثم تجنى عليه يبتغي أن ينال ثمن ما أعطاه من أنفته وإبائه؛ وهو سيف الدولة. ثم هجا ضبة بن يزيد استجابة لأصدقائه وردًّا لشتمه. ولست أدفع عن الشاعر اللوم في هذا الهجاء ولكن أقول إنه لم يهج من أجل المال.

٩

قول معاصريه في أخلاقه

وأختم هذا الفصل بإثبات آراء بعض معاصري أبي الطيب إذ كانوا أعرف به وأبصر بزمانهم، وأقدر على تقدير الأخلاق فيه.

قال ابن فورّجه:

«كان المتنبي داهية، مرّ اللسان، شجاعًا، حافظًا للآداب، عارفًا بأخلاق الملوك. ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطعه إلاّ بخله وشرهه على المال»[1].

وقال صاحب الإيضاح:

---

(١) الصبح ص ٥٠.

«وكان المتنبي مرّ النفس، صعب الشكيمة حادًّا مُجدًّا».

وقال أبو الفتح بن جنى:

«ولقد كان من الجِد فيما يعانيه، ولزوم أهل العلم فيما يقوله ويحكيه، على أشدّ وتيرة، وأحسن سيرة ...، وحقًّا أقول لقد شاهدته على خلق قلما تكامل إلاّ لعالم موفق»[1].

وأخيراً أقول: إن لم يكن أبو الطيب عني نفسه بهذه الأبيات فهي المثل الذي يصبو إليه:

وأهوى من الفتيان كلَّ سَمَيدع ... نجيب كصدر السمهريّ المقوَّم
خَطت تحته العيسُ الفلاةَ وخالطت ... به الخيلُ كَبَاتِ الخميس العرمرم
ولا عفَّةٌ في سيفه وسنانه ... ولكنها في الكف والفرج والفم

(١) مقدمة شرح ابن جنى.

الفصل الحادي والعشرين

البداوة في طباع أبي الطيب وشعره[1]

في خلق أبي الطيب قوة وخشونة تميلان به إلى كل قويّ وكلّ خشن، وتعدلان عن كل ضعيف وكل لين، وفي خلقه صراحة تحبب إليه كل صريح من القول والفعل والرأي، وتنفره من كل مموّه مزخرف. وقد لاءمت هذه الأخلاق التبدّي، وزادها التبدي تمكنًا فيه، وظهر أثر هذا في فعله وقوله. وسأمر بسيرة أبي الطيب سريعًا منبهًا إلى الحادثات والأقوال الدالة على حبّه البداوة والمبينة عن تمكن البداوة في طبعه وأثرها في نفسه.

١

عاش الشاعر في البادية حقبة وهو صبي. روى الخطيب البغدادي عن محمد بن يحيى العلوي الكوفي أن أبا الطيب صحب الأعراب في البادية سنين ثم رجع إلى الكوفة بدويًا قحًا. وعاش في الشام بين البدو والحضر، وبعض ممدوحيه هناك من رؤساء البادية مثل سعيد بن عبد الله الكلابي وشجاع بن محمد الطائي. وهو يقول في الشام:

أوانًا في بيوت البدو رحلي ... وآونةً على قَتَد البعير
أعرّض للرماح السمر نحري ... وأنصِب حُرَّ وجهي للهجير
وأسرى في ظلام الليل وحدي ... كأني منه في قمر منير

(١) مقال ألقيته في مهرجان أبي الطيب في دمشق ثم ألحقته بالكتاب.

ويقول:

ومُدقعين بسُبروت صحبتُهم عارين من حُلل كاسين من دَرن
خُرَّاب بادية غرثى بطونهم مَكْن الضِّباب لهم زاد بلا ثمن
يستخبرون فلا أعطيهم خبري وما يطيش لهم سهم من الظِّنن

وفي مصر حنَّ إلى البادية وفضّل البداوة على الحضارة، وتغزل بالبدويات في القصيدة التي مطلعها:

مَن الجآذر في زيّ الأعاريب حمرُ الحلى والمطايا والجلابيب؟

يقول فيها:

ما أوجه الحضر المستحسناتُ به كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوبٌ بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الآرام ناظرةً وغيرَ ناظرة في الحسن والطيب
أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا خرجن من الحمام مائلة أوراكهنّ صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموّهة تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبت عن شعرٍ في الرأس مكذوب

وكانت له في مصر مع بعض رؤساء القبائل مودة. فلما أزمع الرحيل مغاضباً كافوراً استعان بأحد أصدقائه- عبد العزيز بن يوسف- ببلبيس وسأله دليلاً فأنفذه إليه وقال في هذا:

جزى عربًا أمست ببُلبَيس ربُّها بمسعاتها تقررِ بذاك عيونها
كراكر من قيس بن عيلان ساهراً جفونُ ظباها للعلي وجفونها
وخَصَّ به عبد العزيز بن يوسف فما هو إلاّ غيثها ومَعينها

فتى زان في عيني أقصى قبيلة وكم من فتى في حِلَّة لا يزينها

وكان سيره من الفسطاط إلى الكوفة برهانًا بينًا على ما تمكن في نفسه من أخلاق البادية وعاداتها، ودليلاً على خبرته بالسير في البِيد، فقد سلك طريقًا أُنفًا لا تسلكه القوافل. وذكر في قصيدته التي وصف بها سفره اثنين وعشرين موضعًا ليس على السبل المطروقة منها إلاَّ اثنان أو ثلاثة، فما سلك طريق الحاج المصري إلى الحجاز، ولا طريق دمشق إلى الكوفة، ولا طريق الفرات، بل سار على أحياء البادية والمفاوز المجاهيل والمياه الأواجن حتى بلغ غايته.

وكانت له في مسيره وقائع تمثله بدويًا قحًّا خبيراً بقبائل البادية وعاداتها، مزوداً بجرأة الأعراب وإقدامهم.

٣

لما بلغ نخلاً في سيناء ألفى خيلاً صادرة عن الماء فأشفق أن يكونوا عيونًا عليه أو عدوًّا له فقاتلهم وغلبهم. ولما قرب من النِّقاب رأى رجلين فطردهما وأخذهما فأخبراه أنهما رائدان من بني سليم فخلاَّهما. وسار وهما معه حتى توسط بيوت بني سليم آخر الليل فضرب له ملاعب بن أبي النجم خيمة بيضاء وذبح له. وغدا فسار إلى النقع فنزل ببادية من مَعن وسُنبُس فذبح له عفيف المَعنى غنمًا وأكرمه. وغدا من عنده وبين يديه لصان من جُذام يدلاَّنه. ولما بلغ حِسمى في شمال الحجاز وجد بني فزارة شاتين بها، فنزل بقوم من عَدىّ فزارة فيهم أولاد لاحق بن مخلب.

وكان بينه وبين أمير فزارة حسان بن حكمة مودة، وأراد ألاَّ يُعلم ما بينه وبينهم من ودّ فنزل بجار لهم من طيء. واستطاب أبو الطيب حسمى فأقام بها شهرا، وما أحبَّ المُقام بالبادية إليه! ... ثم استراب ببعض عبيده وظن أنهم يسرقون أمتعته ويريدون سرقة سيف ثمين كان معه، أغراهم على هذا وردان بن ربيعة، فأرسل إلى فتى من بني مازن اسمه فليتة بن محمد وكان قد عرفه من قبل. فلما جاءه المازني تقدم شاعرنا فشد أحماله، وعبيدُه نيام. ثم أيقظهم وطرحهم على الإبل وسار والقوم لا يشعرون. وأخذ بعض العبيد السيف فدفعه وفرسه إلى عبد آخر. وجاء إلى فرس أبي الطيب ليأخذه فانتبه الشاعر البدوي الشجاع فقال العبد مخادعًا: أخذ الغلام فرسي! وعدا إلى فرس سيّده ليركبه، فالتقى هو وأبو الطيب عند الفرس. وسلّ العبد السيف فضرب الرسَن فضرِب أبو الطيب وجهه فقتله. وأرسل رجلاً من بني خفاجة وآخر من بني مازن ليدركا العبد الذي أخذ السيف فلم يقدرا عليه. وفي قتل العبد يقول الشاعر:

أعددت للغادرين أسيافا ... أجدع منهم بهن آنافا
لا رحم الله أرؤسًا لهم ... أطَرْن من هامهنّ أقحافا

إلى قوله:

إذا امرؤ راعني بغَدرته ... أوردته الغاية التي خافا

وأراد أبو الطيب أن يسلك إلى مكان اسمه البياض فأرسل فُليتة إلى الأعراب الذين في طريقه فعميت عليه أنباؤهم، وخشى أن يكون له على الطريق رصَد. فعدل إلى دومة الجندل وواصل سيره حتى بلغ الكوفة في

شهر ربيع الأول سنة ٣٥١ بعد ثلاثة أشهر من خروجه من الفسطاط. فهل يستطيع أن يسير هذا المسير ويفعل هذه الأفعال إلا بدوى جريء خبير بالبوادي؟ أليس في هذا تصديق قوله:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والطعن والضرب والقرطاس والقلم

ألا يحق له أن يفخر به فيقول:

فلما أنخنا ركزنا الرما ح بين مكارمنا والعُلى
وبتنا نقبل أسيافنا ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أني الفتى
وأني وفيت وأني أبيت وأني عتوت على من عتا

وفي هذه القصيدة روح البداوة وألفاظها. انظر قوله:

وقلنا لها أين أرض العراق فقالت ونحن بتربان: ها

واسأل اليوم بدويًّا عن مكان قريب يقل لك: ها.

٤

وفي قصة هجاء ضبة بن يزيد العيني دليل آخر على تبدّيه، فقد اجتاز بالطَّفّ فنزل بأصدقاء له. وساروا إلى ضبة وسألوه أن يصحبهم فلم يسعه إلاّ السير معهم كما يقول الشاعر في بعض الروايات. فسيرُ الشاعر مع أصدقائه إلى قتال ضبة أو إرهابه دليل على ما تمكن من نفسه من عادات البادية.

٥

ولما رحل إلى فارس افتقد الوجه العربي واليد العربية واللسان العربي وهو يصف مغاني شِعب بَوّان:

ولكنّ الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان
مَلاعب جِنّة لو سار فيها ... سليمانٌ لسار بترجمان

وافتقد عرب دمشق الذين كانوا يكرمون مثواه فقال:

ولو كانت دمشق ثنى عناني ... لبيق الثَّرد صيني الجفان
تحل به على قلب شجاع ... وترحل منه عن قلب جبان
منازل لم يزل منها خيال ... يشيّعني إلى النَّوبَنذجان

وذكره الثرد والنّار يدل على أنه يريد بادية دمشق لا حاضرتها. وقال في أول قصيدة مدح بها عضد الدولة:

أحب حمصًا إلى خُناصرة ... وكل نفس تحب محياها
حيث التقى خدها وتفاح ... لبنان وثغرى على محيّاها
وصِفت فيها مصيف بادية ... شتوت بالصّحصَحان مشتاها
إن أعشبت روضة رعيانها ... أو ذكرت حِلّة غزوناها
أو عرضت عانةٌ مقزَّعة ... صدنا بأخرى الجياد أولاها
أو عبرت هَجمة بنا تُركت ... تكوس بين الشروب عَقراها

فهذه عيشة أهل البادية وعاداتهم يحن إليها أبو الطيب وهو يمدح: ملكاً في بلاد الفرس. ورجع إلى التغزل بالبدويات فقال في القصيدة التي مطلعها:

اثِلـــث فإنـــا أيهـــا الطلـــل نبكـــي وتُـــرزِم تحتنـــا الإبـــل

***

الحـــسن يرحـــل كلمـــا رحلـــوا معهـــم وينـــزل كلمـــا نزلـــوا
فـــي مقلَتـــي رشـــأ تـــديرهما بدَويـــة فتنـــت بهـــا الحِلـــل
تـــشكو المطـــاعُم طـــول هجرتهـــا وصـــدودَها. ومـــن الـــذي تـــصل؟
مـــا أســـأرتْ فـــي القعـــب مـــن لـــبن تركتـــه وهـــو المـــسك والعـــسل

وقصة قتله برهان آخر على ما ندعي، فقد حذَّره أبو نصر الجَبلي وأشار عليه أن يستصحب خفراء فأبى أن يسير في خفاره.

٦

وشعر أبي الطيب تتجلى فيه قوة البداوة وعزتها. ومن آثار البداوة فيه تهاونه في خطاب الممدوحين وخروجه عن الإلف أحيانًا. ولذلك أخذ عليه النقاد مآخذ لا يتسع المقام لذكرها. ومن آثارها الكلف بالحرب وآلاتها والخيل والسفر، وشعره مليء بهذا. ومن ذلك وصف الحبيبة بالمنعة في مثل قوله:

حبيـب كـأن الحـسن كـان يحبـه فـآثره أو جـار فـي الحـسن قاسـمه
تحـول رمـاح الخـط دون سـبائه وتُـسبى لـه مـن كـل حـيّ كرائمـه
ويُـضحى غبـارُ الخيـل أدنـى سُـتوره وآخرهـا نـشر الكبـاء الملازمـه

وقوله:

ومـــا شـــرقي بالمـــاء إلاَّ تـــذكراً لمـــاء بـــه أهـــل الحبيـــب نُـــزول
يحرمـــه لمـــع الأســـنة فوقـــه فلـــيس لظمـــآنٍ إليـــه ســـبيل

وقوله:

متى تزر قوم من تهوى زيارتها ... لا يتحفوك بغير البيض والأسل

وقوله:

سوائر ربما سارت هوادجها ... منيعة بين مطعون ومضروب
وربما وخَدت أيدي المطيّ بها ... على نجيع من الفرسان مصبوب

ومن أثر البداوة استعمال بعض الألفاظ الغريبة أحيانًا بما ألف من خطاب الأعراب والأخذ عنهم. وقد رأيته في كثير من تعليقاته على ديوانه يحتج بما سمع عنهم. واكتفى هنا بمثال واحد. قال في قصيدته يعزى بها عضد الدولة:

مثلك يثنى الحُزن عن صوبه ... ويسترد الدمع من غربه
إيما لإبقاء على فضله ... إيما لتسليم إلى ربّه

ثم أتى بشواهد على وضع العرب إيما مكان إما، إلى أن قال: وقد ظلع فرس لي فقال بعض أهل البادية من خفاجة وهو من أفصح الناس: إيما نسره مفلوق، وإيما موهوص.

٧

ذلكم إجمال الكلام في بداوة أبي الطيب. ولست أقول إن البداوة أنتجت هذه النتائج كلّها في أخلاقه وشعره، ولكني أقول إن بين طباعه وشعره وبين البداوة صلة قويّة: غرائز في الشاعر حبّبت إليه البداية وما يتصل بها، وبداوة وكّدت هذه الغرائز في نفسه. وبهذه الأخلاق الحرة

والطباع القوية والشجاعة والإقدام كان أبو الطيب أقرب إلى الطبع العربي من غيره. ولو أن عمرو بن كلثوم وعنترة العبسي والحارث بن حِلّزة عاشوا في القرن الرابع الهجري حيث عاش أبو الطيب المتنبى لأشبهوه في كثير من قوله وفعله.